العدد (٥٩٥) ربيع الأول ١٤٣٦ هـ - يناير ٢٠١٥ م

أسست عام ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

العنف.. لماذا؟

ودوافع الحوار المطلوب (ملف العدد)

تجديد الوعي بحركة التاريخ

الإنسانية.. ومقام الرحمية الواحدة

الحشرات في قائمة الغذاء العالمي

فيلكا.. جزيرة كويتية عامرة بالآثار

موقف الحضارات غير المسلمة من المخالفين في الدين

مجانا مع العدد «براعم الإيمان»

info@alwaei.com

www.alwaei.gov.kw

مجلة الوعي الإسلامي

الرفق ميمون والعنف مشؤوم

الرفق ضد العنف، ومن أعطي حظه من الرفق، فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق، فقد حرم حظه من الخير. وإن العنف يلغي العقل، باعتبار أنه ينظر بعين واحدة، ويأمر بالكره لكل من خالفه، ويورث الحقد والعداوة. ولكي تزدهر الحياة البشرية في المجتمع، وتتأصل كرامة الإنسان من الاحترام والإنصاف، بعيدا عن التعدي والانحراف، ينبغي رفض العنف، فأي مجتمع يسود فيه العنف لا يمكن أن يتقدم ويتطور، وتقام فيه العدالة.

وقد تتحول الاختلافات الفكرية والسياسية والاجتماعية إلى عنف تسود فيه القيم السلبية من التعصب والتنازع والقهر والاستبداد، مقابل قيم العدالة والحرية والتفاهم والاحترام.

والخلاف بين الناس سنة إلهية كونية. وما نراه من العنف والنزاع ينشأ في الأصل من البعد عن المنهج الرباني، والتعاليم الحكيمة، والإرشادات القويمة، والنصائح العظيمة، التي أرشد بها الرسول ﷺ أمته في خطبة الوداع.

ولقد جاءت الشريعة لتقرير الحقوق والواجبات وكفالتها للجميع، من دون تمييز، وقد قالوا في الأمثال:

من لم يحسن إلى الناس قبحت إساءته، ومن حسنت مساعيه طابت مراعيه، ومن كرم خلقه وجب حقه، ومن ساء خلقه ضاق مَذْقه.

فالقواعد والأصول اللازمة للوصول إلى الحق والصواب في النزاعات والمجادلات والحوارات، هي: العدل والوفاء، والرفق والعطاء.. ارحم من دونك يرحمك من فوقك، ومن أساء فعلى نفسه اعتدى، ومن طال تعديه كثرت أعاديه. فالعنف والتعصب كم جلبا للإنسان من شر، وأوقعا صاحبهما في خسر.

فاحرص مع الآخرين على الرفق والإنصاف، ولا تضخم مسائل الخلاف، واحذر آفة الانحراف.

العنف؛ من اتصف به ضاق صدره، وغاب وعيه، وجانبه الصواب.

وعليك بالرفق فإنه لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه، لأن به تسهل الأمور.

ورافق الرفق في كل الأمور فلم ... يندم رفيق ولم يذممه إنسان
ولا يغرنك حظ جره خرق ... فالخرق هدم ورفق المرء بنيان

ومن يحرم الرفق يحرم الخير.

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٩٥ | ربيع الأول ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
يناير ٢٠١٥ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح
د. الطاهر خذيري
هدايت الله نثار أحمد

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
فاطمة الجندي

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

في هذا العدد

١٦
الردة الأخلاقية وأثرها على أمن المجتمع

٥٨
منهج القرآن في الحض على الإنفاق

٧٠
حلب في الأدب التركي الحديث

٩٤
الاستئصال الاحترازي بين الشرع والطب

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

الكويت : ٥٠٠ فلس • السعودية: ٥ ريالات • البحرين : ٥٠٠ فلس • قطر : ٥ ريالات • الإمارات : ٥ درهم • سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة • الأردن:دينار واحد • مصر : ٢ جنيه • اليمن : ١٠٠ ريال • لبنان: ٢٠٠٠ ليرة • سوريا: ٣٠ ليرة • المغرب : ١٠دراهم • الجزائر: ٤ دينار جزائري • تونس: دينار واحد تونسي • المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني • باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

٣	**الافتتاحية**/ الرفق ميمون والعنف مشؤوم	فيصل يوسف العلي
٦	**مناسبات**/ تجليات الرحمة في شخص الرسول الرحيم	علاء الدين حسن
٨	**رقائق**/ .. ورجلان تحابا في الله	د. الجيلالي سبيع
١٢	**حوار**/ د. محمد داود الأمين العام للمركز العالمي للقرآن	صابر رمضان
١٦	**أخلاق**/ الردة الأخلاقية وأثرها على أمن المجتمع	د. خالد راتب
١٨	**فكر**/ الإنسانية.. ومقام الرحمية الواحدة	د. عطية الويشي
٢٢	**ملف العدد**/ العنف.. لماذا؟	د. آندي حجازي
٢٦	الإحباط سبب رئيسي للعنف	إسلام لطفي
٢٩	مؤسسات المجتمع المدني.. والحوار المطلوب	السنوسي محمد
٣٢	دوافع العنف لدى الشباب	محمد شعبان أيوب
٣٥	أخلاق/ ستة آداب.. متى تعود؟	د. عبدالناصر السقا
٣٦	قيم/ الوفاء بالوعد وأثره على الرزق	إحسان الدبش
٣٨	**دراسات**/ الحشرات في قائمة الغذاء العالمي	د. رضا عبدالحكيم
٤٢	التدبير المالي من مقاصد الأسرة	د. حميد مسرار
٤٦	أثر عوائد العرب في تفسير آي القرآن	لخضر بوغفور
٥٢	موقف الحضارات غير المسلمة من المخالفين في الدين	حازم ماهر
٥٤	مركزية القرآن في إنتاج المعرفة	د. بدران بلحسن
٥٨	منهج القرآن في الحض على الإنفاق	د. أمان قحيف
٦٢	**لغة وأدب**/ القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٨)	عبدالله الأعشير
٦٤	الروماني نيقولا دوبريشان وتجربته مع اللغة العربية	محمد عويس
٦٨	سر شفاء عبدالرحمن	محمد ثابت
٧٠	حلب في الأدب التركي الحديث	عبدالستار الحاج
٧٤	عفوا أبا تمام	أسامة الخريبي
٧٦	**مقدمات الكتب**/ الوافي بالوفيات	التحرير
٧٩	**أسرة**/ المؤسسة الأسرية.. وأدب الأطفال	عبدالمجيد قاسم
٨٢	كيف نغرس حب الفصحى في قلوب أبنائنا؟	سالم بن عميران
٨٤	وصايا الآباء لمؤدبي أبنائهم	وائل حافظ
٨٦	حقوق الخادم في الإسلام	نجاح سرور
٨٨	سياسة تعليم الصبيان وآدابها	الحسين أكروم
٩١	**دعوة**/ ثقافة إهداء العيوب	كمال عبدالمنعم
٩٢	ولكن لا تحبون الناصحين	د. خالد النجار
٩٤	**تحقيق**/ الاستئصال الاحترازي بين الشرع والطب	ريهام عاطف وآية إيهاب
٩٦	**استطلاع**/ فيلكا.. جزيرة كويتية عامرة بالآثار	علاء عبدالفتاح
٩٨	**طب**/ العلاج الكيميائي للمرض الخبيث	د. عبدالرحمن النمر
١٠٢	**كنوز الذاكرة**/ الضعف في القيادة	عبداللطيف الصالح
١٠٤	**النوازل**	د. محمود الكبش
١٠٨	**ينابيع المعرفة**	تركي النصر
١١٠	**بريد القراء**	التحرير
١١٤	**مسك الختام**/ الأبعاد الأخلاقية في العملية الاجتهادية	د. محمد طونيو

كلمة العدد

الله أعلم حيث يجعل رسالته..

النبوة.. ما أعظمها من كلمة! وما أجلها من نعمة!

إنها محض اجتباء من الله لعبد من عباده، وتمام اصطفاء له من بين خلقه، ليكون سفيره إلى الناس، بشيرا لهم ونذيرا، وداعيا إلى صراط الله بإذنه وسراجا منيرا، يبلغهم رسالات ربه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (القصص: ٦٨)..

وهكذا عرفت البشرية مصطفاها الجليل محمدا ﷺ، فقد كان اختياره الرباني مسلسلا بالاصطفاء والانتقاء، اختار سبحانه - بدءا - من خليقته ولد آدم، واختار من بني آدم ولد إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة من خزيمة، ثم اختار من ولد كنانة قريشا، واصطفى بني هاشم من قريش، ثم اختار من بني هاشم سيد ولد آدم محمدا ﷺ، فهو خيار من خيار من خيار ﷺ.

عن شداد أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» رواه مسلم، وعن العباس بن عبدالمطلب، قال: قال النبي ﷺ: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسا، وخيرهم بيتا» رواه الترمذي.

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

تجليات الرحمة في شخص الرسول الرحيم ﷺ

علاء الدين حسن
كاتب دراسات إسلامية

صفة إنسانية نابعة من حب كبير، تستشرف الآفاق، وترقى بنا إلى قيم العزة والاعتزاز، صفة لا تمحق ولا تمحى، رغم عواتي المحن، تمنحنا الدفء والأمان، صفة من صفات الخالق العظيم.. هو الرحمن الرحيم، وهو أرحم الراحمين. قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف:١٥٦).

وجاء في الحديث القدسي الجليل: «أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته» (رواه الترمذي).

والرحمة نسيج متناسق، فيه لطف وتؤدة. ومن رحمة الله بعباده أن أرسل الرسل؛ ليكونوا دعاة عطف ينزعون الحقد، قال الله تعالى عن خاتم الأنبياء والمرسلين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧). وقال عزوجل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة:١٢٨). وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح:٢٩).

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

ولقد كان ﷺ رحمة في الدين والدنيا، أما في الدين؛ فلأنه بعث والناس في جاهلية، فدعاهم إلى الحق، وبين لهم الأحكام، وميز الحلال من الحرام. أما في الدنيا؛ فلأنهم تخلصوا ببعثته من الذل والهوان، فالرسالة المحمدية رحمة للبشرية، ولاتزال هذه الرحمة وارفة لمن يريد أن يستظل بها.

وحتى الكفار رحموا ببعثته ﷺ؛ حيث أخر الله عقوبتهم، فلم يستأصلهم بالعذاب، كالخسف والمسخ والغرق، كما حدث للأمم السابقة، إكراما له عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ (الأنفال:٣٣).

وهذه مشاهد تربوية من سيرة أشرف الخلق، تتجلى فيها الرحمات بأروع صور..

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة لها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت» (رواه مسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له، وغفر له» (صحيح البخاري).

ولم يكن ﷺ يطيق أن يرى دابة تحمل فوق طاقتها، ونهى أن يتخذ من فيه روح غرضا للتسلية، كحال ما يعرف بمصارعة الثيران، ونهى عن التحريش بين البهائم، وأنكر على أهل الجاهلية شق آذان الأنعام، وأمر عند ذبح الحيوان أن يحد المرء شفرته، وألا نذبح ذبيحة ودابة أخرى تنظر إليها، وألا يحد الذابح شفرته بحضرة الذبيحة.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الرفق لم

يكن في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه» (رواه أبوداود). وقال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (صحيح البخاري). وقال: «من لا يَرحم، لا يُرحم» (رواه مسلم).

وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء» (رواه أحمد).

ومن صفات الرحماء: الصدق مع الله، والأمانة، والإيثار، والتوبة، والعدل.

ولقد كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى في الرحمة بالصبيان.. عن أبي مسعود قال: ضربت غلاما لي بالسوط، فسمعت صوتا من خلفي، فإذا برسول الله ﷺ يقول: «اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام» (صحيح الجامع، حديث رقم ١٠٧١).

ومن رحمته بالبنات رعايتهن وإكرامهن.. قال ﷺ: «من عال جاريتين حتى يدركا، دخلت أنا وهو الجنة كهاتين» (رواه الترمذي). وقال عليه الصلاة والسلام: «اعدلوا بين أبنائكم» (رواه أحمد).

ودعا ﷺ إلى الرحمة بالوالدين فقال: «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم» (رواه الطبراني في الأوسط، ٢٩٩/١).

وفي مجال رحمته بأهله قال عليه الصلاة والسلام: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» (رواه الترمذي).

ومن رحمته ﷺ باليتيم قوله: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة. وقام بإصبعيه: السبابة والوسطى» (ابن حبان في صحيحه).

ودعا ﷺ إلى الرحمة بالجار، فقال: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به» (صححه الألباني).

قسما بأن محمدا خير الورى
أهدى إلى الثقلين دينا يعتمد
قسما بأن محمدا بكماله
ما مثله أحد، ولا يأتي أحد

ومن رحمته ﷺ بالناس قوله: «إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا» (صحيح مسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله! ادع على المشركين. قال: «إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة» (صحيح مسلم).

ومرت به ﷺ جنازة، فقال: «مستريح أو مستراح منه». قالوا: ما المستريح، وما المستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب» (سنن البيهقي).

ولو تراحم الناس لما كان بينهم مظلوم ولا بائس ولا محروم.. لو تراحم الناس، لما اقتتلوا ولا سفكوا الدماء.. لو تراحم الناس، لما تخاصموا ولما لجأوا إلى المحاكم لحل النزاعات فيما بينهم.. لو تراحم الناس، لسكنت النفوس.

.. ورجلان تحابا في الله

د. الجيلالي سبيع
باحث دراسات إسلامية

وصف النبي ﷺ في الحديث العظيم الذي رواه مسلم في صحيحه السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله بالرجال، والرجل مصطلح يحمل معاني القوة والأمانة والصدق والحلم والأناة، وفي إشارة لطيفة لأحد العلماء فإن عدد المنعمين تحت ظل الرحمان ثمانية، لكن صار العدد سبعة لأن الحب في الله صهر المتحابين فيه فصارا رجلا واحدا وذاتا واحدة، وهذا ملحظ مهم يختصر مآل الصدق في محبة الغير بقصد طلب وجه الله تعالى.

وإذا كانت الأمور تشرف بمقاصدها وغاياتها، فإن الحب: نقيض البغض (١)، والحب: الوداد، وحببته أحبه بالكسر لغة، حبا بالضم والكسر، فهو محبوب، والتحبب: إظهار الحب.

قال النووي في شرح حديث ظل الرحمن (ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه): «معناه: اجتمعا على حب الله وافترقا على حب الله، أي كان سبب اجتماعهما حب الله، واستمرا على ذلك حتى تفرقا من مجلسهما وهما صادقان في حب كل واحد منهما صاحبه لله تعالى، حال اجتماعهما وافتراقهما» (٢).

وقد أضاف الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام الحب إلى الله تعالى، وأنعم بها من إضافة وأنعم به من حب، وهو ما يفهمه المتأمل بعد من قوله «اجتمعا عليه وتفرقا عليه»، والمعنى اجتمعا على مرضاته وما يقرب إليه، ولم تجمعهم أرحام ولا مصالح متبادلة.

وإذا كان الأصل في ذلك محبة الله لعبديه وتوفيقه لهما، فإن إضافة الحب لله تعالى إشارة خفية إلى المظهر الحقيقي للحب الذي تاهت العقول والفلسفات في إدراكه، مع ما في الاجتماع عليه من دلالات على مخبر الحب الذي لا يتوصل إليه إلا بالذوق الذي لو عرفه المعرضون والمغرضون لجالدوا المتحابين عليه بالسيوف.

وإذا كان لكل معنوي ما يدل عليه من المحسوسات، فإن مظاهر الحب في الله عزوجل كثيرة، منها توصيف الإمام الأوزاعي الرائع: «الصاحب للصاحب كالرقعة للثوب، إذا لم تكن مثله شانته»، وفي ذلك إشارة إلى الموافقة التي تحصل بين المتحابين لأن قصدهم واحد.

كما تنبغي محبة الشخص لذاته لأن ذلك أدعى إلى السمو بإنسانيته ورفع الاعتبار لشأنه؛ ما يكون رادا له عن سبيل الغي والهوى، فقد مر أبوالدرداء برجل قد أصاب ذنبا وكانوا يسبونه، فقال لهم: أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذي عافاكم، قالوا: أفلا تبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي» (٣). ولهذا قال يحيى بن معاذ الرازي: «حقيقة المحبة أنها لا تزيد بالبر ولا تنقص بالجفاء» (٤).

وقد سطر الصحابة الكرام صفحات مجيدة في سجل الحب في الله، وهم الذين جسدوه تجسيدا ما بعده تجسيد على أرض الواقع، وتتواتر الروايات حول محبة كل منهم الخير لأخيه وإيثاره له على نفسه، وما قصة من تعجب الله من صنيعهما، والسبعة الذين دار قدح الماء بينهم في ساحة الوغى حتى هلكوا إلا نزر يسير في باب رقيت فيه الأنفس وتآلفت، طلبا لوجه ربها ومولاها.

ومن أروع صفحات الحب في الله ما كان بين المهاجرين والأنصار، ومما ميز علاقتهم القلبية المتينة نصح وإقالة عثرات بعضهم لبعض، فعن مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، أن أبا الدرداء كتب إلى أخيه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهما: أن هلم إلى الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان: «إن الأرض لا تقدس أحدا، وإنما يقدس الإنسان عمله، وقد بلغني أنك جعلت طبيبا، فإن كنت تبرئ فنعما لك، وإن كنت متطببا فاحذر أن تقتل إنسانا فتدخل النار» (٥).

وحري بمن اجتمعا على الله أن ينزل أحدهما الآخر منزلة نفسه، ويعرف له حقه وفضله، فقد جاء رجل إلى أبي هريرة رضي الله عنه وقال: إني أريد أن أواخيك في الله، فقال: أتدري ما حق الإخاء؟ قال: عرفني، قال: أن لا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني، قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد، قال: اذهب عني» (٦).

وقد وصل تلطف المتحابين في الله ببعضهم، والكرم بينهم درجة رفيعة تعجز الكلمات عن وصفها، وتعبر عنها مواقف من مثل قول أحدهم: «إذا طلبت من أخيك مالا فقال ماذا تصنع به، فقد ترك حق الإخاء» (٧).

إن المواقف المعروضة وغيرها كثير مما حفلت به كتب السير والمغازي والأنساب والرقائق والآداب- دليل على إدراك ذاك الرعيل لقيمة الحب في الله وأهميته في العاجل والآجل.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» (رواه مسلم).

قال ابن عبدالبر في المراد بظل الرحمن المبشر به: «وظل الله، عزوجل، في هذا الموضع رحمته -والله عزوجل أعلم- وجنته، وقيل ظل الله، عزوجل، ظل عرش الله... ومن كان في ظل الله، عزوجل، سلم من هول الموقف وشدته وما يلحق الناس فيه من القلق والضيق والعرق» (٨).

وتمثل هذه العطايا والمبشرات الربانية جعل الصادقين على وجه الأرض يستميتون في طلب هذا الحب المفقود، ويتشبثون بكل طريق مؤدية إليه، ولننظر كيف تصرف الصحابي الجليل معاذ رضي الله عنه حين انبرى أمامه شعاع من تلك المحبة اللاحبة، وكيف تمسك بأهدابها في فهم وإيمان عميق بمواطن القرب والزلفى إلى الملك الوهاب.

فعن أبي إدريس الخولاني قال: «دخلت مسجد دمشق فإذا فتى شاب براق الثنايا، وإذا الناس معه، إذا اختلفوا في شيء أسندوا إليه وصدروا عن قوله، فسألت عنه، فقيل: هذا معاذ بن جبل، فلما كان الغد هجرت فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي، قال فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قبل وجهه، فسلمت عليه، ثم قلت: والله لأحبك لله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، قال: فأخذ بحبوة ردائي فجبذني إليه، وقال: أبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين في، والمتجالسين في، والمتزاورين في، والمتباذلين في» (٩).

وإذا كان كل صادق ولاشك يفني عمره - عبادة وذكرا وعملا وتقربا - طلبا لمحبة ربه ومولاه، وطلبا لسلامة قلبه، وأملا في الفوز بظله ورحمته وعفوه، فإن الحديث يدل على أقصر السبل وأسلكها في الباب، وطالما وصف بالسبيل السهل الذي يقتضي حركة قلبية بسيطة، والأمر ليس كذلك إذا تعلق بقلوب قاسية طال عليها الأمد، وما يفعل لقلب نزعت الرحمة منه، كما جاء في البلاغ النبوي.

وتتوارد الأحاديث والآثار الدالة على ما أعده الله، عزوجل، وهو الكريم المنان للمتحابين بجلاله، فعن معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عزوجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء» (أخرجه الترمذي).

ومرتبة كتلك هي التي جعلت الحسن رضي الله عنه يقول: «إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا، وإخواننا يذكروننا بالآخرة» (١٠).

وهذا ما حدا بالشرع الحنيف أن يرتقي بالحب في الله إلى مصاف الأعمال والقربات الجهادية العظيمة، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: النبي في الجنة، والصديق في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، ورجل زار أخاه في ناحية المصر؛ يزوره في الله في الجنة» (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان).

وإذا كان من العجب أن يضرب الرجل اليوم أكباد الإبل كي يزور أخاه في ناحية المصر، فإنه يجب رعاية وتعهد ذاك الإحساس الذي ولد تحمل تلك المشاق، لأن المكنونات القلبية تزيد وتنقص، وهذا ما تنبه إليه رسول الله ﷺ في صناعته للرجال، - ومنهم معاذ رضي الله عنه الذي تبهر سيرته الألباب - حيث قال: «يا معاذ إني لأحبك» (أخرجه الإمام أحمد).

فهذا الاعتراف لبنة أولى في تعهد الحب في الله، بما يزرعه في قلب المحبوب من ثقة وإحساس بالاهتمام العاري عن أية دواع نفعية مادية مصلحية آنية، مما يولد في قلبه همة عالية في طلب المعالي.

وهو ما جسده الصالحون بعد رسول الأنام عليه أفضل الصلاة السلام، فقد روى الإمام أحمد: «أن أبا سالم الجيشاني، أتى أبا أمية في منزله فقال: إني سمعت أبا ذر، يقول: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا أحب أحدكم صاحبه فليأته في منزله فليخبره أنه يحبه لله عزوجل» وقد أحببتك فجئتك في منزلك» (أخرجه الإمام أحمد).

فالزيارة والاعتراف حق للمسلم على أخيه، ما يفتل في حبل العلاقات الأخوية التي تسمو بسمو القصد منها.

وإذا كان التفضل الرباني أصل أصول الحب في الله، لأنه هو الذي ألف بين القلوب (١١)، فإن التضرع والدعاء من مظان صيانة ذاك الإحساس الرفيع وتعهده، ومن أدل ما يستدل به أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «استأذنت النبي ﷺ في العمرة، فأذن وقال: لا تنسنا يا أخي من دعائك، فقال: كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا» (أخرجه أبوداود).

وإذا طُلب الدعاء من رسول الأنام، فمن دونه أولى بالطلب وأحوج، وهو ما تواترت الآثار

حوله في صفحات مجيدة التقت فيها سماحة القلوب وصفاؤها بتوفيق من الله ورعايته.

وقد كان أبوالدرداء يدعو كل ليلة لجماعة من إخوانه، وقال الإمام أحمد بن حنبل لولد الشافعي: «أبوك من الستة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السحر» (١٢).

فالحب في الله وفاء ومروءة، قال يحيى بن معاذ: «بئس الأخ أخ تحتاج أن تقول له: اذكرني في دعائك» (١٣). وفي ذلك عربون على المحبة المبتغية وجه الله تعالى، التي سمى رسول الله ﷺ المجتمعين عليها بأبناء الآخرة، حيث قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا علي، استكثر من المعارف من المؤمنين، فكم من معرفة في الدنيا بركة في الآخرة». فمضى علي رضي الله عنه فأقام حينا لا يلقى أحدا إلا اتخذه للآخرة، ثم جاء من بعد، فقال له رسول الله ﷺ: «ما فعلت فيما أمرتك؟» فقال: قد فعلت يا رسول الله، فقال له عليه الصلاة والسلام: «اذهب فابل أخبارهم» فأتى علي النبي ﷺ وهو منكس رأسه، فقال له النبي ﷺ وهو يتبسم: «ما أحسب يا علي ثبت معك إلا أبناء الآخرة». فقال له علي: لا والذي بعثك بالحق.

فقال له النبي ﷺ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧) يا علي، أقبل على شأنك، واملك لسانك، واعقل من تعاشره من أهل زمانك تكن سالما غانما» (أخرجه أبونعيم في الحلية).

فما أحوج الأمة إلى إحياء هذه المعاني السامية في النفوس، في زمن طغيان المادة وضمور الربانية، وهي معان تجعل للعلاقات الإنسانية امتدادا في الآخرة، حين يكون الخل عدوا لخله إلا المتقين، فالحب في الله وفاء في الدنيا، تصلح به أواصر الصلة بين الأخ وأخيه، ومواقف ثبات يباركها الرحمن، تمتد آثارها بخير في حياة الخلود، حياة الآخرة، ومن صفى، صفي له، ومن كدر، كدر عليه، ومن أحسن في ليله، كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره، كوفئ في ليله. كما قال أبوسليمان الداراني، رحمه الله (١٤).

يقول أحد العارفين بالله مستنهضا الهمم في الباب: «يا غافل، هذا عمرك يتصرم، فماذا أسست من صداقات، وماذا بنيت لآخرتك من معارف، وما شغف قلبك من أحباب؟ أنت مع أولئك يوم القيامة، وأنت من ذلك الصنف أيا كان، فالأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف كما روى مسلم وأبوداود عن أبي هريرة مرفوعا.

الهوامش

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، من ص ٢/٢١٢ إلى ص ٢/٢١٩، مجموعة من المحققين، دار الهداية.

(٢) شرح النووي على مسلم، ص ٧/١٢١، باب فضل إخفاء الصدقة، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبوزكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، ط ٢، ١٣٩٢ هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) التبصرة لابن الجوزي، جمال الدين أبوالفرج بن الجوزي، ص ٢/٣٠٥، ط ١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٤) صفة الصفوة، ابن الجوزي، تحقيق: أحمد بن علي، ص ٢/٢٩٣، ط ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، دار الحديث، القاهرة، مصر.

(٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبونعيم الأصبهاني، ص ١/٢٠٥، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

(٦) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، محماس الجلعود، ص ١/٢٩٦، ط ١، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، دار اليقين للنشر والتوزيع، وقد أحال على مخطوط فضيلة الألفة والأخوة، بقسم المخطوطات بجامعة الرياض، رقم (١٦٠٥) فيلم (٥٥٦/ ٦) الورقة (٣٧) المؤلف غير معروف، كتبت في القرن التاسع الهجري تقريبا، والأثر موجود بقوت القلوب، والإحياء، وأدب الدنيا والدين.

(٧) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ص ٢/١٨٠، دار المعرفة، بيروت.

(٨) الاستذكار، أبوعمر يوسف بن عبدالبر القرطبي، تحقيق سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، ص ٨/٤٤٨، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٩) الاستذكار، ص ٨/٤٥١.

(١٠) إحياء علوم الدين، الغزالي، ص ٢/١٧١.

(١١) قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٢-٦٣).

(١٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي، عناية حسن المساحي سويدان، ص ١/٣٠، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، دار القلم، دمشق.

(١٣) صيد الخاطر، ص ١/٣٩١.

(١٤) صيد الخاطر، ص ١/٣١.

د. محمد داود الأمين.. العام للمركز العالمي للقرآن الكريم وعلومه:

لغة الإعلام أخطر من السلاح

حوار: صابر رمضان

الصراع بين الخير والشر والتدافع بين الحق والباطل سنة جارية من سنن الله في خلقه، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة:٢٥١). والعلماء في وقت الفتن والمحن لا يذوبون فيها، إنما يقفون موقف المصلح والمرشد والهادي لأمته والوطن، فهم أدلة الإنقاذ والأمناء على الحق، يدعون لدينهم لا إلى مذهب خاص ولا إلى نصرة جماعة أو حزب، ومن هنا يتعاظم دورهم في المحنة المعاصرة التي تعيشها الأمة، وقد تكالبت عليها الأمم وأحاطت بها الفتن، وجاءت موجة عاتية من الشبهات والشهوات والخلافات المذهبية والطائفية وهدم الرموز الفكرية...إلخ من أدوات الفوضى الخلاقة (الهدامة) كما قيل، كل ذلك ليعود المجتمع إلى نسيج مهلهل مفكك منهار، فتسهل إعادة التقسيم لمشروع الشرق الأوسط الجديد، إن الأمر أبعد من كل خلاف، فالأمة في خطر كما يؤكد الدكتور محمد محمد داود الأمين العام للمركز العالمي لعلوم القرآن والأستاذ بجامعة قناة السويس:. «الوعي الإسلامي» التقته وحاورته فإلى نص الحوار:

● بداية.. العالم الإسلامي يتعرض للعديد من الافتراءات للنيل من الدين الإسلامي ورموزه، فماذا لديكم لمواجهة هذه الافتراءات والأكاذيب؟

– من المؤكد أن الافتراءات على العالم الإسلامي عديدة ومتنوعة، فهم يضربون بالشبهات حول العقل لتشكيك المسلم في الثوابت الدينية في القرآن وفي النبي وفي السنة النبوية، بل ويواجه العالم الإسلامي الآن موجة جديدة، هي موجة الإلحاد، وهذه الموجة إنما تدعم فكريا وماليا من الخارج، ويهدفون من وراء ذلك أن يتحول المجتمع العربي الإسلامي إلى نسيج مهلهل، فتكون فكرة المشروع الغربي للتفكيك والتقسيم لمصلحة الصهاينة، لتكون هي الدولة العظمى في المنطقة، لنشر الاختلافات بين كل تنوع، وبدلا من أن يكون التنوع عاملا من عوامل الثراء في الحياة الفكرية عندنا؛ حولوه إلى عامل من عوامل الفرقة والتنازع، ومن هنا وجب على العقل المسلم أن يستحضر وعيه وثوابت العظمة في تاريخنا ليستطيع أن يواجه هذه الحملة الضارية التي نواجه فيها تكتلا دوليا ممكنا بالمال والعلم والاقتصاد والسلاح...

إلخ، وما من شك أن الحروب الجديدة التي تستخدم الفكر واللغة والشائعات وتستخدم التقنية الحديثة لإشاعة الخلافات والاختلافات أنها حروب لها نمط خاص ينبغي أن تكون المواجهة بنفس الأسلوب الذي نحارب به، فينبغي أن نتغير، وأن يكون هناك تحديث للشخصية العربية في المواجهة، لأن المواجهة خطيرة وشديدة، وأصبحت لا تقتصر على المؤامرة بمعنى التدبير الخفي فقط، فالآن الأمور ظاهرة وواضحة ومعلنة، والأوراق شبه مكشوفة ومعلومة، والوعي هو الذي يصنع القوة في الأمة، الوعي بمناحي القوة التي عندنا وبالمخاطر التي تحيط بنا، وأيضا بالنتائج المتوقعة إذا لم يكن كل منا مستعدا للقيام بدوره والتضحية من أجل الوطن والأمة والدين، ومن أجل هذه الثوابت التي هي هويتنا وهي أصالتنا وهي حياتنا وهي كياننا الذي ينبغي أن ندافع عنه.

● وهل كان لكم جهود في المواجهة الفكرية ضد هذه الشبهات والافتراءات؟

– نعم بفضل الله وحمده، في المواجهة الفكرية في جانب الشبهات، حيث اجتمع علماء الإسلام ليواجهوا هذه الافتراءات والشبهات والإساءات المتكررة للقرآن والنبي ﷺ وللأمة عامة، وكان يسيئنا ويسيء كل العلماء رد الفعل الشعبي الذي يتسم بالتهور والاندفاع، والذي تصدر منه بعض السلبيات التي لا يوافق عليها القرآن، ولا تعبر عن عظمة الإسلام، مثل الحرق والتدمير والظاهرة الصوتية من السب والشتم، فأراد العلماء أن يقوموا برد فعل فكري علمي بدلا من رد الفعل الشعبي، فاجتمعنا حول هذا العمل وتفرغنا له خمس سنوات متتالية، وقمنا بعمل مسح لكل الشبهات عبر الإنترنت في المواقع المختلفة والكتب المطبوعة؛ سواء كانت ورقية أو إلكترونية، وتم التصنيف والحصر، وناقشنا المنهج الذي يجدي في مواجهة هذه الشبهات بعمق كبير، وبعد المناقشة انتهينا إلى معالجة الفكر بالفكر، والتمسنا من منهج القرآن في الرد على الشبهات التي أثيرت وقت نزول القرآن، سبيلا للرد على هذه الشبهات، فالقرآن الكريم علمنا كيف يكون الحوار مع المخالف والمفتري علينا، ثم قمنا بتصنيف هذه الشبهات من تخصصات التاريخ واللغة والشريعة...إلخ، ثم كان الرد بالمنهج العلمي الذي يخاطب العقل، ثم كان نقاش هذه الردود مع جمعية السلام الأميركية التي جاءنا فيها علماء من اليهود وعلماء من الكنيسة من أميركا، وتمت مناقشة القضايا الكبرى المطروحة، مثل قضايا المرأة وقضايا الآخر والعنف والإرهاب... إلخ، وتم طبع موسوعة «بيان الإسلام.. الرد على الشبهات» في أربعة وعشرين مجلدا، وهو جهد يذكر فيشكر لإسهام علماء الأزهر الشريف بالقدر الأكبر في إنجاز هذه الموسوعة، أمثال د. الأحمدي أبوالنور وزير الأوقاف الأسبق، ود. أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر الأسبق، وجمع من أساتذة كلية أصول الدين والشريعة بالأزهر الشريف، وبحمد الله أقمنا موقعا كبيرا للموسوعة؛ حسبة لوجه الله، وهو أكبر موقع متخصص للرد العلمي على الشبهات والافتراءات.

د. داود مع محرر الوعي الإسلامي

● وهل تصب هذه الجهود في خدمة وعي الأمة الإسلامية؟

– نعم.. فمن المهم أن تكون صناعة الوعي على بينة، وأن يتصدى له أهل الذكر المتخصصون؛ لأن الردود الانفعالية التي تأتي بعيدا عن أهل التخصص قد تسيء أكثر مما تصلح، وهناك الآن جهد مماثل في الرد على شبهات الإلحاد، فالإلحاد في هذه الهجمة إنما يتخذ العلم تكئة له، حيث يقول البعض: إن الذين لا يؤمنون بالدين قد صعدوا الفضاء، على حين أن المسلمين ليس لهم موقع على الخريطة العلمية العالمية، وقد اجتمع العلماء في سلسلة تصدر تحت عنوان «حوار الإيمان والإلحاد» تكشف هذه الادعاءات، فديدننا أننا لا نهاجم، لأن القرآن علمنا الخلق، ولا ندافع لأننا ليس لدينا سوءة نضع أنفسنا موقع الدفاع عنها، وإنما نبين الحقائق التي تعبر عن عظمة هذا الدين، بالحكمة والموعظة الحسنة.

● ما تذكره يتمركز حول الجهد النظري.. فماذا عن الواقع الذي تعيشه الأمة ألما ومعاناة؟!

– الجانب العملي من أهم المهم، فالأمة تعيش في فتنة خطيرة، وهي فتنة الاختلاف السلبي،

وهدم بعضنا لبعض، حتى إن الأسوة فقدت، لأن الناس يرون الدعاة يسب بعضهم بعضا، وهنا يجب التعقل فإلى أي شيء ندعو الآخر: إلى السب والشتم؟! ولماذا لم يظهر الإسلام فينا الرحمة والسماحة؟ ونرد على هذا الواقع الصادم ونؤكد كثيرا أنه لا يوجد أحد حجة على الدين، مهما كان، فمن أخطأ فهو مخطئ، لكن الصورة العامة في العالم العربي والإسلامي صورة مؤسفة، تتسم بالسلبية، وصادمة وتدعو الآخر إلى أن ينفر منا، وبالتالي ينفر من الإسلام، ومهما حدثته عن العظمة في القرآن فإنه لن يصدق لأن الواقع في أزمة، فينبغي أن نصحح الأمل... وهو أفعالنا وسلوكاتنا، إذا أردنا تصحيح الصورة وتصحيح الأفكار، واسترداد الوعي يمثل البداية الصائبة والجادة لأن نغير ما بأنفسنا من علل أو خلل، إنها هموم أمتنا وآلام واقعنا، وإهمالها دون مواجهة ومعالجة معناه أن تأتي علينا هذه الهموم وتفتك بنا هذه الآلام.

● وما سبب هذا الواقع المتأزم الذي يعيشه العرب والمسلمون؟

- الواقع المتأزم للعرب والمسلمين هو ما صنعته السياسة بالاستخدام السيئ للدين من خلافات وصراعات، بل وحروب، وهذا لم يحدث لدين دون دين، حدث للأديان الثلاثة اليهودي، المسيحي، الإسلامي، فالصهيونية كحركة سياسية تدمر وتقتل الأبرياء، وتحتل الأرض باسم اليهودية، ولا يمكن لعاقل منصف أن يتعامل مع الصهيونية على أنها اليهودية، فاليهودية دين، لذلك رأينا من اليهود من يعترض على أفعال الصهاينة، ويقف ضدها في المحافل، بل ليهاجمها، ومن هؤلاء المفكر اليهودي الأميركي «نعوم تشومسكي» وعلى مستوى النصرانية لا يمكن إغفال ما صنعته السياسة من الاستخدام السيئ للدين، كما حدث في محاكم التفتيش في أوروبا، وقتل العلماء باسم المسيحية واسم الكنيسة، ولا يمكن إغفال الاستخدام السيئ للصليب الذي هو رمز للتضحية عند المسيحيين، فحولته السياسة إلى رمز للقهر والحروب والتدمير في الحروب الصليبية، وأيضا الصراعات التي صنعتها السياسة على مستوى العالم الإسلامي؛ أساءت للإسلام والمسلمين، والإسلام منها بريء، فالعنف كما يقرر الخبراء ليس صناعة دينية بأي حال، إنما هو صناعة سياسية بين أطراف النزاع والمصالح لإدارة الصراع، كل طرف لمصالحه حسب رؤيته.

● هناك من يدعو من العلمانيين ومن على شاكلتهم لتهميش دور الدين في الحياة حتى يرتقوا كما ارتقى الغرب العلماني.. فماذا تقول لهم؟

- هناك شائعة أو قل فكرة يريدون لها الشيوع، وهي وافدة من الغرب في الأساس، فهم يقولون إن أوروبا تقدمت لأنها تركت الدين، فإذا أردتم أيها المسلمون التقدم فتخلوا عن الدين، ويقصدون الإسلام، وهذه أكذوبة، فأوروبا أخذت بأسباب التقدم وأسباب الحضارة فتقدمت، ونحن تخلفنا لأننا لم نأخذ بأسباب التقدم، ولم نتخلف لأننا التزمنا بالدين، بل لأننا أهملنا الدين، فعندنا في الإسلام ليس هناك صدام بين العلم والدين، كما عند الآخرين، فالقرآن دعوة للعلم من أول كلمة صافحت قلب النبي ﷺ، بل ويذكر القرآن حقيقة علمية تحثنا على البحث، ولم يكن للبشرية خبر بهذه الحقائق وقت نزول القرآن، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ (العلق:١-٢)، فما كان للبشرية خبر بمراحل تطور الجنين، ولا بهذه الحقائق العلمية. والقرآن هو كتاب العقل أيضا، جاء يخاطب العقل، والعلم في الإسلام له منزلة عالية، والتخلف العلمي جريمة في حق المسلمين، فالقرآن أمرنا بالحث والاكتشاف، وجعل العلم سبب العزة والرفعة، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة:١١)، فالإسلام لا يخاصم العلم، بل يتناغم معه ويأمر به، وليس في القرآن ما يصادم العلم، كما توصل إلى ذلك العالم الفرنسي موريس بوكاي في كتابه «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث»، حيث خرج بنتيجتين، أولاهما: أن القرآن هو أكثر الكتب السماوية اشتمالا على حقائق العلم الحديث، وثانيتهما: أن القرآن وحده هو الذي لم يصادم حقائق العلم الحديث في شيء.

● كثر الحديث عن نهضة الأمة الإسلامية.. فما مفتاح

نهضتها من وجهة نظركم؟ وكيف يتحقق ذلك؟

– ركيزة هذه الحضارة على جناحين، جناح الإيمان وجناح العلم، وظلت الحضارة الإسلامية تتسيد كوكب الأرض كله، حتى نهاية القرن الخامس الهجري، عندما كانت تقوم على جناح الإيمان وجناح العلوم التطبيقية، من طب وفلك وكيمياء، لكن الآخر أشاع أفكارا سلبية عن الإسلام، حين أشاع مصطلح العلوم الشرعية وقصره على العلوم الدينية: الفقه والتفسير...إلخ، وقالوا إن هذه العلوم هي التي فيها الثواب من الله تعالى... وتركوا علوم التمكين: الطب والهندسة... إلخ، العلوم التي اصطلح عليها باسم العلوم الطبيعية، والحق أن هذه العلوم شرعية أيضا، لأنها ذكرت في القرآن لحثنا على طلبها... فالبحث العلمي فيها هدى قرآني، قال تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ (العنكبوت:٢٠)، ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (يونس:١٠١)، ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (الطارق:٥)، ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤﴾ (عبس:٢٤)، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ﴾ (الغاشية:١٧)، فالنظر في فضائه الدلالي، دعوة إلى البحث والاكتشاف...إلخ. وجاءت بعض سور القرآن بأسماء بعض الحيوانات والطيور والزمان وغير ذلك، مثل سورة النحل والعنكبوت والنمل والليل والشمس...إلخ. وفي بحث علمي قامت الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بحصر قرابة ألف ومائتي آية تتحدث عن حقائق الكون وما فيه.

● تتحدث كثيرا في مؤلفاتك عن الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم.. فماذا تقصد به؟

– ما من شك أن القرآن كتاب معجز، وإعجازه اللغوي من لحظة نزوله، ساعة أن تحدى الله به فرسان البلاغة، والمعجزة معناها أن يكون الكلام على وجه يعجز عن البشر أن يأتوا بمثله، ومنذ أن ألف الإمام عبدالقاهر الجرجاني «دلائل الإعجاز» وهو يوضح أن للقرآن هذا النظم المخصوص به، هنالك بلاغة على المستوى البشري، لكن القرآن بهذا المستوى الرباني إعجاز منقطع النظير، ولذلك العلماء من بعد «السكاكي» يميزون بين البلاغة القرآنية والبلاغة البشرية، والجديد الآن الدراسات التي تعتبر امتدادا للنظرية النظمية، فنحن إذا نظرنا إلى الكلمة داخل النظم القرآني فسنجد إعجازا على مستوى الكلمة... وعلى مستوى الحرف داخل الكلمة... وعلى مستوى الحركة، وكل يرتبط بوجه معجز بالنظم على مستوى الآية، ولا تجد هذا في غير القرآن.

● وهل هناك صلة بين التقدم العلمي والإعجاز في القرآن الكريم؟

– ما من شك في أن الإعجاز دافع لأن تنهض الأمة وتأخذ دور السبق، فإن كان القرآن قد سجل السبق في بعض الحقائق العلمية، وفيه دليل على أن القرآن حق، لكن أيضا فيه حجة علينا أن يكون منا السبق، فهو حافز للسبق العلمي، حتى يكون لنا موضع على الخريطة العلمية العالمية.

● ما تقييمكم لأداء المؤسسات الإسلامية، على مستوى العالم الإسلامي؟

– لي أمل وطموح أن ينهض الأفراد وأن تنهض المؤسسات على اختلاف أنواعها، حتى تؤدي دورها، فالفائز في هذا الزمن من يدرك دوره ومن يؤدي دوره ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى، نحن أمة في خطر.. فلا مجال للكسل أو الخمول أو الأثرة والأنانية، فلابد من التضحية إذا أردنا أن نتجاوز الخطر بنجاح.

● ما نصيحتك للأمة الإسلامية؟

– نصيحتي هي وصية رسول الله ﷺ فينا، وهي التراحم والمحبة والتسامح، فما كنا في حاجة لأن يسامح بعضنا بعضا مثل حاجتنا اليوم، وما كنا بحاجة إلى أن نعتصم بالله كحاجتنا اليوم، ومن الضروري إحياء الأوامر القرآنية، ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ ﴿وَتَعَاوَنُواْ﴾ ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾ ومن أهم المهام في هذا السياق استعادة الثقة بالنفس، فالهزائم النفسية أخطر الهزائم التي تفتح باب الانهيار على الأمم، ونصيحتي إلى إخوتنا في الإعلام العربي عامة: دوركم خطير.. ومؤثر، وهو إما أن يصنع صمودا وثقة.. وإما أن يصنع انهيارا وضعفا، فاحذروا ترويج الشائعات، أو ما يعمق هوة الخلاف.. أو ما يؤدي لاهتزاز الثقة بالنفس، فاللغة على لسان الإعلام أخطر من السلاح في يد العسكري.

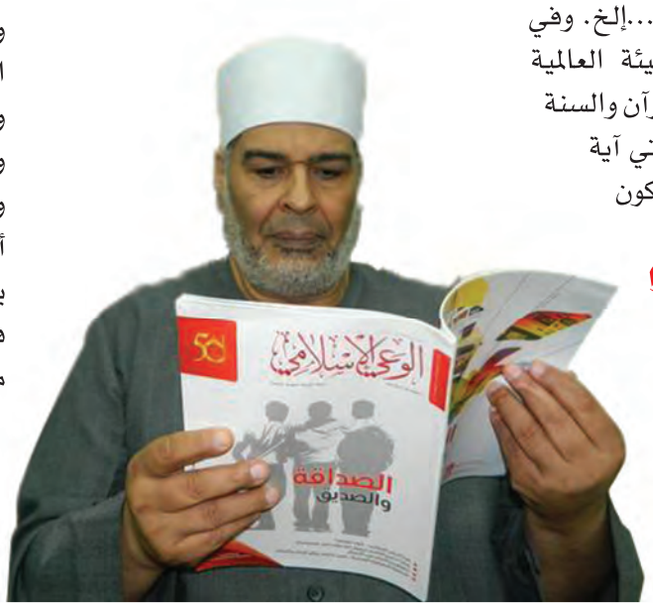

الردة الأخلاقية وأثرها على أمن المجتمع

د. خالد راتب
دكتوراه في الشريعة الإسلامية

تقاس نهضة الأمم ومدى حضارتها وتقدمها بما يحمله المجتمع من أخلاق حسنة وطيبة، ولو فتشنا في مسار التاريخ لوجدنا أن القرون الثلاثة الأول (عهد الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين) هو العصر الذهبي، فقد فاقوا كل العصور إيمانيا وتعبديا وأخلاقيا، وهذا بشهادة رب العالمين لهم، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (التوبة:١٠٠).

وشهد كذلك ﷺ لهذه القرون الثلاث بالخيرية في كل شيء، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته» (متفق عليه) وتواترت هذه الشهادات عبر الأجيال، بل وشهد وأشاد الأعداء بهذه الأخلاق الطيبة. قال هرقل - وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمة الروم -: ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم، أليسوا بشرا مثلكم؟ قالوا: بلى، قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن، قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب، ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض، فقال: أنت صدقتني (١).

فإنهم -رضي الله عنهم- كانوا أبر قلوبا، وأعمق علما، وأقل تكلفا، وأقرب إلى أن يوفقوا إلى الصواب من غيرهم، لما خصهم الله به من توقد الأذهان، وفصاحة اللسان، وسعة العلم، وسهولة الأخذ، وحسن الإدراك

وسرعته، وقلة المعارض أو عدمه، وحسن القصد، وتقوى الرب (٢).

لقد فتح الله قلوب العباد وكذلك البلاد بسبب أخلاق هذا الجيل، التي أبهرت العالم كله، وبسبب باب الإيمان الذي فتحه هذا الجيل بينهم وبين ربهم، ففتح الله لهم كل المغاليق ويسر لهم كل الأمور ودان لهم العباد بالطاعة؛ لأنهم أطاعوا الله وامتثلوا أمره وتخلقوا بأخلاق القرآن وبهدي نبيهم ﷺ.

ويعد المسجد المحضن التربوي الأول للأمة كلها؛ وذلك لتمتعه بمقومات وأسس المنهج التربوي الذي يشبع الجانب الروحي والعقلي والبدني؛ ومن هذه المقومات:

- صلاة الجماعة: صلاة الجماعة لها من الفوائد والحكم ما إن تحققت في المسلمين لقاد المسلمون العالم كله، ولو أقمناها بخشوع وخضوع، بكامل أركانها، لنهتنا عن الفحشاء ومساوئ الأخلاق، ومن هذه الفوائد والحكم التي شرعت من أجلها الصلاة:

١- التعبد لله تعالى بهذا الاجتماع؛ طلبا للثواب وخوفا من عقاب الله، ورغبة فيما عنده.

٢- التوادد، وهو التحاب؛ لأجل معرفة أحوال بعضهم لبعض، فيقومون بعيادة المرضى، وتشييع الموتى، وإغاثة الملهوفين، وإعانة المحتاجين؛ ولأن ملاقاة الناس بعضهم لبعض توجب المحبة والألفة.

٣- التعارف؛ لأن الناس إذا صلى بعضهم مع بعض حصل التعارف، وقد يحصل من التعارف معرفة بعض الأقرباء، فتحصل صلته بقدر قرابته، وقد يعرف الغريب عن بلده فيقوم الناس بحقه.

٤- إظهار عز المسلمين، وذلك إذا دخلوا المساجد ثم خرجوا جميعا، وهذا فيه إغاظة لأهل النفاق والكافرين، وفيه البعد عن التشبه بهم والبعد عن سبيلهم.

٥- تعليم الجاهل؛ لأن كثيرا من الناس يستفيد مما شرع في الصلاة بواسطة صلاة الجماعة، ويسمع القراءة في الجهرية فيستفيد ويتعلم، ويسمع أذكار أدبار الصلوات فيحفظها، ويقتدي بالإمام ومن بجانبه وأمامه فيتعلم أحكام صلاته، ويتعلم الجاهل من العالم.

٦- تشجيع المتخلف عن الجماعة، والقيام بإرشاده وتوجيهه، والتواصي بالحق والصبر عليه.

٧- تعويد الأمة الإسلامية على الاجتماع وعدم التفرق؛ وهذه الصلاة في الجماعة ولاية صغرى؛ لأنهم يقتدون بإمام واحد يتابعونه تماما، فهي تشكل النظرة العامة للإسلام.

٨- تعويد الإنسان ضبط النفس؛ لأنه إذا اعتاد على متابعة الإمام متابعة دقيقة، لا يكبر قبله، ولا يتقدم ولا يتأخر كثيرا، ولا يوافقه، بل يتابعه- تعود على ضبط النفس.

٩- استشعار المسلم وقوفه في صف الجهاد كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف:٤)، فهؤلاء الذين صاروا صفا في الجهاد لاشك أنهم إذا تعودوا ذلك في الصلوات الخمس سوف يكون ذلك وسيلة إلى ائتمامهم بقائدهم في صف الجهاد، فلا يتقدمون ولا يتأخرون عن أوامره.

١٠- شعور المسلمين بالمساواة، وتحطيم الفوارق الاجتماعية؛ لأنهم يجتمعون في المسجد: أغنى الناس بجنب أفقر الناس، والأمير إلى جنب المأمور، والحاكم إلى جنب المحكوم، والصغير إلى جنب الكبير، وهكذا، فيشعر الناس بأنهم سواء، فتحصل بذلك الألفة؛ ولهذا أمر النبي ﷺ بمساواة الصفوف حتى قال: «ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم» (مسلم).

١١- تفقد أحوال الفقراء، والمرضى، والمتهاونين بالصلاة؛ وإذا تخلف بعضهم عن الجماعة عرفوا أنه كان مريضا، أو عاصيا، فينصحوه فيحصل التعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأخيرا فإن العملية التعليمية على مستوى أغلب الشعوب العربية والإسلامية تقوم على الروتينية إلا من رحم ربي، هذه الروتينية التي تهدم الإبداع في النفوس، وتهدم كل الجوانب المعرفية والثقافية في المتعلمين، حيث يخرج لنا -إن تخرج- أشباه متعلمين، يحملون شهادات عليا وقلوبهم وعقولهم خاوية، قد تمكن الجهل منهم، وتفاحل حتى أصبح جهلا مركبا، والمصيبة الكبرى التي تفجع قلب كل غيور أن تتولى هذه الشرذمة مقاليد وزمام الأمور، وأن يقع عل عاتقها مسؤولية تنشئة هذا الجيل، فتتكامل حلقات الجهل لتصبح ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أرد الإنسان أو المجتمع الإفادة والمعرفة فلا يجد إلا سرابا بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حيث فرغت العلوم من مضمونها وتباعدت عن أهدافها، فلا نجد أثرا علميا ولا تربويا ولا أخلاقيا، فتحدث الأزمة الاجتماعية والردة الأخلاقية التي يعاني منها كثير من طلاب العلم في جميع مراحل التعليم، حيث لا يجد في معلمه القدوة والقدرة العلمية والأخلاقية، ولا علاج لهذه الأزمات الاجتماعية المتتالية والردة الأخلاقية إلا بإصلاح منظومة التعليم على المستوى العربي والإسلامي، وهذا لا يتم بالجهود الفردية، ولكن لابد من إيجاد حلقات تواصل حقيقية ومستمرة ونشطة بين أبناء العالم الإسلامي، هذه المنظومة هدفها إحياء العلم والقيم والأخلاق.

الهوامش

١- البداية والنهاية ١٥/٧، ١٦ بتصرف.

٢- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لأبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني ٣٨٢/٢.

الأنسانية ومقام الرّحميّة الواحدة

د. عطية الويشي
باحث أكاديمي

الشهوة إحدى تجليات الغريزة التي غرزها الله فينا من أجل تحصيل لذة مشروعة ومتعة هادفة، تحفظ للمجتمع وضعه الآدمي وطابعه الإنساني، وتضخ له عبر مشاريع التوظيف الإيجابي للطاقة الجنسية: نماذج بشرية وأنماطا متميزة من العلاقات الاجتماعية المؤسسة على مفاهيم «الزوجية» و«الأسرة»، ونحو ذلك من حميميات القرابة الرّحميّة التي تمثل أعلى مستويات العلاقة الاجتماعية بين الإنسان وأخيه الإنسان في المنظور الإسلامي؛ فالرحم من ثَم، رباط موثوق.. وضع له الإسلام تقديرا ذا أولوية في المسار الأخير لتقنين العلاقات بين الناس بعضهم ببعض.. ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال:٧٥)؛ فالأرحام: «جمع رحم- وهو موضع وقوع نطفة الذكر لدى الأنثى- سمي بذلك لانعطافه وحنوه على ما فيه» (١).

والرحم هنا يعكس المفهوم الأرقى لمجالات العلاقة الزوجية ومآلاتها من كل الوجوه.. وإن لكل ما ينبثق من هذه الرحم اعتبارا اجتماعيا محترما ومصونا؛ فقد روى البيهقي في شعب الإيمان حديثا قدسيا صدره بعبارة طريفة تنم عن وعي مبكر بهذه الروح الرّحميّة للإنسانية المؤمنة، حيث قال: «فصل في صلة الرحم وإن كانت كافرة»، عن عبدالرحمن بن عوف: أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «قال الله عزوجل: أنا الرّحمن، أنا خلقت الرّحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته» (رواه البيهقي).

رحميّة النفس الواحدة.. والفطرة الموحِّدة

ويردنا منطق الفطرة إلى النظر في المكونات النطفية للإنسان؛ لنعرف يقينا: أننا من صلب واحد، ودم واحد، وعرق واحد، وصبغة واحدة، وملامح هيئية واحدة.. ولولا ذلك ما كنا بشرا أسوياء! ثم ننتقل إلى أحد الروافد السببية لوجودنا: «أبوة آدم» و«أمومة حواء»: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾(النحل:٧٢)؛ فالآية تكشف عن أبعاد الفعل الإبداعي للرب جل وعلا في تنمية الوجود الإنساني وإغنائه بروح الائتلاف والتعاون الهادف،

من خلال واحدية المنزع النفسي المشترك.. ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾(النساء:١)؛ تلك النفس الواحدة: هي المعلم التاريخي الجامع الذي ينتهي إليه النسب البشري بكافة روافده وفروعه، من «البنين» و«الحفدة».. أولئك الذين يتألف منهم الفعل الزواجي الهادف المنضبط بروح الوحي «الأمين» على النفس البشرية، الموجه لها إلى ما فيه صلاحها ووقايتها من التلف والفساد.. وتأمين حركتها في فلك اجتماعي تنموي متفاعل.. تتفرع عنه حلقات اجتماعية ودوائر حضارية متعددة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات:١٣).

وهنا يبدو التوجيه الرباني، ويتجلى هذا الإبداع الخلّاق في صياغة خريطة العلاقات البشرية من خلال مفهوم «النسب» و«المصاهرة»، معتمدا منهج المتوالية الرحمية الهندسية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء:١).

والأمر بتقوى الله إلى الناس هو إيعاز للمجتمعات الإنسانية بتحري الوصلات الرّحميّة، وتتبع مؤشراتها التواصلية الوحدوية المشدودة بكرامة التقوى.

ولقد أولى الله تعالى هذه الرّحم عناية وتقديرا، وقدر لها أولوية في الرعاية والالتزام الأدبي والأخلاقي والرعوي، والتواصل الاجتماعي البرِّي الودود الحميم، سواء بالبر المعنوي أو المادي أو بالنوال؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك» (رواه البخاري). وفي شأن المواريث قال تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال:٧٥)؛ فليت شعري! كم هي قيمة الإنسانية حين تكون ودودة مودودة بأصولها وجذورها، متواصلة متعاطفة متراحمة!

ذلك، وقد نهى الإسلام عن عقوق الوالدين، وأمر بالإحسان إليهما، فقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء:٢٣).

ولنتأمل كيف استخدم الوحي لفظ «أف» في معرض النهي التحذيري من إيذائهما بما يوجب النفور والهجر والقطيعة. وبمفهوم المخالفة فإن الأمر بـ«البر» الواصل يأتي مقابلا للنهي عن «الأف» الفاصل!

وهنا يجدر التنويه بأن البر في أصله: سلوك فطري وعفوي في مجمله، يؤكده الشرع ويتوخاه بالاستدامة من خلال إدراجه في منظومة العبادات القربيَّة؛ وإنه بالرجوع إلى الرحم الأولى التي ترتب على المرء واجب مراعاة وصل هذه الرحم، مهما بعدت أو قربت؛ هذا الواجب يتراوح في مراتب وجوبه ما بين الوجوب العرفي الاجتماعي والإنساني، والوجوب الشرعي.

ومن الشواهد الدالة على البر والصلة الرحمية في السياق البشري العام: ما ورد عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، إذ قالت: «قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: نعم صلي أمك» (رواه البخاري). والمعنى أنها قدمت طالبة في بر ابنتها لها، خائفة من ردها إياها خائبة؛ هكذا فسره الجمهور. وقال الخطابي: فيه أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه، كما توصل المسلمة، ويستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة، وإن كان الولد مسلما. وفيه موادعة أهل الحرب ومعاملتهم في زمن الهدنة، والسفر في زيارة القريب (٢).

وعلى الرغم مما تعرض له النبي ﷺ من استفزازات المنافقين، لكنه كان يؤكد دائما على صلتهم والبر بهم؛ وقد مر رسول الله ﷺ ذات مرة على عبدالله بن أبي بن سلول، وهو في ظل، فقال: «قد غبر علينا ابن أبي كبشة»، فقال ابنه عبدالله بن عبدالله: والذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب لئن شئت لآتينك برأسه، فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكن بر أباك وأحسن صحبته» (أخرجه ابن حبان).

ذلك، ولم يوص الله تعالى الإنسان مطلقا آكد من الوصية بالوالدين – ولو كانا على غير الإسلام – إذ وصاه في ثلاثة مواضع من الذكر الحكيم؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان:١٤-١٥)؛ فإذا كان من فطرة المرأة أن تتزوج وتحمل وتلد وترعى وتربي وتتعنى بالوهن.. فمن الفطرة كذلك أن تبر وتوصل ويحسن إليها؛ بلزوم صحبتها ومعاملتها بالمعروف الذي هو من عرف الفطرة!

والحقيقة، أنه لا يمكن لأمة أن تنأى عن الرحمة ومراعاة الأرحام وهي تستفتح كافة ما تشرع فيه من أعمال قلبية وبدنية باسم الله «الرّحمن» «الرّحيم»!.. كيف ذا والله تعالى يقول مخاطبا «الناس» كل الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١)؟!

إن الالتفاتة القرآنية المباشرة التي استهلها الخطاب الإلهي بـ «يأيها الناس» «اتقوا ربكم»: إنما توحي بنداء المحب للألفة، والحريص على الوحدة والاجتماع.. الكاره للتشظي والتفرق والشقاق..

ذلك ولم تستقم رواية تاريخية

أو خبرة بشرية سندا وعقلا، تفيد باستمرار نكاح الإخوة أو المحارم؛ اللهم إلا ظنا أو وهما بلا سند أو أثارة من علم يقيني؛ أما اليقين فهو الفطرة والعرف البشري المتناهي أصالة وقدما.. ثم والشرع الذي يسندها ويرسخها، إذ يأتي التأكيد الإسلامي على صيانة هذه العلاقات الرحمية بمجموعة الإجراءات الاحترازية والاحتراسية، وذلك من خلال وضع الإشارات الحمراء والخطوط التشريعية التي ينبغي ألا يتجاوزها إنسان مؤمن، ذو حس فطري أصيل.. فحرم زواج المحارم، حيث

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(النساء:٢٣).

ذلك، ولم يكتف دين الفطرة بهذا التحريم، بل قرنه بمجال محارميّ آخر، يكشف عن وجوه حكمة الاحترام المتقرر فطرة وشريعة، وهو ضرورة الحفاظ على قاعدة التواصل الاجتماعي والإنساني؛ محمية من نزق الغرائز وجموح الشهوات!.. ذلك، لأن الشهوة حين تدخل على خط المشاعر والعواطف، فإنها تقتضي الميل والتنافس والرغبة في الاستحواذ على نحو ما.. وهذا في حد ذاته خادش لمروءة العلاقة الرّحميّة، فليس وجيها عند الله أن تتعرض الروابط الرّحميّة التي جُعلت للعالم البشري مثلما جُعلت الجبال أوتادا للأرض؛ حافظة لها من الفوضى والتخلخل والاضطراب..

ولأن عاطفة الأمومة والأخوة والخؤولة والعمومة لا تقبل القسمة بهذه الطريقة الشهوانية! وإنما هي رحمة رحميّة موزعة بعدل الله على كل ذي نصيب منها بالسوية؛ ومن ثم فإن فطرة الإنسان تأبى أن تصير المؤمنة «ضرة» لأختها، أو لعمتها، أو لخالتها، فضلا عن أمها! فمثل هذه العواطف الشريفة: فطرة متجذرة في النفس البشرية؛ فإن الأم، أو الأخت، أو العمة، أو الخالة في سياق أي عاطفة منحرفة عن هذا الخط الفطري الأصيل: لا يمكن بحال أن تصير زوجة ولا ضرة لكل من يدين لها بالولاء الرّحمي في سياق هذه العواطف السامية؛ وإلا لوقعت الوحشة والنفرة والشقاق والنزاع والتنافس والصراع بين الناس؛ فاستحلال الرّحم يؤدي إلى قطعه، وهذا مما يخالف أعراف الفطرة والشريعة التي تقتضي الاجتماع والتعارف والتآلف.. بل إنه ينافي الاحترام المشروع في حق المحارم الذين هم في الحقيقة -كما أسلفنا- قاعدة التواصل وأصل التراحم بين الناس ينمو رأسيا بالنسب، وعراقة الانتماء الباعث على الجدية والالتزام الأخلاقي تجاه النسق الأسري والعشائري والاجتماعي الذي يعيش فيه، ويتمدد أفقيا بالمصاهرة والتعارف الاجتماعي والحضاري الإنساني، حيث تتوافر حلقات جديدة للتراحم ودوائر للتفاعل الخلّاق.

ولقد شرع الإسلام تأمين وحماية العلاقات الرّحميّة والروابط الأسرية من أسباب التهتك والاهتراء.. فقد «نهى رسول الله ﷺ عن أن تنكح المرأة على عمتها، أو العمة على ابنة أخيها، أو المرأة على خالتها، أو الخالة على بنت أختها، لا تنكح الصغرى على الكبرى، ولا الكبرى على الصغرى» (أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح). بل إنه ﷺ في رواية أخرى يقول: «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه، ولا يسوم على سوم أخيه، ولا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكتفئ صحفتها ولتنكح، فإنما لها ما كتب الله لها» (رواه مسلم). كل ذلك ليس من أجل تحقيق أرفع قدر من الارتباط الرّحمي والتواصل بين الأقارب: إخوانا وأنسابا وأصهارا أحبابا فحسب؛ وإنما من أجل تجذير الفروع الاجتماعية وربطها بأصولها: أفرادا وجماعات وقبائل وشعوبا وأُمما وحضارات.

الهوامش

١- أبوالحسن علي بن أحمد الصعيدي العدوي (ت: ١١٨٩هـ): حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، جـ١، ص١٦، بتصرف.

٢- شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد ابن حجر الشافعي العسقلاني الكناني (٧٧٣-٨٥٢هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، جـ٥، ص٢٣٤.

العُنفُ.. لِمَاذَا؟

د. آندي حجازي
أستاذة علم النفس التربوي

قتل قابيل هابيل، وبدأ العنف منذ اللحظة الأولى لوجود الإنسان على الأرض، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة:٣٠). قد يكون العنف موجودا عبر الزمن ولكنه في زماننا عمّ واستشرى وأصبح ظاهرة تستحق البحث والدراسة والخروج بحلول، فلم تعد حالة فردية تحدث هنا أو هناك في مكان عابر.. فلا يكاد يمر يوم بلا سماع لأخبار العنف، حيث تفتح الصحيفة فتجد أخبارا لا حصر لها لعنف طائفي، أو عنف سياسي، أو عنف أسري، أو عنف مجتمعي، وعنف مدرسي، وعنف جامعي، وعنف في الشارع، وفي العمل، وفي الإعلام.. تفتح التلفاز فتسمع عن مقتل ومصرع، وجرحى، واشتباكات هنا، ودمار هناك، وجرائم بشعة ترتكب، وهي أحداث مستمرة متتالية يوميا!

وعندما ترغب بسماع محاورة لتنمي مكنوناتك الفكرية، أو تستمع لنقاش بين متحاورين في محطات فضائية عربية؛ فإنك تتعجب كيف يحدث فجأة التراشق بالماء وبالألفاظ النابية، والتضارب بالأيدي، بشكل عجيب، ينتهي معه الحوار، وأحيانا تصل إلى استخدام الأحذية!! فهل هذا من أساليب الحوار الناجحة التي نتوقع لها أن تكون قدوة للأجيال الناشئة، ولحل المشاكل والخلافات؟! نسأل الله الهداية والصلاح لأبناء أمتنا العربية.

العنف ممارسات خاطئة ضد الآخرين، بها مبالغة بردود أفعالنا، وتتضمن الأذية للآخر، وتأخذ عدة صور وأشكال؛ فهناك العنف اللفظي الذي يتضمن: السباب والتهديد والتجريح والإهانات والاستهزاء بالآخر، والعنف الجسدي ويشمل: استخدام القوة البدنية؛ سواء بالضرب، أو الركل، أو التعذيب، أو القتل، أو الاغتصاب، أو أية صورة من صور العنف البدني، والعنف النفسي في صور مباشرة أو غير مباشرة: كالإهمال، أو التجاهل، أو التحقير، أو التهديد المستمر، واستخدام الألفاظ النابية.

والعنف مرفوض بكل صوره وأشكاله؛ أخلاقيا وسلوكيا ومجتمعيا وفكريا.. لا لأنه يؤدي للدمار المادي والمعنوي فحسب، بل لأنه أيضا يؤدي إلى الكراهية والحقد واستمرار العنف؛ فالعنف يجلب عنفا بلا توقف، إلا بشق

الأنفس، وإثر خسائر كبيرة، مادية وجسدية ومعنوية! وقد يرجع المجتمعات للخلف عشرات ومئات السنوات، من التخلف والضياع والشتات!

والعنف يلحق بالمعنّف آثارا نفسية مستمرة؛ من اكتئاب وحزن وانطواء وخجل وتلعثم وحقد وضعف شخصية، أو عدوان وانحراف... فخذ مثلا الأم أو الأب الذي يضرب أبناءه باستمرار (فلا أسلوب آخر لديه)؛ ما حجم الخسائر التي ستترتب على سلوكه هذا؟ إنها خسائر جسدية ونفسية ومعنوية، تستمر مدى الحياة، فتؤدي إلى الإحباط وضعف الثقة بالذات، وانهزام الشخصية للأبناء، والكراهية للناس، والانحراف السلوكي والأخلاقي، وتزرع العدوانية والتبلد.. وغالبا ما ينحدر المجرمون من بيئات تسلطية كهذه.

إن استخدام العنف هو دليل على فشل الحوار العقلاني في حل المشكلات، فيدل على قلة وعي الأفراد في أساليب الحوار والنقاش وإدارة النزاعات، ويعكس وجود مشكلة أو خلل ما، لدى الأشخاص المرتكبين للعنف، وأن لديهم قصورا ذهنيا في التعامل مع الموقف أو المشكلة التي يتعرضون لها، وهو دليل على اضطراب نفسي وسلوكي، ومؤشر لضعف الشخصية وقلة الثقة بالنفس، ويدل على فشل التحكم بالعواطف والانفعالات، وإدارة الذات والآخرين بطريقة حكيمة، تقلل من حجم الخسائر. كما يعكس العنف توجهات الفرد أو الجماعات وأفكارهم التي يؤمنون بها، والطريقة التي نشأوا عليها في بيوتهم ومدارسهم ومجتمعاتهم.

لماذا يمارس الأشخاص العنف؟

إن العنف في الإنسان قد يكون فطريا، ولكنه ذو درجات متفاوتة عند البشر، والأصل أنه يمكن التحكم به، ولكن هناك عوامل تغذيه وتنميه لدى البعض، حتى يصبح مدمرا طاغيا.. ولذلك لا يكفي النظر والسماع لحوادث تتضمن العنف بأشكاله ومتابعتها دون تحريك ساكن، فعلينا الخوض في أسبابه من أجل التوصل لحلول جذرية لمشكلته؛ فالمتطلع إلى المستقبل يرى الوضع آخذا في الزيادة، ما لم يتم البحث في جذور المشكلة، وألخص تاليا أسباب العنف ومنابعه وهي:

التربية الأسرية

للمنزل تأثير عميق على السلوك والاتجاهات ونضج الانفعالات للفرد، والمناخ الأسري الذي ينشأ به الإنسان يشكل شخصيته ويؤثر بشكل مباشر على سلوكاته وانفعالاته وأفكاره، فأنماط التفاعل والقيم والنماذج السلوكية يتم تعلمها بداية من المنزل.. فالجو الأسري المشحون بالتوترات والخلافات والعنف واعتداء بعض الأطراف على الآخر، كاعتداء الأب على الأم أو الأبناء، يترك آثارا سلبية على الأبناء، لا تحمد عقباها، فيتعلم الابن العنف من المشاهدة المتكررة لوالده أو والدته يمارسان العنف، فيصبح الطفل يعتقد أن هذا هو الأسلوب الأمثل في حل القضايا والمشكلات العالقة أو المتأزمة، وأنه لا أسلوب آخر يجدي غير ذلك! فعندما يخرج للمجتمع ويواجه صعوبة فإن أول شيء يستخدمه هو يداه وسليط لسانه، لا عقله وحكمته! فلو كان الابن تعود في بيته أساليب الحوار والنقاش وتبادل الآراء والأفكار لحل المشكلات، فإنه حتما سينقل هذا الأسلوب معه أينما حل وارتحل، والعكس صحيح.

فتعلم العنف والعدوان يبدأ من البيت، ومنذ الصغر، ومن رؤية نماذج أمام الطفل أو المراهق، فما إن يصبح شابا حتى يخرج للمجتمع بنموذج مشوه من العلاقات والتفاعلات البشرية، وردود الأفعال، وحدة الانفعالات! فنسمع بعد ذلك عن عنف جامعي وعنف طائفي...

ووجد بالدراسات التربوية أن البيت الذي ينقصه الحب والمودة والرحمة وإظهار مشاعر الألفة والمحبة بين أفراده، وتسوده سلوكات العنف بأنواعها، والصراخ والتنازع المستمر، والمشادات الكلامية، بعيدا عن الحوار والتفاهمات واحترام رأي الآخر؛ هو بيت ينشئ أفرادا قلقين مكتئبين، كارهين للآخرين، غير منتجين، عنيفين، حاقدين، يبغون التخريب والانتقام، ويمارسون العنف كما مورس عليهم من قبل، بل ويتقبلونه بشكل طبيعي! فينقلون العنف للمدرسة والجامعة والشارع والعمل، ومع أسرهم المستقبلية... فترتفع لديهم مستويات العدوانية بنسب أكبر بكثير من الأسر المستقرة، الداعمة لأبنائها عاطفيا بنسبة قد تصل إلى ٦٠٪، وتزداد لديهم مشاكل الوقوع في الانحرافات السلوكية والإدمان على المخدرات والمسكرات والانتحار والقتل، والاعتداء الجنسي، والتسلط على الآخر، والاضطرابات النفسية.

غياب الحوار

هناك علاقة تبادلية بين الحوار والعنف؛ فكلما كان الحوار نشطا وإيجابيا، وفتحت أبوابه مع الجهات المتناقضة أو المتخالفة؛ فإن نزعات العنف ستقل وستؤدي لنتائج أفضل بكثير مما سيجنيه العنف، لأن الحوار يتضمن محاولة فهم الآخرين وسماع وجهات نظرهم، وإقناعهم بوجهة نظرك بشكل منطقي، مدعوم بالحجج والأدلة، من أجل الوصول إلى صيغ من التفاهم والتعايش والتكامل والارتقاء بالوجود البشري؛ لأن الإنسان مخلوق اجتماعي، خلق بالأصل ليتعايش مع الآخر، وهو مخلوق ناطق من أجل أن يطرح أفكاره ووجهات نظره وبدائله، ويتوصل إلى تسويات وتفاهمات واتفاقيات مشتركة، تحترم إنسانية الإنسان.

والمشكلة أننا وفي عالمنا العربي لم

نتعود الحوار منذ الصغر، فلا ندرب عليه أبناءنا في مدارسنا أو بيوتنا.. فالمعلم لا يستمع لطلبته وإنما يملي عليهم أفكاره وآراءه، ويصب عليهم المعلومات صبا، دون حوار أو نقاش، إلا من رحم ربي، والوالد في البيت لا يعوّد أبناءه أن ينتهجوا منهج التحاور والتشاور في أمور حياتهم وقراراتهم الأسرية، فماذا نتوقع من نتائج؟!

وهذا أحد أسباب تفوق الغرب وتقدمه اليوم؛ وهو تعويد أبنائهم على الحوار وإبداء الرأي، والاستماع للرأي والرأي الآخر، واحترام وجهات نظر الآخرين والتسامح معها، والتفكير بها والبناء عليها من أجل الوصول للقرارات السليمة؛ ولذلك تجد أن العنف ليس سمة ظاهرة يومية لديهم أو طوفانا مجتمعيا يأكل مجتمعاتهم أكلا لما ويلحق بها الدمار من كل النواحي، كما هو الحال في الكثير من المجتمعات التي يسود فيها الاستبداد وتكتم فيها الأنفاس! ولذلك فالحوار لديهم أساس في حياتهم وعلى جميع المستويات، فانظر مثلا للتحاور على مستوى اختيار رئيس للولايات المتحدة، حيث لا يصل الرئيس للحكم إلا بعد سلسلة من الحوارات والنقاشات بين الرؤساء المرشحين وبشكل علني! لأن هذا أسلوب حياتهم التي تعودوها في مدارسهم وجامعاتهم ومعاهدهم ومؤسساتهم وأسرهم، فلا يوجد شخص يتخذ القرارات بشكل فردي، ويمليها على الآخرين؛ لأن هذا التصرف هو التسلطية والفوقية المقيتة التي تثير النزاعات والصراعات.

فغياب الحوار هو أساس الصراعات في عالمنا اليوم، وخاصة في عالم الشباب، فحينما يشعر الشاب أن لا أحد يسمع صوته أو يهتم لوجهة نظره ليحقق طموحاته؛ فإنه يبحث عن طرق أخرى يفرغ بها طاقاته ويوصل بها أفكاره، خاصة أن الشباب طاقة مفعمة بالحيوية والنشاط والقدرات، وهذه الطاقة المتحفزة تحتاج للتوجيه في المسار السليم، دون إجبار أو إكراه، بل بأساليب راقية تناسب الانفتاح الكبير السائد في عالمنا اليوم؛ كالاستماع والحوار وتقبل الآخر، وليس الحوار التسلطي، أو العاجي، أو الإلغائي، أو ذا الطريق المسدود من بدايته! وقد قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (النحل:١٢٥).

الظروف الاقتصادية

والظروف الاقتصادية السيئة والفقر والبطالة وقلة الوظائف، خاصة لدى فئة الشباب، الذين إن لم يتم الاستماع لهم وحل مشكلاتهم؛ فإنها تكون دافعا كبيرا لدى البعض من أجل ممارسة العنف، فتبدأ بالعنف اللفظي والانتقادات وتوجيه التجريحات والتصريحات، وتنتهي بالعنف المادي والجسدي والسرقة والقتل والتخريب والدمار أحيانا! حيث الشعور بالظلم وعدم العدالة لدى الطبقة الفقيرة، أو العاطلة عن العمل؛ يشكل لديها دافعا كبيرا لممارسة العنف بكل أشكاله، والانتقام من الآخر الذي يعتقدون أنه سلب حقوقهم، ولم يستمع لصوتهم، ولم يرع حق الله فيهم.

فعند انتشار حالات الفقر والبطالة في المجتمع؛ فإن الجلوس على طاولة الحوار والبحث عن حلول للمشكلات، خاصة لدى المسؤولين والمتخصصين وصنّاع القرار هو الحل الأنجع للوصول لنتائج أفضل في حل مشكلات المجتمع الاقتصادية، وعدم الانتظار حتى تتفاقم الأمور من خلال الإهمال والتهميش والقتل والانتحار، وانتظار الأسوأ، أو التلاعب والتحايل! وفي جميع الأحوال فإن العنف لن يؤدي للوصول لحلول ناجعة، بل سيفتح أبوابا لمشاكل أخرى إضافية، ويؤدي لزيادة تعقيدات الأمور.. فالتحاور هو الطريقة الراقية في حل المشكلات وطرح الأفكار والآراء المفيدة، والتي تتحول لمشاريع وطنية منتجة إيجابية تدر الدخل، وتفتح أبوابا لبعض المهن والوظائف.

دور المدرسة

فحينما يمارس مدير المدرسة، أو المرشد، أو المعلم العنف مع التلاميذ -ومنذ الصغر والمراهقة- من أجل تقويم السلوكات، واتخاذ الضرب والعنف الجسدي واللفظي والنفسي أسلوبا في العقاب والتربية للطلبة، في قصص يشيب لها الرأس! ومع إغلاق أبواب الحوار والاستماع لوجهات نظر الطلبة وازدرائها والتقليل من شأنها! والتركيز على حفظ المعلومات دون نقل التعليم للواقع، ودون أن يتماشى مع حاجات المجتمع؛ فإننا حتما سنبقى بعيدين كل البعد عن الارتقاء بمستوى طلبتنا وأبنائنا نحو التطور والتقدم المنشود لمجتمعاتنا، وسننشئ أبناء يتقبلون العنف ويعتمدونه منهجا في الحياة!

بل إن المراقب للواقع يجد أننا في تراجع وانحدار في مستوى التعليم ومخرجاته، لأننا لم نجعل التعليم من أجل نمو المجتمعات أو

الارتقاء بالعلوم والحضارات وحل المشكلات المجتمعية؛ بل أصبح لملء وقت الفراغ لطلبتنا، ومكسبا للعيش لمعلميهم، دون أن يكون رسالة سامية! مع أن من أساليب التربية والتعليم الحديثة اعتماد استراتيجيات تدريسية قائمة على المناقشة والحوار، والتعلم التعاوني، والتعلم في مجموعات للنقاش والخروج بالنتائج التشاورية.

وأشير هنا إلى أن اليونسكو عملت عام ٢٠١٠م على الإسهام في تنفيذ مشروع «وقف العنف في المدارس: دليل المعلم» بهدف التعليم للجميع، دون عنف مدرسي.

أفلام العنف

غالب ما يعرض اليوم من الأفلام من أجل التسلية يتضمن العنف والتعنيف والقتل، ومشاهد كثيرة لفنون العنف وطرق القتل والدمار؛ حتى أصبح الشباب يستمتعون بمشاهدة تلك الأفلام! والمشكلة أن يصبح الشخص يستمتع بتلك المشاهد ويستمرئ وقوع القتل والعنف بكل طرقه، مع أنه محرم بديننا إلا بحق! ووسائل الإعلام اليوم لها نصيب الأسد في التأثير على سلوك أبنائنا، وتشير معظم الدراسات إلى أن هناك ارتباطا إيجابيا قويا بين مشاهدة البرامج التلفزيونية العنيفة وبين السلوك العدواني، حيث إن معدل ارتكاب جرائم القتل يزداد بعد مشاهدة أفلام العنف بدرجات كبيرة، قد تصل إلى ٤٠٪ لدى الشخص، فالمشاهد العنيفة تولد أشخاصا يتمتعون بسلوك إجرامي، وهي محرض قوي على الجريمة وارتفاع معدلاتها، خاصة لدى فئات المراهقين والشباب، بما تمتلئ به من إثارة وحركة واندفاع.

ووجد بالأبحاث أن مستويات هرمون الذكورة مرتفع بطبيعة الحال لدى المجرمين من الرجال المتورطين في الجرائم العنيفة، وأن الذكور يرتكبون ستة أضعاف ما ترتكبه الإناث من جرائم القتل.

وتشتكي الكثير من الأمهات محاولة أبنائهن تقليد سلوك الأبطال في أفلام العنف، كالمشاركة في مشاجرات واستخدام أسلحة غير حقيقية، بل واتخاذ أبطالها نماذج تحتذى في سلوكاتهم! وتقول إحدى الأمهات: أغيثوني.. ابني الذي لم يتجاوز خمس السنوات يقلد أبطال أفلام العنف في سلوكه! ما يعني ضرورة مراجعة وتفحص ما يقدم لأبنائنا وشبابنا، حتى لا يدس السم في العسل!

ناهيك عن الألعاب الإلكترونية التي تمتلئ بألعاب العنف والقتال، والتي انتشرت بشكل رهيب بين الأطفال والمراهقين، وأصبحت لها مقاه خاصة وأماكن تسلية! وتشير الدراسات أنها أكثر خطورة من أفلام العنف، لأن الألعاب تتضمن التفاعل والتشارك من قبل الطفل أو المراهق أو الشاب، بحيث يصبح هو البطل، ويبدأ بالبحث عن حلول معينة على القتل والقتال واستخدام الأدوات والأساليب المتنوعة لذلك، مما ينمي لدى الشخص حب العنف وأساليبه وطرقه مع قبوله ببساطة!

وتظهر العديد من الدراسات أن الحضور الرئيسي للألعاب الإلكترونية هو غالبا للأولاد من سن (٨-١٤) عاما، وهذه هي السن الأخطر لتشرّب طرق العنف وأدواته، وأن الأولاد هم (٥) أضعاف البنات الذين يستخدمون ويملكون الألعاب الإلكترونية؛ فيصرفون أوقاتا أكثر بكثير مما تصرفه البنات على الألعاب الإلكترونية. كما تبين دراسات أميركية أن ٧٠٪ من الألعاب الإلكترونية المنتشرة اليوم تتضمن العنف! ووجدت أن ألعاب الفيديو العنيفة تفقدك الإحساس بالآخر والشعور بالألم ومعاناة الآخرين! وهذا ما وصلنا إليه!

لذا ننصح بالتقليل من الألعاب المثيرة للعنف، ومراقبة ما يقدم لأبنائنا، وانتقاء الألعاب الإلكترونية التعليمية المشجعة على التفكير وحل المشكلات؛ حيث الألعاب الإلكترونية سلاح ذو حدين، وفق ما تستخدم لأجله.

وأؤكد أن العودة دوما للكتاب والسنة النبوية، واتباع هديهما هو خير معين على اتباع الحق والبعد عن الفتن والضلال، وقتل النفس بغير حق، وارتكاب الجرائم التي حرمها الشرع، فتعاليم ديننا هي المنهج المساعد على التذكير بأهمية تحكيم العقل والفكر والمشاورة عند اتخاذ القرارات وحل المشكلات، للارتقاء بالشعوب.

أستاذ علم الإجتماع في المركز القومي المصري للبحوث الإجتماعية والجنائية د. سميحة نصر:

الإحباط سبب رئيسي للعنف

«الإحباطات العديدة التي يعاني منها الشباب هي أحد الدوافع الرئيسة لنزوعهم إلى العنف».. هذا ما تؤكد عليه أستاذ علم الاجتماع في المركز القومي المصري للبحوث الاجتماعية والجنائية الدكتورة سميحة نصر، مشيرة إلى العديد من العوامل الأخرى كالأسرة والمؤسسات التعليمية التي لها يد فيها.. وتحدثت الخبيرة الاجتماعية في حوارها مع «الوعي الإسلامي» عن الدور السلبي والإيجابي للأسرة والمؤسسة التعليمية والإعلام في الظاهرة.. فإلى التفاصيل:

إسلام لطفي - القاهرة
دار الإعلام العربية

● تتزايد مظاهر المدنية في المجتمعات، ومع ذلك يتزايد العنف أيضا، فما هو مفهوم العنف من منظور اجتماعي؟

- هو أي سلوك يلحق أذى بالفرد أو بغيره من عناصر المجتمع، أيا كان هذا السلوك.. لفظيا أو ماديا أو معنويا أو جنسيا، فاللفظي يعني السب والقذف، والمادي هو الاعتداء الفعلي باليد أو بأي وسيلة تسبب أذى ملموسا، سواء بإنسان أو بشجر أو حيوان أو مرفق من المرافق العامة.. وبالطبع أخطرها الاعتداء على إنسان، وهناك أيضا العنف المعنوي الاجتماعي والنفسي، ويكون عن طريق الإهمال أو استخدام إشارات أو إيماءات، كنظرة السخرية، فهنا استخدام لغة الجسد للتعبير عن الإيماءات صورة من صور العنف التي تحدث أذى نفسيا.

وهناك العنف الجنسي، سواء باللفظ، أو اللمس، أو ما هو أكثر من ذلك؛ فهو درجات مختلفة لأنواع سلوك العنف التي تلحق أذى بالآخر، الذي قد يكون إنسانا أو حيوانا أو نباتا، مثل تقطيع الأشجار أو الامتناع عن ريها، أو جماد عن طريق تشويه صورة الحوائط، وحرق المباني، وتبديد الممتلكات والمرافق العامة، وكل ذلك أنماط من العنف المذموم.

الأسرة والمدرسة

لو أخذنا مصر كمثال.. لماذا تزايد العنف فيها خلال السنوات الأخيرة؟

العنف موجود على المستوى الإقليمي والعالمي، وازداد في الآونة الأخيرة إلى حد ما، وبالنظر إلى حالة مصر فهي من أقل الدول التي يمارس فيها العنف، لأن طبيعة المواطن المصري مسالمة ومتسامحة.

يجب علينا ألا نتجاهل وجود العنف بدرجة أو بأخرى في المجتمع، وأن نتصدى له في جميع المجالات، فالعنف ليس قاصرا على المشهد السياسي، بل هناك أيضا العنف الأسري، الذي يمارس داخل نطاق الأسرة بين الزوج والزوجة، ومن الوالدين تجاه الأبناء أو بين الأبناء بعضهم البعض، أو من الأبناء تجاه الوالدين.. أيضا هناك عنف بين طلاب المدارس وبعضهم البعض، أو بينهم وبين معلميهم، وكل هذا يعد نواة للعنف المجتمعي فيما بعد.

ومن خلال دراسة على المجتمع المصري على عينة تم اختيارها بطريقة عشوائية بلغ قوامها ٥٩٩٥ فردا بين فئات عمرية مختلفة، موزعين على ٩ محافظات، أخذنا منهم عينة الشباب، فوجدنا أن العنف أكثر التصاقا بالذكور منه إلى الإناث، وأنه اتخذ أشكالا مختلفة، لكن أكثر الأشكال التي يمارسها الذكور من الشباب هو العنف الجسدي، وعند مقارنتهم

مع الإناث وجدناهن يستخدمن العنف اللفظي أكثر من العنف الجسدي، فهن أقل بكثير من الشباب الذكور في ممارسة العنف، وذلك موجود في مجتمعنا، لكن بصورة قليلة.

● أي الأسباب أكثر في دفع الشباب إلى العنف؟

– كثرة الإحباطات التي يتعرض لها الشباب، المتمثلة في الأوامر، ومنعه من التعبير عن رأيه، وليس من حقه أن يقرر أو حتى حرية اختيار الكلية التي يرغبها، وعدم إعطائه الفرصة لكي يصنع نفسه بنفسه، عن طريق التدخل في صناعته، حتى يصل الأمر إلى اختيار الزوجة، علاوة على كثرة الضغوط الحياتية، قد تكون نفسية كالإهانة، وعدم مقدرته على تحقيق ذاته، والتقدير المتدني لذاته، وعدم مقدرته على تحقيق رغباته أو ميوله، وقد تكون ضغوطا اجتماعية، متمثلة في فقدان أعز الناس إليه، أو أحد أفراد أسرته، مما يتسبب في ضغوط نفسية شديدة، كلها تعتبر من أكثر الدوافع للعنف، خاصة في حال غياب الوازع والتنشئة الدينية السليمة.

أيضا، هناك أسباب ودوافع أخرى قد تكون عوامل اقتصادية، لعدم امتلاك الشاب أموالا لاستكمال دراسته أو بداية حياته المهنية والأسرية بعد التخرج، وهناك علاقة قوية بين العنف وبين الضغوط الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، والمشقة التي تسببها بصفة خاصة لدى متوسطي التعليم، والضغوط النفسية خاصة تؤدي إلى عنف.

وقد يكون الفقر هو السبب، إضافة إلى البطالة، كونها عاملا لإفراز أنماط عنف مختلفة، علاوة على الزحام والتكدس السكاني، بل وأيضا ارتفاع درجات الحرارة والتلوث البيئي.

أيضا البعض يفقد أحيانا السيطرة على الانفعال، وقد تكون سمة من سمات الشخصية، نتيجة عوامل مكتسبة أو وراثية، ربما تكون نتيجة لوسائل الإعلام المختلفة، التي تحتفي بالعنف خلال نشرات الأخبار أو برامج الأطفال، والأفلام والدراما، مما يعلم كيفية ممارسة العنف، علاوة على أن الكبت يولد الانفجار.

● وماذا عن دور الأسرة في العنف؟

– دون أن ندري نعلم أبناءنا العنف، من خلال معاملتهم بغلظة شديدة، علاوة على تعليمهم إهانة الوالدين، واستخدام العنف المعنوي المتمثل في الإيماءات أو العنف اللفظي عن طريق السب، إضافة إلى العنف البدني والكذب، وهناك دور للأسرة في تدعيم ومنع العنف، على أساس تربية الأبناء على قيم التسامح والمحبة والتآخي وقبول الآخر، وبث القيم الأخلاقية، فالأسرة تبني شخصا تعتمد عليه الدولة فيما بعد، إضافة إلى دورها في التوعية وبث القيم الأخلاقية والدينية، ومنع العنف عند ملاحظته، مع توضيح أنه لا يتناسب مع ديننا ولا عاداتنا ولا تقاليدنا، خصوصا أن جميع الأديان السماوية تمنع العنف.

وسائل الاتصال الحديثة

● وماذا عن العنف في المؤسسة التعليمية؟

– هناك عنف من بعض المدرسين تجاه الطلاب، خاصة أن زيادة عدد الطلاب في الفصل الواحد يشكل ضغطا على المدرس، وهو ملتزم بمنهج دراسي، يجب الانتهاء منه خلال العام، فالمشكلة من البداية تتمثل في الكثافة السكانية، ولابد من حلها، ليس عن طريق الحكومة فقط، لكن لابد من تكاتف الشعب.

والمؤسسة التعليمية تشارك في العنف عندما تلاحظه بين الطلاب ولا تتدخل لمعالجة الأمر، لأنه لابد عليها أن تمنعه وتبحث عن المتسبب فيه ومحاولة حله، وكان لي دراسة عن العنف بين طلاب المدارس، على مستوى الجمهورية، بين طلاب المرحلة الإعدادية والثانوية، للوصول إلى حجم العنف بين طلاب المدارس، كون وسائل الإعلام في هذه الفترة قالت إن العنف بينهم وصل إلى أعلى درجة، لكن الدراسة أثبتت أن العنف

ليس بالصورة التي تعلن عنها وسائل الإعلام، وكانت أقل بكثير، ووضعنا توصية أن هذا القليل يؤشر بحدوث الكثير فيما بعد، إذا لم نتصد له، وبالفعل بدأ يزداد في الآونة الأخيرة.

● وما دور تطور وسائل الاتصال الحديثة وألعاب الحاسوب في زيادة العنف؟

- وسائل الاتصال الحديثة تلعب دورا كبيرا في العنف بين الشباب، ويظهر ذلك من خلال السب والقذف وتشهير الأشخاص بين بعضهم البعض، وصور شديدة من ممارسات العنف، لأن المركز يقوم بدراستين: إحداهما عن ثقافة الحاسوب والإنترنت، وأخرى عن جرائمهما، وتبين أن من أكثر صور العنف انتشارا خلالها كان السب والقذف والتشهير، وهناك سرقات من خلال بطاقات الائتمان، وتجارة السلاح والمخدرات والأعضاء، واستغلال النساء.

مواجهة العنف

● هل من استراتيجيات لمواجهة العنف بالنسبة للشباب؟

- يجب احتضانهم، وإعطاؤهم الفرص للتعبير عن ذاتهم، وإتاحة فرص للعمل، لتحقيق كيانهم، وإشغال وقت الفراغ نتيجة البطالة الشديدة، مع الحد من الزحام والكثافة السكانية التي نعاني منها، وتوفير الإسكان، وتحقيق احتياجاتهم الأساسية، مع بث قيم التسامح وقبول الآخر، أيا كان نوعه أو الديانة، أو الجنسية أو المهنة، علاوة على تنظيم برامج توعية يتم من خلالها تعريفهم بالعنف ومشكلاته المختلفة، للقضاء عليه والحد منه، سواء كانت برامج تقودها مؤسسات أو جمعيات أهلية، أو الإذاعة والتليفزيون، فنستطيع من خلال ذلك الوصول إلى عدالة اجتماعية، بحيث يحصل كل فرد على حقه.

● وما دور المؤسسات التعليمية المختلفة في معالجة العنف؟

- جميع المؤسسات الاجتماعية، والتعليمية، بما فيها الأسرة والمدرسة والجامعة، والجامع والأصدقاء.. لهم دور في منع ممارسة العنف، مثلا من خلال المناهج الدراسية، ومعالجته، وأن تتحدث من خلال المناهج عن قيم التسامح والإخاء.

أيضا المؤسسات الدينية عليها أن تناهض العنف في خطب الجمعة، وأن تدعو إلى التسامح والإخاء ونبذ العنف.

● ما الجهات المعنية لحل مشكلة العنف؟

- كل فرد في المجتمع عليه دور في تهدئة نفسه وكبحها من ممارسة العنف، بالإضافة إلى جميع المؤسسات، المتمثلة في الأسرة والمدرسة والمسجد والكنيسة، والإعلام، ومنظمات المجتمع المدني، ووزارات التعليم العالي والداخلية والأوقاف، من خلال الخطب الدينية، سواء يوم الجمعة أو في أي مناسبات مختلفة، ومن خلال برامج توعية تنظمها مراكز البحوث المختلفة، ووزارات الشباب.

● وماذا عن الإعلام؟

- الإعلام عليه تنظيم برامج توعية مختلفة، من خلال الإذاعة والصحافة، وخاصة التليفزيون، كونه أكثر وسيلة إعلام منتشرة وتفيد المجتمع الذي يمتاز بنسبة كبيرة من الأمية، فبهذه البرامج نستطيع الحد من هذه الظاهرة، مع بث القيم وكيفية الحد من العنف، علاوة على مناقشة الجرائم التي تنطوي على شكل من أشكال العنف وكيفية ردعها، مع توضيح آثار ذلك على الفرد والمجتمع، ووزارة الداخلية لها دور لأن تتصدى لكل أنواع العنف، لكن ليس بمواجهته بالعنف، لأنه يؤدي إلى تصاعده، ولابد من مواجهته بأساليب علمية سلمية.

● وما دور المركز القومي المصري للبحوث الاجتماعية والجنائية في معالجة الظاهرة؟

- المركز بصدد إعداد مشروع دراسات وبحوث عن العنف في المجتمع المصري، وأنا أشرف عليه، منها دراسة عن العنف في الحياة اليومية في المجتمع، ودراسات: العنف والمشقة، وعقاب الأبناء بين الأسرة والمدرسة، ودراسة العنف بين طلاب المدارس وبعض المتغيرات الشخصية واتجاهات أولياء الأمور نحو ظاهرة العنف، إضافة إلى اتجاهات المؤسسة التعليمية نحو العنف بين طلاب المدارس.

وهناك الوصف الأيكولوجي، ويعني المتغيرات البيئية التي تدفع إلى العنف، وكان هناك دراسة عن عنف الشباب، نفذت على مستوى الجمهورية، وكانت مأخوذة من دراسة العنف الذي يحدث في الحياة اليومية.

كما درسنا العنف ضد المرأة، بالاشتراك مع وزارة الشؤون الاجتماعية، ودرسنا عنف المرأة، ووجدنا أن النساء الأميات أو متوسطات التعليم، يقمن بالنصيب الأكبر من العنف، لكن بدأ الأمر يتطور حتى وصل للفئات المختلفة والراقية في المجتمع.

وعند المقارنة بين عنف الرجل والمرأة نجد أن جرائم عنف الرجل أضعاف ما ترتكبه المرأة، فهي بطبيعتها هادئة، لكن إذا ارتكبت العنف تكون أكثر شراسة.

مؤسسات المجتمع المدني.. والحوار المطلوب

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي مصري

«الحوار» في إحدى مترادفاته غير اللفظية قد يعني: الحياة!
هكذا بلا مبالغة!
إذ إن غياب الحوار يعني بالضرورة حضور نقيضه وناقضه، وهو العنف، والاحتكام إلى لغة الرصاص؛ مما يفضي في النهاية إلى أن تكون حياة الإنسان أهون الأشياء، وبلا قيمة!
ومن ثم، كان الحديث عن «الحوار» وعن ترسيخه وتدعيمه، وعن التبصير بأهميته وخطورة غيابه.. من أولى الأولويات، التي يجب أن ينشغل بها أي مجتمع يبحث عن تماسك نسيجه، ووحدة صفه، ورقيه الحضاري، ويتطلع إلى مواجهة التحديات التي لا يخلو منها زمان ولا حال.
إننا بقدر ما ندرك حرمة استحلال الدم المعصوم، وخطورة اللجوء إلى العنف كوسيلة لحسم الخلافات، وفرض الرؤى والتوجهات؛ فإننا ندرك مدى حاجتنا إلى انتهاج الحوار سبيلا لتقريب وجهات النظر، ولتفادي الدخول في طريق مسدود، لا صوت فيه يعلو على صوت الرصاص!
أما عن الأمر الأول -وهو حرمة الدماء المعصومة- فلو لم يرد في القرآن الكريم والسنة النبوية غير هذه الآية الكريمة في باب الزجر عن سفك الدماء بغير حق، لكانت كافية رادعة لمن يحذر الآخرة، ويخشى غضب الله وعذابه؛ وهي قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة:٣٢).
فقد جعل سبحانه «قتل الواحد كقتل الجميع، وكذلك الإحياء؛ ترغيبا وترهيبا؛ لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور أن قتلها كقتل الناس جميعا، عظم ذلك عليه، فثبطه. وكذا الذي أراد إحياءها؛ إذا تصور أن حكمه حكم إحياء جميع الناس، رغب في إحيائها» (١).
وأما عن الأمر الثاني -وهو أهمية الحوار وضرورته- فنشير إليه بأن الله سبحانه قد ضرب لنا المثل

بما فعله أول الزمان مع خلقه؛ من الملائكة وآدم وإبليس؛ فقد حاور سبحانه الملائكة في خلق الإنسان، وأجاب عن تساؤلاتهم؛ وحاور آدم في معصيته ثم تاب عليه، وحاور إبليس في تكبره ثم أمهله إلى يوم الدين.. مع أنه سبحانه غير محتاج لذلك كله؛ فهو صاحب الأمر والنهي بكلمة واحدة: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ (مريم:٣٥).

ولاشك أن كل مؤسسات المجتمع؛ التربوية والدينية والتثقيفية والإعلامية والسياسية، إضافة إلى الأسرة -وهي النواة الأولى التي يتفتح فيها وعي الإنسان- مسؤولة عن ترسيخ الحوار؛ كل مؤسسة بحسب أهميتها وطاقتها.

وإذا كان المجتمع المدني بمؤسساته المتعددة -السياسية والحقوقية والتنموية والاجتماعية- هو «حلقة الوصل» بين الدولة الحديثة؛ الساعية بطبيعتها لفرض سيطرتها، والتغول بنفوذها على مختلف المجالات، من ناحية، وبين المجتمع الباحث عن حريته وحقوقه، ومكتسباته المادية والمعنوية، من ناحية أخرى؛ فإن دور مؤسسات المجتمع المدني في تدعيم الحوار، وإشاعة ثقافته، دور محوري وأساسي.

ولا يقتصر دور مؤسسات المجتمع المدني على كونها وسيطا بين الدولة والمجتمع، بل هي أيضا وسيط بين فئات المجتمع نفسه وطبقاته.

أسباب متعددة

من المهم قبل أن نسأل: ما دور مؤسسات المجتمع المدني في ترسيخ الحوار، وفي معالجة ظاهرة العنف التي تجتاح مجتمعاتنا من آن لآخر؛ أن نشير إلى أهم الأسباب الداعية إلى وجود تلك الحالة أصلا؛ حتى نتبين بدقة طبيعة الدور المنوط بتلك المؤسسات.

ولا يغيب عن بالنا أن ثمة أسبابا متعددة تقف وراء إذكاء جمرة العنف، وإفساح المجال للغضب المكتوم أن يتدحرج مثل كرة لهب، تقذف بشررها في كل اتجاه.

فالتربية الأسرية التي يغيب عنها التراحم والتواد، ويتسلط فيها أحد الزوجين على الآخر، في حالة استئساد عجيبة قد تكون مظهرا من مظاهر الكبت الذي يواجهه خارج نطاق الأسرة.. هذه التربية لا تغرس بذرة الحوار، ولا تنشئ طفلا سويا يعرف للآخرين حقهم في التعبير والاختلاف.

كما أن شيوع خطاب ديني يقوم على اتجاه واحد؛ غافلا عن سعة ومرونة الفقه الإسلامي، الزاخر بمدارس شتى ومذاهب متعددة، وذاهلا عن سنة الله في خلق الناس مختلفين؛ في اللون، والجنس، والعرق، والدين، والفهم.. هذا الخطاب الديني من شأنه أن يكون رافدا من روافد التعصب المفضي إلى العنف وإلى تمزيق لحمة المجتمع.

وفي هذا السياق، نذكر موقف الإمام مالك بن أنس حين رفض طلب أبي جعفر المنصور -ومن بعده هارون الرشيد- بجمع الناس على كتابه «الموطأ»، قائلا له: «يا أمير المؤمنين، لا تفعل؛ فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به، ودانوا له، من اختلاف الناس -أصحاب رسول الله ﷺ- وغيرهم؛ وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم». فقال: «لعمري؛ لو طاوعتني على ذلك، لأمرت به» (٢).

أما وسائل الإعلام التي ترتبط بمصالح مموليها أكثر من البحث عن الحقيقة وتوعية المشاهد، كما تقضي أصول المهنة.. فإنها تتحول إلى أبواق للفتنة، وإلى آلات حادة، تقطع بها أي جسور للحوار؛ ضمن ما أسماه أحد الباحثين بـ«صناعة الكراهية» في المجتمع (٣).

إضافة إلى أن البيئة السياسية المنشغلة طوال الوقت بتضييق الخناق على ذوي الرأي المخالف، وليس بإفساح المجال أمام الرؤى المتعددة لترى النور؛ لتستفيد من أجودها وأفضلها.. توفر ذريعة لمن يريد أن يأخذ المجتمع باتجاه منحرف.

ولا أحد يستطيع أن ينكر أن المسار التاريخي يدلنا على وجود صلة وثيقة بين الاستبداد وحركات العنف والتمرد؛ لأنه لو كان «العدل» -السياسي والاجتماعي- متحققا، فلا مبرر من الأساس للتفكير في التملص من سلطة الدولة.

ما العمل؟

من البدهي أنه مادامت أسباب مشكلة ما أسبابا متعددة، فإن طرق المعالجة يجب أن تتجه باتجاه تلك الأسباب؛ على اختلافها وتنوعها وتعددها.

من هنا، تتضح أهمية وثقل الدور المطلوب من مؤسسات المجتمع المدني في ترسيخ مفهوم الحوار، كواحد من المفاهيم المفصلية والحيوية لأي مجتمع، ولأي أمة.

وهذا الدور يتغيا بدرجة أساسية تغيير المفاهيم وبناء العقول، وتقويم المعارف والثقافات،

وإحلال الأفكار البناءة الفاعلة محل الأفكار الهدامة، و«الأفكار المميتة»؛ والمصطلح الأخير لمالك بن نبي.

فلابد من إشاعة مفاهيم التربية الصحيحة، وأسس بناء الأسرة المتماسكة المتراحمة، التي تصب في النهاية في بناء مجتمع راشد.

وفي هذا الإطار يمكن بواسطة تلك المؤسسات المجتمعية عقد دورات تثقيفية لتوعية وتدريب الشباب المقبلين على الزواج؛ وجعل هذه الدورات ثقافة عامة في المجتمع لا يخجل منها. وقد أثبتت دراسات كثيرة أن نسبة الطلاق أو المشكلات الأسرية بين الحاصلين على تلك الدورات، تقل كثيرا عن نظرائهم ممن لم يحصلوا عليها (٤).

وفيما يتصل بالجانب الديني والثقافي للمجتمع، فلا مفر من إشاعة ثقافة التعدد، وتوضيح الحكمة البالغة من سنة الله في الاختلاف، وبيان ضرورة أن تكون محصلة هذا الاختلاف تكاملا لا تضادا، وتعاونا لا تنافرا؛ تحقيقا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (الحجرات:١٣). وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ﴾ (هود:١١٨ و١١٩).

كذلك من المهم أن تمارس مؤسسات المجتمع المدني دورها في مراقبة وسائل الإعلام التي تنحرف بسياستها التحريرية عن قيم المجتمع وتدعيم ثوابته وتطلعاته، وأن تكشف زيف تلك الأساليب الإعلامية الملتوية وطبيعة خدمتها لأصحاب النفوذ، لا الحقيقة والمشاهد؛ كما تعلن مرارا بتدليس ممجوج!

أما عن الجانب السياسي، فإن مؤسسات المجتمع المدني -كما سبقت الإشارة- هي الوسيط الأمين بين الدولة والمجتمع؛ لا الوساطة الحيادية التي لا طعم لها ولا لون؛ وإنما -إن جاز التعبير- الوساطة المنحازة لصف المجتمع، المتحدثة باسمه، المعبرة عن آماله وأشواقه، التي تحاول ما وسعها الجهد أن تنتزع له حقوقه، وأن تزيد مساحة مكتسباته، وأن تحدث توازنا معقولا مع سلطة الدولة المتغولة بطبيعتها.

لا مجال إذن لتمييع الحقوق، ولا لمحاباة أصحاب رؤوس الأموال، ولا للجور على حقوق الطبقات المحرومة، ولا لتجميل السياسات الخاطئة وإضفاء الشرعية عليها.

كما أنه لا مجال لتضييق الخناق على أصحاب الرؤى المخالفة، بل لكل صاحب رأي أن يجهر برأيه، وأن يضعه موضع التنفيذ، متى حاز إعجاب الناس ورضاءهم.

إذن، كل تلك الممارسات الخاطئة المفضية إلى العنف، والمشرعنة لصوت اللاعقل؛ ستنمحي يوم أن تدرك مؤسسات المجتمع المدني -بكل تنويعاتها ومؤسساتها- أنها من الشعب، وعن الشعب تعبر، وأنها من المجتمع وعن طموحاته تتحدث، وأن الدولة الحديثة ليست بحاجة إلى ميزات أخرى تضاف إلى يدها التي تطول كل شيء، وتتحكم في كل شيء.

ويوم أن يجد الناس، حقيقة وواقعا مؤسسات تحامي عنهم، وتدافع عن مصالحهم، وتكون لهم لسان الحال والمقال؛ فإن أي دعوة من هنا أو من هناك لحرف مسار المجتمع نحو العنف والاقتتال؛ لن تجد لها آذانا مصغية.

الهوامش

١- تفسير النسفي، ١/ ٢٨٠.

٢- كشف المغطى في فضل الموطا، لابن عساكر، من «المكتبة الإسلامية» على موقع «إسلام ويب».

٣- «صناعة الكراهية» مصطلح يستخدمه د. سيف الدين عبدالفتاح في سياق التحذير من محاولات تمزيق المجتمع، وبث الفرقة بين شرائحه، باستخدام «الإعلام» كرأس حربة في ذلك.

٤- نشير في هذا الجانب إلى أنه كيف كانت المرأة العربية حريصة على نصح ابنتها وتوعيتها قبل الزواج بطبيعة المرحلة الجديدة التي هي مقبلة عليها؛ والتي تختلف تماما عما ألفته ونشأت عليه؛ كما في النصيحة المشهورة من أمامة بنت الحارث لابنتها. انظر نصها في «جمهرة خطب العرب»، أحمد زكي صفوت، ١/ ٢٩٦، ط١، ١٩٢٣، مكتبة الحلبي، القاهرة.

دوافع العنف لدى الشباب

محمد شعبان أيوب
باحث في التاريخ الإسلامي

العنف ظاهرة قديمة، يمكن للمرء أن يلحظ ذلك بكل سهولة حينما يطالع مصدرا من مصادر التاريخ العام لدى أي حضارة من الحضارات، والإنسان بطبعه كائن مركب يميل إلى الفجور أكثر مما يميل إلى التقوى، ولما كان الشباب ذروة القوة لدى الإنسان، تجلت هذه الظاهرة بوضوح.

أرقام مفزعة!

لقد جاء في تقرير صحيفة وقائع، التابعة لمنظمة الصحة العالمية، الصادر في أغسطس ٢٠١١م، حول عنف الشباب، أنه «يسجل كل عام في جميع أنحاء العالم، حدوث نحو ٢٥٠ ألف جريمة قتل بين الشباب من الفئة العمرية ١٠ - ٢٩ سنة، مما يمثل ٤١ في المئة من العدد الإجمالي لجرائم القتل التي تحدث سنويا على الصعيد العالمي. وتتباين معدلات القتل التي تسجل بين الشباب، بشكل كبير، بين البلدان وداخلها. غير أن الذكور يشكلون، في كل البلدان، معظم مقترفي جرائم القتل وضحاياها. أما معدلات جرائم القتل المسجلة بين الإناث فهي أكثر انخفاضا بكثير في كل الأماكن تقريبا. ولوحظ في الفترة بين عامي ١٩٩٠ و٢٠٠٤م، ارتفاع معدلات جرائم القتل المسجلة بين الشباب في كثير من البلدان النامية، وانخفاضها في عدة بلدان متقدمة».

ونتيجة لهذه الأرقام المرعبة، يجب أولا أن نعرف ماهية العنف لدى علماء النفس والاجتماع؛ لنرصد أهم أسبابه ودوافعه في المنطقة العربية.

ماهية العنف

يقدم علم النفس عددا من النظريات التي تفسر حدوث العنف، فوفق النظرية البيولوجية فإن العنف ينشأ نتيجة عمليات التطور في الإنسان، بالإضافة إلى كونه تعبيرا عن الطاقة الداخلية للفرد.

بينما ترى النظرية النفسية الاجتماعية أن العنف غريزة تدميرية ملتصقة بالفرد، بصورة جبلية، أو هو تقليد لنماذج العنف التي يراها الشاب في مجتمعه، خصوصا المواد الإعلامية العنيفة التي تبثها وسائل الإعلام على مدار الساعة.

وهناك وجهة نظر أخرى ترى أن هناك بعض المنظمات الاجتماعية في المجتمع تدعم العنف وتشجعه، كتشجيع أولياء الأمور أبناءهم على الاعتداء على الآخرين، أو على الممتلكات العامة. وهناك العنف الذي يصدر نتيجة للشعور بالإحباط الذي يسيطر على الفرد عندما لا يحقق بعض احتياجاته المشروعة، كالزواج وبناء أسرة. وكذلك هناك العنف الذي يصدر عن الشباب كردة فعل مضادة لعنف يمارس ضدهم من بعض القوى في المجتمع، وهذا العنف هو المسبب الرئيسي للعنف في مجتمعاتنا العربية (١).

على أننا سنقف مع سببين رئيسيين من أسباب انتشار العنف بين الشباب العربي والإسلامي، وهما: الفراغ، والقراءة المعوجة لنصوص الدين؛ بغية الوقوف أمامهما ومعالجتهما من العقلاء والنابهين.

إشكالية الفراغ

غالبا ما يكون وقت الفراغ هو الوقت الذي يتحرر فيه الفرد من المهام الملتزم بأدائها بصورة مباشرة وغير مباشرة.

ومما ينتبه له، أن رسول الله ﷺ قد حذر من ضياع الفراغ فيما لا يفيد، فدعا إلى استثماره، ونعته بالنعمة، فقال ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» (البخاري).

على إننا يجب أن نتفهم أن الفراغ الفكري كذلك هو الأشد خطورة، وأحد الأسباب الرئيسية في تكوين ظاهرة العنف لدى الشباب، فالفراغ الفكري ليس مقصوده خلو عقل الإنسان من المعلومات، وإنما خلو عقله من الفكر الذي هو ناتج عن جمع معلومات من مصادر مختلفة، وتحليلها، والاستفادة منها، والخروج بقناعات وثوابت فكرية محددة.

ويشير بعض الباحثين إلى أن الفراغ الفكري يرجع إلى:

١ - الجهل الناتج عن الأمية الفكرية.

٢ - عدم وجود التوعية الأبوية الكافية منذ الصغر.

٣ - عدم مبالاة الإنسان بالأحداث التي تجري حوله والاستفادة منها.

٤ - عدم وجود مناعة فكرية تقي العقول من الغلو والإفراط الفكري (٢).

العنف باسم الدين!

إن أشد التحديات التي تواجه الشباب المسلم اليوم، والتي توصله إلى العنف باسم الدين، غالبا ما تكون بسبب القراءة المنقوصة للنصوص، وهي التي تتبع: إما من غرور، أو هوى، أو قراءة خاطئة للنصوص الشرعية وخلل في فهمها.

فالهوى هو ما تدفع به النفس صاحبها لتحقيق حظوظها، وقد نهى الله تعالى عن ذلك، وخاطب به نبي الله داود بقوله:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ص:٢٦).

ولقد رأينا الأهواء ممزوجة بلباس زائف من الدين في أمثلة عديدة من التاريخ، فالذي قتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه هو عمرو بن الحمق، الذي ظن أنه فعل ذلك ديانة، وقد

طعنه تسع طعنات، وقال حينما طعنه: «فأما ثلاث منها فإني طعنتها إياه لله، وست لما كان في صدري عليه» (٣)!

ولذلك حذر الإمام الشاطبي من أصحاب الأهواء، فقال: «فكذلك صاحب الهوى إذا ضل قلبه وأشرب حبه لا تعمل فيه الموعظة، ولا يقبل البرهان، ولا يكترث بمن خالفه» (٤).

وثمة إشكالية أخرى، تتسبب في ذلك، هي اعوجاج منهج الشاب في التلقي الشرعي والديني، سواء من المجاهيل أو الوسائل الإعلامية والتوعوية غير المنضبطة، لذا الأصل في منهج التلقي أن يكون عن القرآن والسنة، والأئمة العدول، والالتزام بقواعد الاستدلال الشرعي. والمتأمل في الوقائع يجد أن أكثر من ترك الحق أو صد عنه، واتبع الباطل كان سببه هذا الخلل (٥).

ومما يروى عن نتائج هذا الاعوجاج في التلقي وسوء الفهم عن الله ورسوله ﷺ، ما ذكره ابن قتيبة في «عيون الأخبار» أن «واصل بن عطاء كان في رفقة، فلقيهم ناس من الخوارج، فقالوا لهم: من أنتم؟ قال لهم واصل: مستجيرون حتى نسمع كلام الله، فاعرضوا علينا. فعرضوا عليهم. فقال واصل: قد قبلنا. قالوا: فامضوا راشدين. قال واصل: ما ذلك لكم حتى تبلغونا مأمننا، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ (التوبة:٦)، فأبلغونا مأمننا. فجاءوا معهم حتى بلغوا مأمنهم». وهي الحكاية التي تتكرر بتكرر سنة سوء الفهم عن الله ورسوله في كل زمان ومكان!

آثار العنف الشبابي

إن آثار العنف الشبابي على المجتمعات العربية شديدة الخطورة، وعلى رأسها ذلك العدد المفزع من حالات القتل السنوية، لكن الأشد خطورة هو أولئك الذين مروا بتجارب العنف ولم يلقوا حتفهم، فلقد ذكرت منظمة الصحة العالمية في تقريرها لعام ٢٠١١م «أن حالات العنف غير المميتة المسجلة بين الشباب لا تسهم بقدر وافر في العبء العالمي الناجم عن الوفيات المبكرة والإصابات والعجز فحسب، بل تلحق أيضا بوظائف الشخص النفسية والاجتماعية آثارا خطيرة، تدوم مدى الحياة في غالب الأحيان. ويمكن أن يؤثر ذلك على أسر الضحايا وأصدقائهم ومجتمعاتهم المحلية. ويزيد عنف الشباب، بشكل كبير، من التكاليف الصحية وتكاليف خدمات الرعاية والعدالة الجنائية؛ ويتسبب في خفض الإنتاجية، وتراجع قيمة الممتلكات، وتفكيك النسيج الاجتماعي عموما».

الهوامش

(١) صلاح الدين عبدالقادر، مقال بعنوان «العنف المنتشر بين الشباب، الأسباب والحلول»، المركز الوطني لأبحاث الشباب، جامعة الملك سعود.

(٢) رانيا نظمي، علاقة الانحراف الفكري بظاهرة الفراغ عند الشباب، من منشورات قسم الثقافة الإسلامية، جامعة الملك سعود.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٠٩/١٠، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر للطباعة، الطبعة الأولى، الرياض، ١٩٩٧.

(٤) الشاطبي، الاعتصام، ٧٧٨/٢، ٧٧٩، تحقيق سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، الرياض، ١٩٩٢.

(٥) محمد سويد الدقلة، الشباب ومواجهة تحديات العصر، منشور ضمن تدويناته الخاصة.

«ستة آداب.. متى تعود؟»

د.عبد الناصر حسن السقا
إمام وخطيب - مصر

ستة نداءات تبدأ من أول سورة الحجرات.. لو راعتها أمتنا لحلت جميع مشاكلها.

وهي عبارة عن آداب يؤدبنا الله تعالى بها. ألا وهي: «الأدب مع الله ورسوله عامة. ثم مع رسوله ﷺ خاصة، ثم مع الفاسقين، ثم مع المؤمنين، ثم مع الناس أجمعين». وما أحوج الأمة إليها -اليوم- في وقت تعاني فيه من أزمة أخلاق وآداب، فماذا عنها باختصار شديد؟ وماذا نستفيد؟

النداء الأول: وهو مطلع السورة الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾ (الحجرات:١)

أولا: سورة الحجرات لما كانت تسمى بسورة الآداب أو الأخلاق فإنها تعد إحدى ثلاث سور استفتحها الله بالنداء على الأمة المحمدية، وكذا تعد إحدى ٨٨ موضعا نادى الله فيها على الأمة المحمدية بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وبعد هذا النداء نرى إما أمرا أو نهيا، وهذا يدل على شيئين:

١- الإشادة بأهل الإيمان بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا. وعليه: فلنسعد ولنحمد الله على نعمة الإيمان، ونعمة أن جعلنا من أمة سيد ولد عدنان، ومن أبوين مؤمنين، كما قالت أسماء بنت الصديق أبي بكر: «إن سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي وقلبي لا سلطان لأحد عليه إلا الله».

٢- لا إيمان إلا بتكليف: كما في مسلم وغيره قول رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة» فأفضلها قول «لا إله إلا الله» وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

وأما النداء الثاني: فقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ (الحجرات:٢).

وأما النداء الثالث: فقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ (الحجرات:٦)

ويستفاد من الآية الكريمة ما يلي:

أولا: هذه الآية الكريمة، وإن كانت قد نزلت في «الوليد بن عقبة» الذي زعم أن «الحارث بن ضرار الخزاعي» منعه الزكاة وأراد قتله، إلا أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

ثانيا: تسمية الواشي أو النمام -وهو الذي ينقل كلام الناس فيما بينهم على وجه الإفساد- بالفاسق، وهو فسق لا يخرجه عن الملة إلا إذا استحل النميمة والعياذ بالله.

ثالثا: تحريم النميمة، لأنها تؤدي إلي الفرقة وسفك الدماء. لذلك -كما في حديث مسلم وغيره- «لا يدخل الجنة نمام». وفي حديث أحمد والطبراني قول الحبيب النبي ﷺ: «خيار أمتي الذين إذا رؤوا ذكر الله، وشرار أمتي المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة والباغون البراء العنت».

رابعاً: وجوب التبيان والتثبت من الأخبار المشاعة؛ لئلا نصيب قوما بجهالة فنندم.

وأما النداء الرابع والخامس: فقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ (الحجرات:١١).

وأما النداء السادس والأخير: فقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (الحجرات:١٣)

ويستفاد منه ما يلي:

١- اشتراك جميع الناس في هذا النداء. مصداقا لقول رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب».

٢- أن الحكمة من جعلنا شعوبا وقبائل هي سنة «التعارف» المؤدي للصحبة والتعاون على البر والتقوى، لأن الإنسان -كما يقول علماء الاجتماع- مدني بالطبع. ومعرفة الصالحين كنز.

٣- أن الميزان عند الله بالتقوى والعمل الصالح: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾. وتحقيق التقوى لا يكون إلا بثلاث هي:

- إذا الشيطان لا يقوى
- وكنت على النفس تقوى
- وكان يقينك الأقوى

الوفاء بالوعد وأثره على الرزق

إحسان عبدالعزيز الدبش
باحث دراسات إسلامية

الوفاء بالوعد له نتائج إيجابية على سمعة الإنسان، بشكل عام، مهما كان موقعه، واختصاصه، ومهنته. فالذي يفي بوعده يكسب سمعة حسنة، ومن يخلف وعده يكسب سمعة سيئة، ليس هذا فقط، وإنما يخسر ماديا أيضا. والمراقب لواقعنا في مختلف المجالات وعلى مختلف الأصعدة، يلحظ، للأسف، كثرة انتشار ظاهرة إخلاف الوعد، وهي ظاهرة سلبية في علاقات الناس بعضهم مع بعض، خصوصا في مجال التعامل المهني، بمختلف أنواع المهن، سواء كانت مهنا ذات مستوى ثقافي عال، أو مهنا فنية، أو مهنا صناعية أو تجارية أو وظيفية أو مهن خدمات.

المدقق في واقع تعامل الناس بعضهم مع بعض يعجب لإخلاف الوعد، خصوصا في المجال المهني والتجاري، فيما يتعلق بالأرزاق بين العباد. مع العلم أن في إيفاء الوعد، فضلا عن أنه موقف أخلاقي يجب أن يلتزم به كل مسلم، بركة تزيد في الرزق كما سنوضح ذلك فيما يلي:

لم يترك الإسلام فضيلة إلا أمر بها، ولا مفسدة إلا نهى عنها، يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ (المائدة:١).

والوعد نوع من العقود، قد يكون شفهيا وقد يكون كتابيا، بين إنسان وآخر.

والوفاء بالوعد ينحو منحيين: الأول بين العبد وربه، والثاني بين الإنسان وأخيه الإنسان.

فأما الأول: فقد أمر الله عزوجل المؤمنين بالإيفاء بالوعد مع كل الناس، مسلمهم وكافرهم، كبيرهم وصغيرهم، قريبهم وبعيدهم، فقيرهم وغنيهم، عالمهم وجاهلهم. وقد وصف الله عزوجل المؤمنين بأنهم من أولي الألباب، الذين من أولى صفاتهم أنهم:

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ (الرعد:٢٠). وإن الله يحب العبد الذي يفي بوعده، لأن إيفاء الوعد من التقوى، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:٧٦). وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه جل جلاله: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره» (رواه البخاري). وعن عبدالله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أاؤتمن خان، وإذا خاصم فجر» (رواه الشيخان).

أما المنحى الثاني بين الإنسان وأخيه الإنسان: فإن الوفاء بالوعد لدى صاحب المهنة، بشكل خاص، يفيده في كسب رزقه على الشكل التالي:

وعد صحيح ودقيق، تنتج عنه ثقة ممتازة، جلب زبائن ورزق وفير.

والعكس: إخلاف وعد، ينتج عنه انعدام ثقة، هروب زبائن، رزق قليل.

إن إيفاء الوعد مع الزبائن تنتج عنه «ثقة الزبون» بصاحب المهنة (حداد – نجار – كهربائي...إلخ). فعندما يذهب المهني إلى الزبون في الوقت المحدد من اليوم والساعة، وحتى الدقيقة، يشعر الزبون بأن هذا المهني رجل صادق في وعده، دقيق في تنفيذه، فقد أتى إلى عمله في الوقت المحدد، والساعة المحددة، والدقيقة المحددة.

وهناك قسم لا بأس به من الناس حريص على أوقاته، لأن الوقت له ثمن.

هذا الإيفاء بالوعد تنتج عنه

ثقة الزبون بالمهني، مما يشجعه في مرات قادمة على أن يوصيه بأعمال أخرى يحتاج إليها. بينما ينصرف الزبون إلى غيره إذا لم يف بوعده، كما أن الزبون يشجع أقاربه وأصدقاءه على أن يتعاملوا مع هذا المهني الدقيق في مواعيده، فلا يضيع أوقات الناس سدى. بالإضافة إلى أنه إذا كان هذا المهني متقنا لصنعته، وذا أجر معتدل، ينتج عن ثقة الزبون «ربح وفير». إذن، يدر الوفاء بالوعد والاستقامة في تنفيذه الرزق على المهني.

ومن المؤسف أن نجد في مجتمعاتنا التي نعيش بين ظهرانيها، أناسا كثرا لا يوفون بوعودهم في عقود بيعهم وشرائهم، أو في أدائهم لخدماتهم في الأوقات المحددة. بينما نجد من زار بعض الدول المتقدمة صناعيا يعجب من الدقة في تنفيذهم لوعودهم في وقتها، وفي أدائهم لمهنهم، أو صرفهم الرواتب لعمالهم.

تنفيذ المواعيد بدقة

هناك طرق عدة لتنفيذ المواعيد بدقة، حسب موقع صاحب الموعد (مدير - رئيس قسم - عامل...إلخ)، وحسب نوع الموعد، وشموليته، ومكانته، ولكل حالة ترتيبها. أضرب مثالا على ذلك: إذا واعد شخص شخصا آخر، مثلا، على الساعة السابعة مساء، في بيته، وكان ممن يحرصون على إيفاء الوعد بدقة، فيتبع أسلوب العد العكسي على الشكل التالي:

١- كم أستغرق حتى أتجهز للخروج من بيتي: لبس ثيابي - ترتيب غرفتي - تصفيف شعري - مسح حذائي - تفقد أغراض الخروج من المنزل (مال - بطاقة شخصية - مفاتيح - مناديل - ساعة أو هاتف نقال) «وليكن ١٠ دقائق».

٢- أقدر المسافة بين بيتي وحافلة النقل؛ بحسب تجربة سابقة، إذا لم أكن أملك سيارة «وليكن ٧ دقائق».

٣- أقدر الزمن الذي ستقطعه الحافلة حتى أصل إلى أقرب موقف للبيت الذي أقصده «وليكن ١٥ دقيقة».

٤- كم أستغرق من المشي حتى أصل إلى البيت الذي أقصده «وليكن ٥ دقائق».

٥- أضيف من عندي خمس دقائق احتياطا «٥ دقائق».

يصبح المجموع ٤٢ دقيقة.

أي إنني يجب أن أخرج من بيتي الساعة ٦,١٨ دقيقة حتى أصل إلى بيت صديقي الساعة ٧ في الموعد المحدد بدقة.

أسلوب العد العكسي هذا أسلوب ناجح جدا. قد يقول قائل: أكلما وعدنا إنسانا علينا أن نقوم بهذه العملية الحسابية؟! الجواب في حديث، أعظم مرب وإداري بقوله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم...».

في المرات الأولى نحتاج إلى شيء من الجهد، ثم تصبح عادة حسنة سهلة، تنجز ذهنيا بدقائق إذا لم تكن بثوان. وهذه الطريقة مجربة مئات وآلاف المرات، فلمَ يكون الأجنبي أحسن مني، وديني يأمرني بإيفاء الوعد؟!

الفوائد من الإيفاء بالوعد

أولا: رضا الله عزوجل قبل كل شيء: لأن الإيفاء بالوعد يدخل ضمن أوامر الله عزوجل، كالصلاة والصيام وغيرهما من التكاليف. والتنفيذ فيما يتعلق بالمواعيد مع بقية الأوامر يحقق العبودية التامة لله عزوجل، قال سبحانه وتعالى لبني إسرائيل خاصة وللمسلمين عامة: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ (البقرة:٤٠).

ثانيا: حسن السمعة عند الناس عامة (أقارب - أصدقاء - جيران...): إن كان يعمل عملا حرا كسب ثقة رؤسائه، وإن كان صانعا أو تاجرا كبيرا أو صغيرا كسب ثقة الزبائن، خصوصا إذا ترافق ذلك مع الجودة في الصنعة والاعتدال في السعر.

ثالثا: حفظ كرامته: إن كان موظفا أو عاملا وأخلف في مواعيد القدوم إلى العمل زجر من قبل رؤسائه، وقد يهان لأنه يؤخر الإنتاج ويعطله، وإن كان صاحب عمل وأخلف فهو مؤهل للإفلاس أو العقوبات على تأخيره بسبب إخلاله بالاتفاقيات المبرمة. وعلى ذلك نقيس في بقية الاختصاصات والمجالات.

رابعا: تجنب الخسارة المالية من دخله: مثلا، عامل كان يتأخر عن عمله صباحا بشكل يومي، رغم التنبيهات والتحذيرات له بشكل مستمر، لكنه لم يغير عادته، ودائما كان يشكو من قلة دخله، عدا غيابه خلال الأسبوع، حيث يحسم من راتبه كل غياب يغيبه.

حسب صديقه الناصح له كم يخسر في كل شهر نتيجة غيابه ١٠ دقائق في اليوم صباحا عن موعد عمله وبقية الأيام التي يغيبها في الشهر، فبلغت خسارته ١٥- ٢٠ في المئة من راتبه.

المجالات التربوية لبناء الشخصية السوية كثيرة جدا، وأهم عملية بناء سليم تعود إلى مرحلة الطفولة، خصوصا الحضانة والابتدائي والإعدادي، ففي هذه المراحل تغرس القيم والمفاهيم السليمة في كل جوانب الحياة، مع الحاجة إلى رعاية القيم الفاضلة التي تربى عليها الفرد المسلم بشكل مستمر، فكم نحن بحاجة إلى إعادة البناء التربوي في جميع المجالات من جديد ومنها الإيفاء بالوعد.

الحشرات في قائمة الغذاء العالمي

(رؤية شرعية)

د. رضا عبد الحكيم إسماعيل
باحث أكاديمي

الحشرة عند علماء الحيوان: كل كائن من شعبة المفصليّات له ثلاثة أزواج من الأرجل، ويقطع في تحوّله ثلاثة أطوار: (بيضة الحشرة، حورية الحشرة، صرصور)، أو أربعة أطوار: (بيضة الحشرة، يرقانة الحشرة، خادرة الحشرة، فراشة).

وتمثل الحشرات المجموعة الأكثر تنوعا من الكائنات الحية على سطح الأرض، فهي تشكل أكثر من ٩٠٪ من مختلف أشكال الحياة على الأرض.

يقرر خبراء الاقتصاد أن تعداد سكان العالم اليوم يقارب سبعة مليارات نسمة، وأنه سيصل عدد سكان المعمورة قرابة تسعة مليارات في العام ٢٠٥٠م، بما يطرح معضلات عالمية، في مقدمتها عدم وفاء الغذاء المتاح وطلبات الشعوب، وانطلاق المجاعات التي لن يفلت منها مجتمع من مجتمعات الأرض، وسيزداد الفقراء فقرا... والبقية تأتي.

نعلم أن «البروتين» هو عنصر الغذاء الرئيس الذي يحتاجه الجنس البشري، ويتحصل عليه من اللحوم البرية أو الداجنة، أو الأسماك والأحياء المائية.

وكثيرة هي الأدبيات العلمية التي تتناول الأبعاد الاقتصادية والبيئية لأنواع اللحوم والأسماك في قائمة الغذاء العالمي، وتتسع دراسات وبحوث علماء التغذية بما يوفر قواعد بيانات تتناول معظم ما يتصل بالأحياء البرية والمائية في قائمة الغذاء المبني على الثروة الحيوانية، بمفهومها الشامل.

في عصر تتزايد فيه الحاجة إلى الطعام نلمح بحوثا مصدرها هيئات علمية مرموقة، تؤيد إدخال الحشرات إلى سلة الغذاء العالمي، من منطلق سد العجز الغذائي، وأن في الحشرات بديلا يسهم بشكل مؤثر في حل مشكلة نقص البروتين الناشئ عن عدم كفاية المصادر الأحيائية البرية والبحرية المتاحة حاليا ومستقبلا. وبأسانيد علمية موثقة زين خبراء التغذية تعاطي البشر للحشرات على إطلاقها، وتبارت الدراسات والتقارير في دعم فرضية الاعتماد على الحشرات لغذاء البشر دون ضرر، بل وتسليط الضوء على فوائد التغذية بالحشرات.

وهذه الدراسة ستحاول استقصاء موقف الشريعة من تعاطي الحشرات في ضوء الكتاب والسنة وما استقر عليه الفقهاء، هذا في جانب. ومن جانب آخر تسليط الضوء على مستجدات علمية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون نتائجها بعيدة عن دائرة الاجتهاد الإسلامي المعاصر، ليدلو هو الآخر بدلوه في بعض المسائل الشائكة الناجمة عن كشوف العلم الحديث.

وقبل تناول الجانب الشرعي من الدراسة، يحسن بنا أن نعرض لأهم وأحدث التقارير الوثيقة التي

صدرت في شأن التغذية بالحشرات، بما في ذلك الأبعاد الاقتصادية والبيئية ذات الصلة.

فقد نشر تقرير في العام ٢٠١٤م، بعنوان «حشرات مغذية» في مجلة ناشيونال جيوجرافيك. جاء فيه: التهام الحشرات أمر شائع في العديد من البلدان المدارية، حيث تشكل بديلا مناسبا للحوم، فالخنافس والصراصير على سبيل المثال تحتوي مواد مغذية، وتوفر البروتين بثمن منخفض.. وقد ابتدع خبراء الطهي أساليب لضمان عدم تقزز الناس من بعض الأصناف؛ من خلال معالجة الحشرات، بحيث تأتي على شاكلة مسحوق أو صلصة.. وهذا ما اتبع في حشرات البق. وبذلك أمكن توفير أكياس دقيق البق، وهي مزيج مكون من دقيق القمح والحشرات الزاحفة. والحشرات على قائمة طعام ٢ مليار إنسان، أي يتناولها أكثر من ربع سكان العالم، ويبلغ عدد الأجناس القابلة للأكل ٢٠٠٠ تقريبا، وتعد الخنافس أكثر الأجناس شيوعا في الاستهلاك، فهي تمثل ٣١ ٪ من جملة الحشرات المطلوبة، يليها اليرقات بنسبة ١٨٪، والنمل والنحل والدبابير بنسبة ١٥٪، والصراصير والجنادب والجراد بنسبة ١٣٪، أما الأنواع الأخرى مثل اليعاسيب والذباب والنمل الأبيض فتمثل ٢٣٪.

والحشرات مصدر فعال للبروتين، فالحشرات القابلة للأكل توفر بديلا مستداما للحوم، فهي مصدر غذائي صحي، يحتوي على نسبة مرتفعة من البروتين والدهون، لكن تختلف قيمتها الغذائية حسب أجناسها.. والصراصير أكثر كفاءة ١٢ مرة من الماشية، وحول قيمتها الغذائية، نسبة البروتين والدهون الموجودة في الصراصير مماثلة لتلك الموجودة في معظم أنواع اللحوم.

والحشرات في البعد الاقتصادي، معظمها يتم تربيته لاستخدامه علفا اللحيوان، ولكن هناك خطط لتربية الحشرات على نطاق واسع للاستهلاك الآدمي. وتبدو أهمية الحشرات في معالجة النفايات وتدويرها، فبعض الحشرات مثل الذباب وسوس الدقيق يمكنها تحويل نفاية عضوية منخفضة القيمة إلى بروتين عالي القيمة. وتمثل الحشرات مصدرا رخيصا للبروتين مقارنة مع غيرها. كما أن تكلفة تربيتها تنافسية، ولاسيما باستخدام التقنيات الآلية الأكثر كفاءة في التشغيل. والحشرات من أجود مواد صناعة الأعلاف العالمية، وإلى جوار أنها طعام، فإنها مصدر لمنتجات دوائية، وملونات، وإضافة نكهات على المشروبات المتنوعة.

بيئيا؛ تربية الحشرات للغذاء وغير ذلك لا يحتاج مساحات شاسعة بالمقارنة مع الحيوانات الداجنة الأخرى، كما أنها تصدر كميات أقل من انبعاثات غازات الدفيئة.

غني عن القول أخيرا، أن الحشرات هي طعام فاخر في دولة مثل أوغندا، حيث يزيد سعر الكيلوجرام الواحد من حشرة الجندب مثيله من اللحم بنسبة ٤٠٪، وفي الصين واليابان تتربع الحشرات على قمة قوائم طعام كافة الطبقات الاجتماعية.

حكم الغذاء بالحشرات في الشريعة

تضم قائمة الغذاء الشرعي كل طعام من مصادره الطبيعية في أرض الله، تصديقا لذكره الحكيم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٢). وقوله سبحانه ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ (النحل:١١٤).

ومن أهم المصادر الطبيعية في الطعام، المخلوقات الأحيائية، تلك التي نص الخالق عزوجل على أشكالها بشكل إجمالي، في قوله عزوجل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (النور:٤٥).

وقوله عزوجل ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾ (الأنعام:٣٨).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ (النحل:١٤).

إذن.. واستنادا للنصوص السابقة يدخل قائمة طعام البشر الأحياء الأرضية برية أو داجنة، وكذلك نظيرتها الطائرة والبحرية. والعلم المعاصر بكشوفه وبحوثه وتقنياته المتقدمة يسلط الضوء كل لحظة على مستجدات أحيائية، من الأحياء العملاقة الكبيرة إلى الكائنات الدقيقة. والشريعة لم تجز بصفة مطلقة تعاطي جميع تلك الأحياء، بصرف النظر عن التقسيم المتعارف عليه في العلوم التجريبية بين «الثدييات»و«القوارض»و«البرمائيات» و«الكائنات البحرية والأسماك» و«الحشرات» و«الكائنات الدقيقة كالجراثيم والبكتريا وغيرها»، ذلك أن مثل تلك التعاريف والتصنيفات هي من إنتاج العلم الحديث، وبالتالي لم تكن معروفة زمن الدعوة، كما أن

العلم التجريبي كشف عن أنواع جديدة تزخر المصادر التخصصية ببيان أوصافها وأشكالها التي لا تقع تحت حصر، وهذا بالقطع يفتح باب الاجتهاد لحل المعضلات الناشئة عن الاكتشافات المستجدة. والأصل في شرعتنا إباحة تعاطي المخلوقات الأحيائية؛ لا يخرج منها إلا ما ورد فيه نص تحريم، وهذا ما اتفقت عليه جميع المصادر الشرعية.

ما يخرج عن قائمة غذائنا

ينص المولى سبحانه وتعالى على استثناءات من الأصل العام في الإباحة، ومن ذلك ما ورد على نحو واضح في محكم التنزيل، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة:١٧٢-١٧٣). وقوله عزوجل ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (المائدة:٣).

جاء في تفسير ابن كثير «يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى وأن يشكروه تعالى على ذلك؛ إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء بالحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين» (ورواه مسلم في صحيحه).

ذكر ابن كثير أيضا: يخبر تعالى عباده خبرا متضمنا النهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة، وهي ما مات من الحيوان حتف أنفه، من غير ذكاة ولا اصطياد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة، لما فيها من الدم المحتقن، فهي ضارة للدين والدنيا، ولهذا حرمها الله عزوجل. ويستثنى من الميتة السمك، فإنه حلال، سواء مات بتذكية أو غيرها، لما رواه مالك في موطئه والشافعي وأحمد في مسنديهما وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر فقال: «هو الطهور ماؤه والحل ميتته».

وفي التفسير كذلك: روى الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني حديث ابن عمر مرفوعا: «أحل لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال».

والمستفاد أيضا من سنة نبينا المصطفى ﷺ استبعاد أكل أنواع معينة من مملكة الحيوان، قال

ﷺ: «خمس فواسق يقتلن في الحرم: الفأرة والعقرب والحديا والغراب والكلب العقور» (رواه البخاري) وفي رواية الإمام مسلم قال ﷺ: «خمس من الدواب من قتلهن وهو محرم فلا جناح عليه: العقرب والفأرة والكلب العقور والغراب والحدأة».

روى الإمام أحمد فيما أورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، قول المصطفى ﷺ: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم، الحية، والغراب الأبقع، والفأرة والكلب العقور والحدأ».

وحرم علماء الشريعة من المخلوقات الأحيائية، كل ما لم تجري تذكيته، ويتوقع الضرر في أكله، وفي المصادر أمثلة لهذه الأحياء، كما جاء بالمحلى وحاشية العدوي والمهذب: الحيات والعقارب والفأر والخنافس والعظاء والصراصير والعناكب والوزغ وسام أبرص والجعلان والديدان وبنات وردان وحمار قبان، لقوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ (الأعراف:١٥٧) وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء.

الملاحظ أن نصوص فقهائنا الأولين تضمنت مخلوقات أحيائية متنوعة، تضم الحيوان الثديي إلى جوار الطير والقشريات والقوارض والزواحف، بجانب الحشرات في المفاهيم العلمية المعاصرة. والواضح - من خلال حصر الأنواع التي تطرقوا إليها - هو تحريم الأنواع التي يصدق عليها وصف الخبائث.

لكن يبقى سؤال: ما حكم ما يسميه العلم المعاصر «حشرة» في حين أن بنيتها البيولوجية - كما في بعض الأنواع - مخصوصة بدورة دموية، مثل بعض أنواع السحالي وغيرها، صغير أو ضخم، زاحف أو قافز، قاطن الصحاري أو الجبال أو الكهوف البرية أو البحرية، أو معتمر الغابات، والقائمة تطول العديد من قوارض الأرض والبرمائيات والزواحف الأخرى، ومنها ما لا يزيد على حجم إصبع اليد، ومنها العماليق.

يمثل اختصاص بعض الحشرات بالدورة الدموية وكونها لها رقبة وصدر تحديا أمام الاجتهاد الإسلامي المعاصر، ولاسيما مع كشوف العلم الحديث، الذي يتحفنا بعديد من أنواع يجتمع فيها خصائص الحيوان والقوارض أو البرمائيات، أو في المقابل خصائص الطير والحيوان والحشرات، وعلى سبيل المثال: الخفافيش (وهي من الثدييات الطائرة، المجتمع في بنيتها وسلوكها خصائص الحيوان البري والطير والحشرات.. وقل ما شئت في هذا المخلوق العجيب الدال على قدرة الخالق عزوجل)، وغيرها مما هو موثق في المجامع العلمية المتخصصة. فالأمر يحتاج إلى فتوى جامعة يوضح فيها -على نحو جازم- المخلوقات الأحيائية المحرم تعاطيها، وتفصيل القول البات في الحشرات، مأخوذا في الاعتبار التقسيم العلمي الحديث بين أفراد مملكة الحيوان، والتي تضم: الحيوان بمفهومه التقليدي، والقوارض والبرمائيات والطيور والزواحف (فمنها ما يطلق عليه حيوان، وآخر يسمى قارضا، وغيره يعرف حشرة، بل إن هناك ما اختلف في إلحاقه بأي نوع من الأنواع الأخرى).

إن الفتوى مطلوبة لمعالجة المستجدات العلمية، حتى لا تأخذنا رياح العولمة الغذائية، إذا صح هذا التعبير.

التدبير المالي من مقاصد الأسرة

د. حميد مسرار
كاتب دراسات إسلامية

يعد المال من الضروريات التي لا تستقيم مصالح الدنيا إلا بها، فهو من حاجيات عمارة الأرض والاستخلاف، وهو عصب الحياة وزينة الدنيا، بل هو قوام الحضارات

وأصل قيامها، يقول تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (الكهف:٤٦). وتتجلى أهمية المال في تسمية الحق سبحانه له بالقيام

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ (النساء:٥). يقول الإمام الرازي: معناه أنه لا يحصل قيامكم ولا معاشكم إلا بهذا المال، فلما كان المال سببا للقيام والاستقلال سماه بالقيام؛ إطلاقا لاسم المسبب على السبب على سبيل المبالغة، يعني: كان هذا المال نفس قيامكم وابتغاء معاشكم (١).

ويبين الشاطبي دور المال في حياة الإنسان بقوله: ولو عدم المال لم يبق عيش، وأعني بالمال ما يقع عليه الملك، واستبد به المالك عن غيره، إذا أخذه من وجهه، ويستوي في ذلك الطعام والشراب واللباس على اختلافها، وما يؤدي إليها من جميع المتمولات، فلو ارتفع ذلك لم يكن بقاء (٢). فالمال مقصد من مقاصد الشرع الضرورية، يسد به الفرد حاجته؛ عزة لنفسه وحفظا لمروءته، لقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الفقر، وأعوذ بك من القلة والذلة، وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم» (صحيح البخاري). ويحفظ دينه ومقومات عيشه، وتحقق الجماعة هدفها بعمارة الأرض،

والجهاد في سبيله، لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال:٦٠). يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: إن من جهات توازن الأمم في السلطان على هذا العالم جهة الثروة، فبنسبة

ثروة الأمة على ثروة معاصريها من الأمم، تعد الأمة في درجة مناسبة لتلك النسبة في قوتها وحفظ كيانها، وتسديد مآربها، وغناها عن الضراعة إلى غيرها (٣).

ونظرا لأهمية المال في حياة الفرد والجماعة فلاشك أن التربية على المنهج الإسلامي في تدبيره من داخل الأسرة مدخل أساس لبناء منهج اقتصادي، يؤول حتما إلى بناء تنموي، يعتبر ثمرة من ثمرات الإسلام الحضارية، لذلك لابد من بيان موقع التدبير المالي من المقاصد الأسرية الأخرى؛ لمعرفة أهميته ودوره في بناء الأسرة، إذ أي خلل يعتريه يعود بالضرر على الفرد والأسرة والمجتمع، ومن ثم نسأل عن دور التدبير المالي في الحفاظ على بقية المقاصد الأخرى؟

التدبير المالي الأسري

شدد الإسلام في بنائه الأسري على مقصد التدين في جميع أحكامه وتشريعاته، واعتبره أساسا رئيسا لإنشاء الأسرة، بل الغاية العظمى من إنشائها، لذلك نظم جميع أطوار تأسيس الأسرة بأحكام شرعية تؤكد ضرورة حفظ التدين، فدعا إلى اختيار الزوجين على أساس الدين، فقال ﷺ: «فاظفر بذات الدين تربت يداك» (صحيح مسلم)، وقال ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه؛ إلا تفعلوا تكن فتنة وفساد عظيم» (سنن الترمذي).

ونظم العلاقات الأسرية تنظيما محكما ينطلق من أحكام الشرع ويؤول إليها، فنظم علاقات الأزواج فيما بينهم، وعلاقات الآباء بالأبناء والأبناء بالآباء، ولم يغفل عن علاقات الرحم والقرابة. إنه تنظيم ينطلق من مصادر الشرع ويرتجي غاياته؛ تحقيقا لمفهوم العبودية، لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦). فالتدين ضامن للاستقرار الأسري، وحافظ له من كل ما يشوبه من عقبات وإشكالات، ذلك بأن المنهج التديني يجعل الأفراد يستسلمون للأحكام، استسلاما مؤسسا على العلم، نابعا من الرضا والحب، راجين الثواب والجزاء الأخروي.

وحضوره يجعل من الأدوار الملقاة على الأفراد أعمالا قاصدة مرتبطة بعالم الملكوت، فتنتفي بذلك المصالح الفردية المحضة، لترتبط بالمصالح الأخروية كذلك. وتأسيسا على ذلك فقد اعتبر الشرع التدبير المالي الأسري مظهرا من مظاهر التدين، يتجلى ذلك في ربط أحكامه ببعدها الأخروي، حيث رتب الثواب على الملتزم بها والعقاب على كل من أنكرها وكفر بها، بل اعتبر الالتزام بأحكام الشرع دليلا على حصول الإيمان وبلوغ درجة التقوى، وعد الإخلال بها سقوطا في مهاوي الآثام وبراثن الشيطان، قال ﷺ: «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت» (سنن النسائي). وقال ﷺ: «إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف» (صحيح البخاري). وخلاصة القول، فمآل التدبير المالي الأسري هو حفظ التدين داخل الأسرة، بل إن التدين هو عنوان التدبير المالي الرشيد.

التدبير المالي ومقصد التزكية

التزكية لغة من زكا يزكو زكاء، وتزكى تزكية، ويستعمل جذر الكلمة ويراد به في اللغة معان عدة، منها: الزيادة والنماء، التطهير والصلاح، والزوج والشفع، أما في القرآن فيراد به معان، منها: الإيمان والطهارة من الكفر، والتربية والتطهير وغيرها، وقد بين الشاطبي مكانة التزكية حينما أكد أنها مناط إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا (٤). ومقتضى هذا الإخراج يكون بالتزكية التي تمر عبر تخلية النفس من رذائلها وأدناسها، وتحليتها بمكارم الأخلاق وفضائلها. ولما كانت التزكية مقصدا من مقاصد الشريعة العالية فقد كانت عنوان الأسرة المسلمة، باعتبارها محضن الأخلاق والتربية، ذلك بأن نظام الأسرة في الإسلام هو نظام قيمي بامتياز، يكرس إلى جانب الحق البعد الأخلاقي الذي يجعل من الأسرة أسرة مكارمة لا مشاحة..

إن اهتمام الشارع بالباعث النفسي والمبادئ الخلقية والمثل العليا، هدفه تطهير الباعث كي لا يحرك الإرادة إلى تحقيق غايات غير مشروعة تناقض مقاصد الشارع. وتأسيسا على ذلك، فالتدبير المالي القائم على الأسس والثوابت الإسلامية من تلبية لحاجات الأسرة والإيثار والتعاون والتكافل والإنفاق في سبيل الله- هو عنوان الأخلاق الإسلامية التي تحفظ كرامة الإنسان وتربطه بمجتمعه، ذلك بأن الإسلام لم ينظر للتدبير المالي نظرة قاصرة على حاجات الذات والأسرة الصغيرة فقط، بل ربط منظومة التدبير بكل ما يعود على الأسرة الصغيرة والممتدة بالخير، ولاشك أن ذلك أدعى للتحلي بالأخلاق الفاضلة.

إن استحضار البعد الأخلاقي أثناء التدبير المالي يجعل الإنسان ينأى عن كل فعل يسيء إلى الأسرة، فلا تبذير للمال ولا تقتير، بل هو وسطية واعتدال، ولا حرص على المال وطلبه بشتى الوسائل والطرق، بل هو العمل الشريف المنتج الذي يساهم في بناء المجتمع وتحقيق التنمية، ولا تمركز حول الذات وحاجاتها فقط، بل هو تفكير في

الآخرين ومساعدتهم وإعانتهم. إنها الأخلاق الإسلامية، والتي لا محالة هي حل لكثير من الإشكالات الأسرية، كالإهمال الأسري والطلاق بسبب عدم الإنفاق والعنف، وعليه؛ فحضورها والالتزام بها سبيل لسمو الأسر ة وتحقيق مقاصدها.

مقصد السكن والمودة والرحمة

اعتبر الإمام الشاطبي هذا المقصد من المقاصد التبعية للنكاح، إذ النكاح عنده مشروع للتناسل بالقصد الأول، ويليه طلب السكن والازدواج، ومستجلب لتوالي التراحم والتواصل والتعاطف (٥).

وهذا المقصد منصوص عليه في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم:٢١). إن السكن والمودة والرحمة أمور رئيسة في بناء الأسرة المسلمة، ومن هنا وجب السؤال عن حقيقة كل منها؟

أ- السكن:

السكن قيمة معنوية، جعلها الله عزوجل أساس قيام الأسر واستقرارها، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ (الروم:٢١)، هذه القيمة لن تتحقق إلا إذا توافرت شروط وجودها والأحكام المفضية إليها، كحق المعاشرة، واختصاص الرجل بالمرأة، والمساكنة الشرعية. إن ما يميز عقد الزواج عن باقي العقود الأخرى هو توفر السكن النفسي لدى الأزواج والأبناء والوالدين، وهذا ما أكده الشيخ محمود شلتوت بقوله: «إن العلاقة الزوجية أسمى من معنى الترابط والاندماج من علاقات الصداقة والأبوة والبنوة، وإنها ليست كما يظن من لا يفهمون حقيقتها ولا يعرفون وضعها في الحياة عقدا كسائر العقود، ثمراتها في الانتفاع والملك والتسخير» (٦).

ب- المودة:

لقد راعى الإسلام المودة في الأسرة، فخص لها من الأحكام ما يقويها ويحفظ ذكرها، بدءا بأحكام الخطبة وانتهاء بأحكام الطلاق والعدة، فدعا رسول الله ﷺ كل خاطب لرؤية مخطوبته، فقال عليه الصلاة والسلام: «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» (سنن الدارقطني).

وحبب تزويج المتحابين، فقال ﷺ: «لم ير للمتحابين إلا النكاح» (سنن ابن ماجه). وجاءت نصوص الشرع تؤكد ضرورة المعاشرة بالمعروف، سواء أثناء قيام الحياة الزوجية أو حتى بعد انفصام عراها، قال تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ (البقرة:٢٢٩)، ووجه الدلالة أن شأن الطلاق أن تكون كل مرة منه معقبة بإرجاع بمعروف أوترك بإحسان، أي دون ضرار في كلتا الحالتين (٧).

فالمودة روح تجمع بين أفراد الأسرة، تجعل كل واحد منهم يتودد للآخر بقدر ما يقدمه له من خدمة أو إعانة أو مساندة في أوقات الرخاء أو الشدة.. إن حصول المودة مآله إلى بناء أسرة متجانسة نفسيا واقتصاديا واجتماعيا، ليحصل الدفء الأسري المنشود، واللحمة الأسرية المبتغاة، فيعيش أفراد الأسرة في أمن وأمان ومحبة ووئام.

ج- الرحمة:

صفة تبعث على حسن المعاملة (٨) وخلق رفيع يجعل كلًا من الزوجين يخشى ربه، ويراعي ما عليه من حقوق تجاه زوجه.

فالرحمة عنصر من أهم عناصر العشرة بين الزوجين، وهي تبقى في حالات الرخاء والشدة، وتكون أكثر وضوحا في حالات الشدة (٩).

يقول الأستاذ عبدالحليم أبوشقة: أما إذا فتر الحب فلابد من الأصل الثاني الذي تقوم عليه الأسرة، وهو الرحمة، وهنا يتأكد البحث في الحقوق حتى لا تضيع (١٠).

لقد حرص الإسلام على إنشاء علاقات أسرية متينة، فأسسها على أساس التراحم، واعتبره أساسا يقوم على رقة تقتضي الإحسان للمرحوم والعطف عليه والحنو، بل تقتضي إرادة المنفعة للغير، وإعمار القلب بحب الخير، والنفع والبذل والعطاء للآخرين (١١). وتأسيسا على ما سبق، فالالتزام بالتدبير المالي الأسري القائم على الكسب الطيب، والإنفاق المعتدل، والادخار والاستثمار والتكافل، مآله إلى السكن والمودة والرحمة، بل هو رمز هاته المقاصد كلها، ذلك بأن حرص المسلم على تنمية موارده المالية بالكسب الحلال يورث استحضار التدين الذي يؤول حتما إلى سكن نفسي، يشعر به جميع أفراد الأسرة، فيحصل ذلك الترابط المنشود، وتلك اللحمة المبتغاة، كما أن حصول المودة والرحمة مرتبط حتما بالإنفاق المعتدل والادخار المتوازن، والاستثمار القاصد، والتكافل الهادف، والذي يعبر عن مدى ارتباط الأفراد فيما بينهم، وعلى مدى تمسكهم بتنمية مجتمعهم. إن التدبير المالي الأسري القائم على الوسطية التي تراعي ضرورات الإنسان وحاجاته الفردية والاجتماعية، يفضي إلى تحقيق

تلك المقاصد، وعليه فكل خلل قد يعتريه هو عائق نحو تحقيق مقصد السكن والمودة والرحمة.

الجانب المؤسسي للأسرة

لم يترك الإسلام الأسرة دون تنظيم مؤسسي يراعي علاقات الأفراد فيما بينهم، وينظر إلى كيفية تنظيم علاقاتهم، شأنهم في ذلك شأن كل مؤسسة ناجحة، تحتاج لحكمة ثاقبة، وعليه، فقد أطر علاقات أفراد الأسرة بمنظومة الحقوق والواجبات، فمنح الحق الأسري على أساس مصلحة الأسرة، لا على أساس مصالح الأفراد، كما جعل الحقوق متقابلة، فكل حق يقابله واجب، ليجعل الفرد يعطي بقدر ما يأخذ. وإذا كانت منظومة الحقوق شاملة لجميع الحقوق التي يحتاجها الإنسان ليعيش حياة سعيدة- فلاشك أن التدبير المالي الرشيد عنوان للتدبير المؤسسي، فهو تنظيم قائم على القوامة التي تجعل الزوج مسؤولا عن جميع أعباء الأسرة المالية، وعلى الحافظية التي تجعل المرأة مسؤولة عن تدبير تلك الموارد المحصلة، من غير إسراف ولا تبذير، لذلك فمسؤولية التدبير المالي ملقاة على كلا طرفي الأسرة، سواء أكان بحثا عن الموارد، أو صرفا معتدلا في وجوه الخير، وهي صورة عبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها» (رواه البخاري في الأدب المفرد). وعليه فإن قيام كل فرد بمسؤولياته المالية؛ بحثا وإنفاقا وحفظا- سبيل استقرار الأسرة، بل منطلق لمساهمة الأسرة في التنمية.

وخلاصة القول، فلا خلاف في أهمية التدبير المالي لحفظ بقية المقاصد، بل إن تحقيق بقية المقاصد قد يحصل بالالتزام بالمنهج الإسلامي في تدبير المال الأسري، من هنا قد نفهم سبب كثرة الطلاق في العالم العربي، والتي قد يعزوها كثير من الباحثين إلى المشاكل المادية داخل الأسرة، بل عده الكثير السبب الأول للطلاق، وعليه فالتدبير المالي الرشيد القائم على البحث عن الموارد المالية بالطرق المشروعة والإنفاق الوسطي والادخار المستقبلي والاستثمار- كفيل بتجنيب الأسرة الاستهلاك الترفي في زمن أصبح فيه كثرة الاستهلاك عنوان التحضر والتمدن، وترشيده دليل التخلف وعدم الانخراط في زمن الحداثة والعولمة.

لذا أعتقد أن توعية الأمة بالمنهج الإسلامي في تدبير المال الأسري هو بداية لانخراط الأسر في تحقيق مقاصد الأسرة.

الهوامش

(١) التفسير الكبير ١٤٣/٣.
(٢) الموافقات ١٧/٢.
(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور ص ٣٤٣.
(٤) الموافقات، الشاطبي، ١٦٨/٢.
(٥) الموافقات، الشاطبي، ص ١٠١/٢.
(٦) الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت، ص ١٤٧، دار القلم، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦م.
(٧) التحرير والتنوير، ٣٣٤/٢.
(٨) التحرير والتنوير، ٧٢/١٠.
(٩) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، يوسف حامد العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م، ص ٤١٣.
(١٠) تحرير المرأة في عصر الرسالة، عبدالحليم أبوشقة، ٥/١٦٣، دار القلم، الكويت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
(١١) التراحم بين الناس في السنة النبوية، عبداللطيف الجيلاني، ص ١٧.

أثر عوائد العرب في تفسير آي القرآن وقفة نقدية

لخضر بن عبد القادر بوغفور
دكتوراه في أصول الفقه

ربما ينقدح في ذهن بعض أهل الشريعة أن ربط أحكام الشارع بقواعدها الكلية وسياقاتها التاريخية غاية سهلة المنال، إذا وقف على بعض المسلمات الجلية والتقريرات البديعة المرقومة في هذا الشأن، ومن ثم يعجل في توظيفها والتخريج عليها.

وما إن يتأنى وينظر فيما رقمه أهل التحقيق فيما له صلة بالموضوع تأصيلا وتخريجا، فيسبر هذا المهيع الجليل على حقيقته، وينظر في دقائقه، ويلمح مزالقه، ويقف على بعض فروعه المغلوطة؛ حتى يدرك أن الأمر ليس كما توهم؛ قال الصنعاني في سياق حديثه عن علم أصول الفقه: «لعظم قدره؛ الهفوة فيه أشد من غيره، ومتعلمه يخاف عليه الزلل، ويخشى أن يميل مع الهوى فيقع في شرك الخطأ، فأول حوائج طالبه: إصلاح النية، إذ هي الأصل الأجل، ولا يميل إلى جهة حتى يصل إلى حقائقها وينظر مزالقها» (١).

وقاعدة الاعتبار بالمعهود عند العرب من جملة المسالك الاستدلالية الدقيقة التي اعتراها ما اعتراها من الخطأ والزلل، على غرار ما حصل مع نظائرها، وخصوصا لما يتعلق الشأن بملاحظة القاعدة في طريق الوصول إلى مراد الشارع الحكيم، وتأويل الوحي على ضوئه، قال ابن عاشور: «على الباحث في مقاصد الشريعة أن يطيل التأمل، ويجيد التثبت في إثبات مقصد شرعي، وإياه والتساهل والتسرع في ذلك، لأن تعيين مقصد شرعي -كلي أو جزئي- أمر تتفرع عنه أدلة وأحكام كثيرة في الاستنباط، ففي الخطأ فيه خطر عظيم»، فكان حريا بنا -طلبا للحق، ونقدا للذات، وإقامة للعدل، وتجنبا للخطأ ما أمكن- عرض هذه القاعدة من الزاوية النقدية على حد مقولة: «لولا الخطأ ما أشرق نور الصواب» (٢).

المطلب الأول: حدود علاقة عوائد العرب وقت التنزيل بالوقوف على مراد الله عزوجل من الآية.

لاريب أن الوقوف على مراد الله عزوجل من أجل المطالب وأسمى الغايات التي يسعى إليها كل موفق مسدد، وثمت عدة وسائل مساعدة على بلوغ هذا الشأو بحثها أهل العلم وسردوا تفاصيلها عند حديثهم عن شروط المفسر، أو شروط الاجتهاد والفتيا، ومن أبرز ما ذكروه منها، واستفاض عنهم هو معرفة المجتهد بلسان العرب وطرائقهم في الكلام والبيان.

وتبقى هناك معرفة أخرى متحدة التعلق مختلفة المحل، ربما دقت وخفيت ملاحظتها، وهي اعتبار المجتهد بأحوال العرب وعاداتهم وقت التشريع، ليسترشد بها الناظر في إدراكه المراد من الآية على وجه التحديد. قال الشاطبي في سياق حديثه عن أهمية معرفة أسباب التنزيل لمن أراد علم القرآن: «من ذلك معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل، وإن لم يكن ثم سبب خاص لابد لمن أراد الخوض في علم القرآن منه، وإلا وقع في الشبه والإشكالات التي يتعذر الخروج منها إلا بهذه المعرفة» (٣).

ولكن يتعين على العالم المعتبر بهذه القاعدة في تأويل آي الكتاب أن يستمسك بجملة من الحدود العاصمة من توظيفها توظيفا مغلوطا، على غرار غيرها من القواعد، ومن أهمها ما يلي:

أولها: إجلال مقام الاعتبار بهذه القاعدة وقت معالجة الآيات على ضوئها.

اشتهر ورع السلف عن الفتيا وتدافعهم، حتى قال عطاء بن

السائب: «أدركت أقواما إن كان أحدهم ليسأل عن الشيء، فيتكلم وإنه ليرعد!» (٤). وأولى النظار بهذا الورع من يروم تقحم هذه المضايق التي قد تفضي إلى صرف الآيات عن ظواهرها الجلية.

ولا يتصور هذا الورع إلا مع افتقار الناظر إلى ربه عز وجل في بلوغ التأويل الصحيح للآية.

ثانيها: تعظيم أصول الشريعة المعصومة والوقوف عند حدها.

قال الشاطبي: «لا يصح الخروج عما حد في الشريعة، ولا تطلب ما وراء هذه الغاية؛ فإنها مظنة الضلال، ومزلة الأقدام» (٥).

وبناء عليه، فاعتبار الناظر بهذه القاعدة أو بغيرها من قواعد، يقاس بأصول الشريعة، وليس العكس، فما يقرره لا يكون مسلما قاضيا على غيره مهما علا كعب صاحبه، أو برع في تحريره، حتى يعرضه على ما جلته تلك الأصول المعصومة «عرض الدرهم المجهول على أخبر الناقدين، فما حكمت بصحته فهو منها المقبول، وما حكمت برده فهو المردود» (٦).

قال ابن دقيق العيد: «ليس لنا أن نتصرف في النصوص المتظاهرة المتضافرة بمعنى خيالي يمكن أن يكون هو المراد، مع اقتضاء اللفظ التعليل بغيره» (٧).

ثالثها: بذل الجهد في جمع كل النصوص الواردة في المسألة مع دلالاتها الظاهرة والدقيقة.

ينبغي لمن يعتبر بمعهود العرب ألا يعجل بالخروج عن ظاهر الآية حتى يستفرغ جهده في جمع النصوص الشرعية الأخرى التي وردت في المسألة، ومن ثم يغوص في دلالات ألفاظها. قال ابن تيمية: «إذا أقاموا -يعني العلماء- كتاب الله، وفقهوا ما فيه من البينات التي هي حجج الله، وما فيه من الهدى، الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، وأقاموا حكمة الله التي بعث بها رسوله ﷺ -وهي سنته-؛ لوجدوا فيها من أنواع العلوم النافعة ما يحيط بعلم عامة الناس، ولميزوا حينئذ بين المحق والمبطل من جميع الخلق، بوصف الشهادة التي جعلها الله لهذه الأمة، حيث يقول عزوجل: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣). ولاستغنوا بذلك عما ابتدعه المبتدعون من الحجج الفاسدة التي يزعم الكلاميون أنهم ينصرون بها أصل الدين، وما كان من الحجج صحيحا ومن الرأي سديدا، فذلك له أصل في كتاب الله وسنة رسوله، فهمه من فهمه، وحرمه من حرمه» (٨)، وهكذا الشأن في قاعدتنا، إنما الاعتبار فيها بميزان الشريعة.

رابعها: الرجوع إلى ما فهمه سلف الأمة من الآية، وعلى رأسهم صحابة النبي ﷺ.

قال ابن رجب في بيان العلم النافع للخلق، هو: «ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث» (٩).

وإذا أجمعت الأمة على حمل الآية على معنى ما؛ فالواجب المتعين خضوع من يأتي بعدها إلى مضمون هذا الإجماع، كما سبق التنبيه إليه في الحد الثالث، ولكن ماذا لو عدم إجماع في هذا المحل، وكانت ثمت آثار هادية؟

إن حصل بين هذه الآثار تعارض؛ رجح الناظر بينها على وفق الجادة المعروفة في باب التعارض والترجيح، وأما لو اتفقت هذه الآثار فإعمالها في ميزان الشرع والعقل أولى من إهمالها، بالنظر إلى شهود الصحابة لمواقع التنزيل وسماعهم لكلام النبي ﷺ، ومن ثم فهموا مرادات تشريعاته، وأضحوا أخبر الناس بها والقدوة في مراعاتها (١٠)، «كما أن جلساء الطبيب يعرفون مقاصد الأدوية التي يأمر بها بطول المخالطة والممارسة» (١١).

وهكذا الشأن فيمن نهل من معينهم واقتفى أثرهم سيكون السداد أقرب إليه من غيره، وإن كان دون السابق.

ومن ثم تعين على من يتحرى استقامة اعتباره بمعهود العرب أن يتقيد بهدي من مضى في تأويل الآي، ولهذا كان من وصية عمر بن عبدالعزيز لرجل كتب إليه يسأله عن القدر: «ارض لنفسك بما رضي به القوم لأنفسهم؛ فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ قد كفوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى» (١٢)، وهذا الشافعي -الذي أثنى عليه العلماء قديما وحديثا ثناء فائقا في نفوذ نظره وعمق فقهه- قد قال عن رأي الصحابة: «رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا» (١٣).

فإن وافق اعتباره رأيهم، وتواطأت الأدلة على مطلوب واحد واشتد ساقها؛ فالحمد لله، وإن شذت نتيجة اعتباره؛ اتهم حينئذ نظره، واكتفى برأي من سلف وسلم، قال الشاطبي: «يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به؛ فهو أحرى بالصواب، وأقوم في العلم والعمل» (١٤).

خامسها: التحقق من إناطة النص القرآني بعوائد العرب وجودا وعدما.

قرر الشاطبي كما سبق لزوم وقوف من يغوص في دلالات كتاب الله على عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل، وإلا أخطأ الفهم الصحيح، وهو تقرير متين بلاريب، وهو يشير ضمنا إلى لزوم التأكد من حقيقة ما يدعى من عوائد العرب من الناحية التاريخية، ولكن ربما ذهل من يروم توظيفه عن شرط مهم دقيق لا يخفى تأصيله عن العلماء، وربما خفي عن بعضهم في حال التطبيق، ألا وهو التحقق من إناطة النص القرآني بهذه العوائد وجودا وعدما، والتحقق من عدم ارتباطه بمعاني أخرى.

فلربما عجل بعض الناظرين في إعمال هذه القاعدة، فعلق الدلالة القرآنية بحال معينة للعرب، وذهل عن مناطات أخرى، دلت عليها نصوص أخرى من القرآن أو السنة، لا تخضع لتبدل أحوال المخاطبين، وما يأتي لاحقا يجلي هذا المعنى ويبين خطورته.

المطلب الثاني: قوادح الاعتبار بمعهود العرب في فهم مراد الله عزوجل من الآية.

ربما صح الاعتبار بالكلية في طريق الوصول إلى مراد الشارع الحكيم، وربما أخطأ الهدف وعاد عليه بالإبطال، و«كل ما يكر على الأصل بالإبطال فهو باطل» (١٥)، والسبيل إلى معرفة ذلك والتحقق منه مرده إلى أصول علمية في النقد، بينها لنا أهل الأصول والجدل، وذللوها لنا في طريق كشفنا عن الخطأ والزلل، وغالبا ما بحثوها عند كلامهم عن قوادح القياس، وهي واردة في الجملة على أي استدلال أو تفسير، وفيما يلي ما ظهر لي منها مناسبا للمقام، جاريا على وفق خصوصيات القاعدة، وقد اقتصرت على بيان حدها الواضح، وأرجأت التخريج على بعضها في ثنايا المطلب التالي:

القادح الأول: فساد الاعتبار.

وهو مخالفة الاعتبار بمعهود العرب للوحي أو للإجماع.

القادح الثاني: قادح الاعتراض.

وهو الاعتراض بأن ما جعله الناظر معهودا للعرب ليس كذلك.

القادح الثالث: فساد الوضع.

وهو التعليق على معهود العرب ضد ما يقتضيه.

القادح الرابع: النقض.

وهو وجود معهود العرب وعدم الحكم المدعى، ولو في صورة.

القادح الخامس: المعارضة.

وهي معارضة الاعتبار بمعهود العرب بمعنى أقوى منه في الاستدلال.

القادح السادس: المنع.

وهو المنع من إحدى مقدمات الاعتبار بمعهود العرب، وتحته نوعان:

أ- عدم تحقق الاعتبار بمعهود العرب في الفرع.

ب- كون المسألة مما لا يجري فيها الاعتبار بمعهود العرب.

القادح السابع: الفرق.

وهو إبداء الفرق المؤثر بين النظائر التي اعتبر في بعضها بمعهود العرب.

القادح الثامن: القلب

وهو إبداء نقيض حكم المستدل بعين اعتباره بمعهود العرب.

القادح التاسع: القول بالموجب.

وهو نفي دلالة الاعتبار بمعهود العرب على محل النزاع.

المطلب الثالث: تخريجان للقاعدة في الميزان.

التخريج الأول العقدي: قوله عزوجل في سورة النحل: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (النحل:٥٠)، وقوله في سورة الملك: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (الملك:١٦)، وأشباه هذه الآيات التي نصت على فوقية الباري جل في علاه.

توظيف القاعدة في تأويلها

سبق إيراد كلام الشاطبي في التنويه بأهمية قاعدة الاعتبار بمعهود العرب في فهم كلام الله، وكان من جملة ما مثل به عليها هذه الآيات الدالة على صفة علو الباري عزوجل، حيث أولها تأويلا يلغي دلالتها الجلية، جريا على مذهبه العقدي النافي وصف الباري بهذه الصفة (١٦)، حيث قال عن ظاهرها: «إنما جرى على معتادهم في اتخاذ الآلهة في الأرض، وإن كانوا مقرين بإلهية الواحد الحق؛ فجاءت الآيات بتعيين الفوق وتخصيصه تنبيها على نفي ما ادعوه في الأرض؛ فلا يكون فيه دليل على إثبات جهة ألبتة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ (النحل:٢٦)، فتأمله، واجر على هذا المجرى في سائر الآيات والأحاديث» (١٧).

وقد جلى عبدالله دراز وجه استشهاده بآية النحل؛ فقال: «أي: فليست الفوقية لتخصيص الجهة؛ لأن السقف لا يكون إلا فوق، إنما ذلك ذكر للمعهود فيه» (١٨).

التخريج في ميزان النقد (١٩)

«لفظ الجهة لم يرد ذكره في نصوص الوحي، فيتوقف في إطلاقه، ويستفصل في معناه؛ فإن أريد بالجهة أنها شيء موجود مخلوق، فالله ليس داخلا في المخلوقات، وإن أريد بها ما وراء العالم فلاريب أن الله فوق العالم بائن من المخلوقات» (٢٠)، هذا هو الحق الظاهر الذي جلته أدلة الشرع التي نصت على علو الله واستوائه على عرشه، ونزول بعض الأشياء منه وصعودها إليه، وغير ذلك من الدلالات، فضلا عن أدلة العقل الراجح والفطرة السوية وإجماع أهل الملة.

وإنكار علو ذات الله على خلقه قول باطل، دخيل حتى على الأشاعرة، وأصله نابع من الاعتزال، والمسألة أشهر من أن تبسط أدلتها المتكاثرة الجلية، وإنما أشير إشارة إلى بعض أفرادها.

١- قال ابن رشد: «لم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتونها لله سبحانه حتى نفتها المعتزلة، ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية؛ كأبي المعالي ومن اقتدى بقوله، وظواهر الشرع كلها تقتضي إثبات

الجهة، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الحاقة:١٧). ومثل قوله ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ (السجدة:٥)، ومثل قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (المعارج:٤)، ومثل قوله: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ (الملك:١٦)، إلى غير ذلك من الآيات التي إن سلط التأويل عليها عاد الشرع كله مؤولا، وإن قيل فيها إنها من المتشابهات عاد الشرع كله متشابها؛ لأن الشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء، وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين، وأن من السماء نزلت الكتب، وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ حتى قرب من سدرة المنتهى، وجميع الحكماء قد اتفقوا أن الله والملائكة في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك» (٢١).

وبهذا تبين فساد الاعتبار بمعهود العرب في إنكار هذه الصفة الربانية الجليلة.

وهكذا تبين أيضا أن ادعاء الشاطبي بأن الآيات إنما وردت بتعيين الفوقية؛ للتنبيه على نفي ما ادعاه المشركون في الأرض؛ ربما كان يسلم له لولا أنه عورض بمعان هي أقوى من اعتباره في الاستدلال؛ فإن دعواه مبنية على التخمين، والأدلة الأخرى الصريحة من قبيل حديث الجارية تقطع كل احتمال تأويل.

٢- كما يرد على كلامه قادح الاعتراض؛ بأن ما جعله الناظر معهودا للعرب ليس كذلك؛ فإن المشركين قد اشتهر عنهم الإقرار بعلوه وفوقيته عزوجل، ومما ورد عنهم في هذا الشأن من أشعار الجاهليين قول عنترة بن شداد:

يا عبل أين من المنية مهربي
إن كان ربي في السماء قضاها (٢٢).

وقال أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله وهو للمجد أهل
ربنا في السماء أمسى كبيرا (٢٣).

قال عثمان بن سعيد الدارمي: «اتفقت الكلمة من المسلمين والكافرين أن الله في السماء، وحدوه بذلك إلا المريسي الضال وأصحابه» (٢٤).

٣- وأما بالنسبة لآية النحل؛ فلها تأويلات يندفع بها ما ظنه الشاطبي منها، ومن ألطفها ما نقله القرطبي عن ابن الأعرابي أنه قال: «وكد ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته. والعرب تقول: خر علينا سقف، ووقع علينا حائط، إذا كان يملكه، وإن لم يكن وقع عليه، فجاء بقوله: من فوقهم ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب، فقال: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾، أي: عليهم، وقع وكانوا تحته، فهلكوا وما أفلتوا» (٢٥).

وبهذا أمكن قلب استدلال الشاطبي، وإبداء نقيض قوله من خلال الاعتبار بمعهود العرب الحقيقي المتفق مع الدلالة الفصيحة لهذا اللفظ على العلو.

التخريج الثاني الفقهي: قوله عزوجل في سورة النساء: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ۝١١٧ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ (النساء:١١٧-١١٩).

توظيف القاعدة في تأويله

قال ابن عاشور عند تفسير آخر جملة من هذه الآيات: «ليس من تغيير خلق الله التصرف في المخلوقات بما أذن الله فيه، ولا ما يدخل في معنى الحسن؛ فإن الختان من تغيير خلق الله، ولكنه لفوائد صحية، وكذلك حلق الشعر لفائدة دفع بعض الأضرار، وتقليم الأظفار لفائدة تيسير العمل بالأيدي، وكذلك ثقب الآذان للنساء لوضع الأقراط والتزين.

وأما ما ورد في السنة من لعن الواصلات والمتنمصات والمتفلجات للحسن فمما أشكل تأويله. وأحسب تأويله أن الغرض منه النهي عن سمات كانت تعد من سمات العواهر في ذلك العهد، أو من سمات المشركات، وإلا فلو فرضنا هذه منهيا عنها لما بلغ النهي إلى حد لعن فاعلات ذلك. وملاك الأمر أن تغيير خلق الله إنما يكون إثما إذا كان فيه حظ من طاعة الشيطان؛ بأن يجعل علامة لنحلة شيطانية، كما هو سياق الآية واتصال الحديث بها» (٢٦). ويعني هذا أنه في حال خلو كون هذه الخصال سمة على العهر أو الشرك فلا بأس باقترافها.

وتعد هذه القضية المشتركة بين الوحيين من أبرز ما وظف فيه ابن عاشور قاعدة الاعتبار بمعهود العرب، حيث تطرق إليها أيضا في مقاصده مصدرا إياها بقوله: «من معنى حمل القبيلة على عوائدها في التشريع إذا روعي في تلك العوائد شيء يقتضي الإيجاب أو التحريم يتضح لنا دفع حيرة وإشكال عظيم يعرضان للعلماء في فهم كثير من نهي الشريعة عن أشياء لا تجد فيها وجه مفسدة بحال». ثم ذكر النهي النبوي السابق وعلق عليه بنحو مما سبق؛ مسطرا أن تأويله لم ير من أفصح عنه (٢٧).

التخريج في ميزان النقد

لا وجه للتعجب من النهي الغليظ عن هذه المنكرات، ولا لاستبعاد وقوع اللعن على مقترفها مادام قد جنح إلى مخالفة القضاء الشرعي لأحكم الحاكمين عزوجل، ولم ترض بقضائه

الكوني؛ بتغيير ما فطر عليه الناس، ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤١﴾ (الرعد:٤١).

وقد انتحلت المرأة بهذه المخالفة ما يرضي الشيطان؛ قصدت ذلك أم ذهلت عنه، وسواء كانت هذه المنكرات سمة على منكرات أخرى في المرأة أم لا، لأن الله عز وجل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ (النور:٢١)؛ فالنهي محكم عام لا يخصص بعرف التنزيل، وهذا التوظيف خطأ بدليل ما يرد عليه من القوادح التالية:

١- مخالفته لما نطقت به النصوص والآثار، فقد نص الصحابي الجليل ابن مسعود رضي الله عنه على كون حكمة النهي عن النماص والفلج هي تغيير خلق الله، ولاريب أنه أخبر بمناط خطاب النبي ﷺ.

قال أبوالعباس القرطبي عند حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «اختلف في المعنى الذي لأجله نهي عنها. فقيل: لأنها من باب التدليس، وقيل: من باب تغيير خلق الله؛ الذي يحمل الشيطان عليه، ويأمر به» (٢٨)، واعتبر تلميذه أبوعبدالله القرطبي هذا المعنى الأخير المأثور هو الأصح، وأنه متضمن أيضا للمعنى الأول (٢٩)، ودليل الحس يشهد لهذين التعليلين.

وأما وصل الشعر فقد ورد فيه أيضا من طريق صحابي جليل آخر ما يدل على أنه من باب التدليس، ومن عمل اليهود -الذين نهينا عن التشبه بهم-، فقد روى الشيخان عن سعيد بن المسيب قال: قدم معاوية ابن أبي سفيان المدينة آخر قدمة قدمها فخطبنا، فأخرج كبة (٣٠) من شعر فقال: ما كنت أرى أن أحدا يفعل هذا غير اليهود! إن النبي ﷺ سماه الزور، يعني الوصال في الشعر (متفق عليه).

وذات مخالفة أهل الكتاب تحقق صلاحا للمسلم، وتدرأ عنه ما تعلق بصنيع هؤلاء الكفرة من الضرر أو النقص. قال ابن تيمية -بعد أن استدل من عدة أوجه لكون قصد مخالفة هؤلاء ثابتا بالشرع، وذكر حديث النبي ﷺ: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالفوهم» (متفق عليه)-: «وهذا وإن دل على أن مخالفتهم أمر مقصود للشرع، فذلك لا ينفي أن يكون في نفس الفعل الذي خولفوا فيه مصلحة مقصودة، مع قطع النظر عن مخالفتهم، فإن هنا شيئين:

أحدهما: أن نفس المخالفة لهم في الهدي الظاهر مصلحة ومنفعة لعباد الله المؤمنين.

والثاني: أن نفس ما هم عليه من الهدي، والخلق، قد يكون مضرا، أو منقصا، فينهى عنه، ويؤمر بضده، لما فيه من المنفعة والكمال، وليس شيء من أمورهم إلا وهو: إما مضر، أو ناقص؛ لأن ما بأيديهم من الأعمال المبتدعة والمنسوخة ونحوها مضرة. وما بأيدهم مما لم ينسخ أصله فهو يقبل الزيادة والنقص، فمخالفتهم فيه: بأن يشرع ما يحصله على وجه الكمال. ولا يتصور أن يكون شيء من أمورهم كاملا قط» (٣١).

وابن عاشور نفسه قد نص على ضرورة إفادة الناظر من هدي السلف في طريقه للوقوف على المقصود الشرعي، فضلا عن استقرائه للأحكام ذات الصلة، فقال: «عليه -يعني الباحث في مقاصد الشريعة- أن لا يعين مقصدا شرعيا إلا بعد استقراء تصرفات الشريعة في النوع الذي يريد انتزاع المقصد الشرعي منه، وبعد اقتفاء آثار أئمة الفقه ليستضيء بأفهامهم وما حصل لهم من ممارسة قواعد الشرع. فإن هو فعل ذلك اكتسب قوة استنباط يفهم بها مقصود الشارع» (٣٢)؛ فكيف الشأن فيما لو نصوا على المقصود الشرعي، وكفوه مؤنة الاستنباط كما في مسألتنا!

فلا يعقل أن تضل فهوم المتقدمين عن إدراك المناط الحقيقي لهذا الحكم حتى يأتي ابن عاشور بعد عهود طويلة ليقف عليه ويشذ عن المأثور، وحينئذ تسكن النفس إلى غلطه، والعلم عند الله تعالى.

قال ابن تيمية: «كل قول ينفرد به المتأخر عن المتقدمين، ولم يسبقه إليه أحد منهم، فإنه يكون خطأ، كما قال الإمام أحمد بن حنبل: إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام» (٣٣).

كما ورد أيضا من جهة المرفوع ما يدل على أن هذه الخصلة الذميمة من أسباب عذاب الأمم، فقد روى الشيخان عن عبدالرحمن بن عوف: أنه سمع معاوية بن أبي سفيان عام حج، وهو على المنبر، وتناول قصة من شعر كانت بيد حرسي. يقول: يا أهل المدينة! أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه. ويقول: «إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم» (متفق عليه).

وهكذا تبين ورود قادح فساد الاعتبار على مذهب ابن عاشور في تأويل الآية وما اتصل بها، كما ورد عليه أيضا قادح عدم تحقق صلاحية الاعتبار بمعهود العرب في هذا الفرع من جهة عدم ذكر ابن عاشور لما يدل على تحققه، بل لقد نطقت النصوص كما سبق

بمناطات لهذا النهي النبوي لا تختلف باختلاف عرف العرب، وعلم من خلالها أن قوله بخلو هذه المنهيات من مفسدة لا يستقيم.

واستشكال بعض النظار لمناط خطاب الشارع في حال عدم الوقوف عليه مع التسليم؛ أولى من الخروج عن ظاهره. قال ابن دقيق العيد: «للفضائل والمصالح مراتب لا يحيط بها البشر. فالواجب اتباع النص فيها» (٣٤)، وقال العز: «الموفق من رأى المشكل مشكلا، والواضح واضحا» (٣٥).

٢- جعل ابن عاشور هذه المنهيات من جنس التزين المأذون فيه؛ كالتحمير والخلوق والسواك، مرفوض؛ لأنه جمع بين المختلفات، فالخلوق -وهو ضرب من الطيب- والسواك لا تغيير فيهما البتة، وأما التحمير فلا يتحقق فيه معنى التغيير لخلق الله؛ لزواله، قال أبوالعباس القرطبي: «قال علماؤنا: هذا المنهي عنه، المتوعد على فعله؛ إنما هو فيما يكون باقيا؛ لأنه من باب تغيير خلق الله. فأما ما لا يكون باقيا، كالكحل، والتزين به للنساء: فقد أجازه العلماء: مالك وغيره» (٣٦).

وهذا التفريق يتناسب مع المذهب العدل للشريعة في باب تزين الناس، وقد أشار إليه الدهلوي عند حديثه على مسألة التزين بالشعور، فقال: «كان ناس يحبون التشعث والتمهن والهيئة البذة، ويكرهون التجمل والتزين، وناس يتعمقون في التجمل ويجعلون ذلك أحد وجوه الفخر وغمط الناس، فكان إخمال مذهبهم جميعا، ورد طريقهم أحد المقاصد الشرعية، فإن مبنى الشرائع على التوسط بين المنزلتين، والجمع بين المصلحتين» (٣٧).

وبهذا قدح في هذا التوظيف قادح الفرق المؤثر بين هذه النظائر التي اعتبر في بعضها بمعهود العرب، حيث تحقق في بعضها تغيير خلقة الله دون الأخرى.

٣- يلاحظ من كلام ابن عاشور أنه لم يستشكل لعن الواشمات، وهذا يعني تسليمه بالحكم، وهذا الاستثناء من المنهيات التي أولها حجة عليه؛ لأنه تفريق بين متماثلات اشتركت في المناط والحكم، كما سبق في أثر ابن مسعود رضي الله عنه. قال ابن القيم: «فطر الله سبحانه عباده على أن حكم النظير حكم نظيره، وحكم الشيء حكم مثله، وعلى إنكار التفريق بين المتماثلين، وعلى إنكار الجمع بين المختلفين، والعقل والميزان الذي أنزله الله شرعا وقدرا يأبى ذلك» (٣٨).

وإذا كانت هذه المنهيات بابها واحد لزم الاعتبار بمعهود العرب في الكل، ويكون الوشم أيضا علامة على نحلة الشرك أو العهر، فإذا زالت هذه العلة زال معها النهي، وهذا ما لا يقول به ابن عاشور.

وهكذا ورد أيضا قادح القلب على مذهبه من خلال إبداء نقيض حكمه بعين اعتباره بمعهود العرب.

من نتائج الدراسة:

١- يتعين التأكد من حقيقة ما يدعى من عوائد العرب من الناحية التاريخية، كما يتعين التحقق من إناطة النص القرآني بهذه العوائد وجودا وعدما.

٢- ينبغي ألا يسترسل عقل الناظر مهما علا كعبه في ملاحظة أحوال عرب محتملة والبناء عليها في تأويل الآي إن كان قد كفاه العناء نص شرعي آخر أو إجماع معصوم أو ما أثر عن أئمة السلف من الصحابة ومن بعدهم.

٣- توخي الحذر الشديد خلال التخريج على هذه القاعدة، وخصوصا إذا تعلق الأمر بالأحكام الجلية أو مسائل العقيدة ونحوها من الأصول؛ فقد غلط في هذا المجال علماء كبار كالشاطبي وابن عاشور وهما من أقطاب علم المقاصد والأصول، فكيف الشأن بمن دونهم؟.

الهوامش

(١) مزالق الأصوليين وبيان القدر المحتاج إليه من علم الأصول ص٥٩.
(٢) نقلها الخطيب البغدادي عن عبدالله بن المعتز، في كتابه: الفقيه والمتفقه ٨/٢.
(٣) الموافقات ١٥٤/٤.
(٤) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه، رقم: ١٠٨٥، ٣٥٣/٢.
(٥) الموافقات ١٥٤/٤.
(٦) اقتباس من كلام لابن القيم.. انظر: مختصر الصواعق المرسلة ١٠٣/١.
(٧) إحكام الأحكام ٢٥٦/٣.
(٨) اقتضاء الصراط المستقيم ٦٠٢/٢.
(٩) فضل علم السلف على الخلف (ضمن مجموع رسائل ابن رجب) ٢٦/٣.
(١٠) انظر: الفقيه والمتفقه ٤٣٧/١، الفتاوى ٥٠٣/٧، تهذيب السنن ١١٥٦/٣، الموافقات ٧٦/٥.
(١١) حجة الله البالغة ٤٢٣/١.
(١٢) أخرجه أبوداود برقم: ٤٦١٢، ١٦/٥. وانظر في تصحيحه: سنن أبي داود بأحكام الألباني ص٨٣٣.
(١٣) نقله عنه ابن تيمية في الفتاوى ١٥٨/٤. وليس لهذا النص وجود في نسخة الرسالة الباقية.
(١٤) الموافقات ٢٨٩/٣.
(١٥) المعيار المعرب ٤٨/٢. وانظر: البحر المحيط ٢١٥/٥.
(١٦) من أدلة ذلك أيضا قوله في الاعتصام ١٧٠/٣: «لا يشك في أن البدع يصح أن يكون منها ما هو كفر كاتخاذ الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى، ومنها ما ليس بكفر كالقول بالجهة عند جماعة وإنكار الإجماع». ولم ينكر مجرد الوصف بلفظ الجهة كما يدل لذلك صريح قوله أعلاه.
(١٧) الموافقات ١٥٥/٤.
(١٨) هامش الإحالة السابقة.
(١٩) راجع في هذا المقام: الإعلام بمخالفات الموافقات والاعتصام ص٤٨.
(٢٠) التدمرية (مع اختصار وتصرف) ص٦٥-٦٦.
(٢١) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ص١٤٥.
(٢٢) ديوان عنترة بن شداد ص٩٢.
(٢٣) نقلا من إثبات صفة العلو لابن قدامة ص١٤٧، والبداية والنهاية ٢١/١.
(٢٤) رد الدارمي على بشر المريسي ص٢٥.
(٢٥) نقله عنه القرطبي في جامعه لأحكام القرآن ٣١٤/١٢. وانظر توجيه ابن عاشور في التحرير والتنوير ١١٤/٩.
(٢٦) التحرير والتنوير، ٢٠٥/٥.
(٢٧) انظر: مقاصد الشريعة، ص٣٢٣.
(٢٨) المفهم، ٤٤٤/٥.
(٢٩) الجامع لأحكام القرآن، ١٤٤/٧.
(٣٠) هي شعر مكفوف بعضه على بعض. شرح النووي على مسلم ١٠٨/١٤.
(٣١) اقتضاء الصراط المستقيم (بتصرف) ١٧٦/١.
(٣٢) مقاصد الشريعة ص٢٣١.
(٣٣) مجموع الفتاوى ٢٩١/٢١.
(٣٤) إحكام الأحكام ٥٠/٢.
(٣٥) القواعد الكبرى ٤٠٠/٢.
(٣٦) المفهم ٤٤٤/٥.
(٣٧) حجة الله البالغة ١١٥١/٢.
(٣٨) إعلام الموقعين ٣٣٠/٢.

موقف الحضارات غير المسلمة من المخالفين في الدين

حازم علي ماهر

باحث في الأمانة العامة للأوقاف - الكويت

في ظل الهجمة الشرسة على المسلمين و وصمهم جميعا -صراحة أو ضمنا- بالإرهاب، ووضع حضارتهم في موضع الاتهام فيما يخص قضية التعامل مع الآخر - بصفة عامة - حتى انتشرت ظاهرة «الإسلاموفوبيا» أو الخوف من الإسلام، بل والعداء للإسلام، على مستوى جزء كبير من العالم، خاصة في الغرب، فإنه من المهم أن نلقي نظرة على حال التعايش الديني عند الأمم والحضارات غير المسلمة؛ حتى ندرك مكان الحضارة الإسلامية في الخريطة الحضارية الإنسانية، ومدى أحقية هؤلاء في الاستعلاء على حضارتنا الإسلامية ومعايرتها!

تسعى هذه النظرة على التجارب التي قدمتها الأمم والحضارات الإنسانية المختلفة إلى تجنب الوقوع في فخ «الدفاع» و«التبرير» الذي يكشف عن خلل منهجي ومعرفي تعاني منه كثير من الكتابات الفكرية الإسلامية، التي تتعرض للمقارنة بين الإسلام وغيره من الديانات، أو بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات، والذي مرده غالبا إلى الشعور بالنقص والدونية تجاه تلك الحضارات، عكس ما يعتقد المبررون في أنفسهم أو يعتقد فيهم.

وبالنظر المتأمل في تاريخ الأمم والحضارات غير الإسلامية نجد ما لا تخطئه عين فاحصة من سجلات بالغة القتامة، في النظر إلى الآخر بصفة عامة، وإلى المخالف في الدين بصفة خاصة؛ فنجد أنه في معظم المدنيات القديمة، كان الاتصال مع المشرك (الآخر) يمكن أن يتم فقط في أوقات الحرب، بصفته الغازي أو المغزو، وفي كلتا الحالتين كان يعتبر عدوا، وكان مصيره الموت أو الأسر، أو الموت بعد الأسر!

وفي قليل من الحال كان الاتصال مع الآخر يتم بمقتضى التجارة وحدها، مثلما كان يحدث في عهد إمبراطورية مصر (الأسرة الحاكمة ١٨)، ولكنه يعتبر كأنه شخص همجي وغير بشري.

وعند الهندوس يعتبر من لا ينتمي إلى أي ديانة هندوسية بمثابة «مليشا»، ويكون ذا مصير أسوأ من مصير «المنبوذ» - الذي يمثل أدنى طبقة - وكلاهما يعد شيئا بغيضا «مدنسا» يلوث كل شيء يتصل به، غير أن «المليشا» ليس له مركز على الإطلاق ويجب طرده من المجتمع أو قتله.

أما اليهودية فإنها - مثلها مثل المسيحية - تنظر إلى من على غير دينها باعتباره عدوا لله، وتتماثل مع الهندوسية في اعتباره منبوذا في المجتمع، وتعتبره «عدوا للقوم المختارين من الله»؛ أي عدوا يجب على المؤمنين مطاردته ومهاجمته، وإخضاعه أو تدميره حتى في وطنه!

ونجد أرسطو يقول في كتابه «السياسة»: «إن الفطرة أرادت أن يكون البرابرة عبيدا لليونان، حيث منح الأولون القوة الجسدية بينما زود اليونان بالعقل والإرادة»! بينما اعتبر الرومان من عداهم أشياء لا أشخاصا، وأطلقوا على الآخر وصف «هوستس» الذي هو العدو المبين!

على حين أن الأوروبيين قد امتلأ تاريخهم مع الآخر بالدماء منذ لاحق الأرثوذوكس الملكانيين اليعاقبة من أقباط مصر والشرق بالقتل والتشريد في القرن السادس الميلادي، وحتى حملة إبادة مسلمي البوسنة في أواخر القرن العشرين، مرورا بطرد المسلمين واليهود بقوة السلاح من الأندلس في القرن العاشر، وقبل ذلك، باستئصال غير المسيحيين من «الدانمارك» على عهد الملك «كنوت»، وفي جنوب «النرويج» إبان حكم الملك أولاف ترايجفسيون، الذي أمر بذبح كل من أبى اعتناق المسيحية، أو تقطيع أيديهم وأرجلهم ونفيهم خارج حدود مملكته!

ولا تسأل عن مأساة «الهنود الحمر» في الأميركتين، والذين اعتبرهم المكتشفون الأوربيون أقرب إلى القردة منهم إلى البشر، ولا حصانة لهم، فقتلوا منهم الملايين، وحين اعترفوا بهم أوقفوا ذلك على شروط، كقدرتهم

على التحول إلى المسيحية، بل رأى «السادة المكتشفون» أن من واجبهم أن يفرضوا على الهنود التحول القسري إلى المسيحية، واعتبروا الاستعمار عملا أخلاقيا مادام التبشير يحتاج إليه، وهم بذلك كانوا أحسن حالا من السود والمسلمين الذين اعتبروهم حثالة الأمم!

وقد يدفع البعض بأن هذه التجارب تخص الماضي وحده، بينما في الحاضر تفوقت الحضارات الأخرى على الحضارة الإسلامية فيما يتعلق بالتعايش الديني، وهو أمر صحيح جزئيا فيما يتعلق ببعض الجوانب في عالمنا المعاصر، وإنكاره فيه جحود وغفلة عن الواقع الذي يشعر فيه كثير من المسلمين المقيمين في خارج الدول الإسلامية بالأمن واحترام كرامتهم الإنسانية أكثر مما كانوا يشعرون به في أوطانهم، ولكن تعميمه فيه – كذلك – إنكار لحقائق وتجارب بارزة تثبت بجلاء أن التعامل مع المسلمين تحديدا في ظل الحضارة الغربية بالذات لايزال – كذلك – يعاني من أزمة كامنة، يبدو أنها تراكمت عبر التاريخ، أبرزتها أحداث فظيعة أرقت الإنسانية ودخلت ضمن التاريخ الأسود لها، مثل حرب التطهير العرقي والمذابح التي تعرض لها المسلمون في دولة البوسنة والهرسك – وهي دولة أوروبية – في الفترة من (١٩٩٢– ١٩٩٥م)، والتي بلغ فيها ضحايا المسلمين – بحسب تقديرات الأمم المتحدة – ما يقرب من مئتي ألف قتيل، ومئتي ألف جريح ومعاق، لمجرد أنهم سعوا لإقامة دولة مستقلة لهم، مثل نظرائهم من الصرب والكروات، وحدث ذلك تحت عين الأوروبيين والعالم أجمع، دون أن يحرك ساكنا لمدة أربع سنوات، بل وتم حظر السلاح عن القاتل والمقتول على السواء، وكأن الضحايا المسلمين لا قيمة لهم ولا يستحقون النجدة والإغاثة إلا بعد أن يذبح أكبر عدد ممكن منهم!

فضلا عن التضييق المتصاعد على الأقليات المسلمة في الغرب، والذي برز في قضايا مثل: حظر حجاب المرأة المسلمة في بعض الأماكن بعدد من الدول الأوربية، والرسوم المسيئة للنبي محمد ﷺ في الدانمارك، والمبالغة والتعميم في وصم المسلمين ودينهم بالإرهاب والعنف وعدم القدرة على التعايش مع الآخر، ثم توجيه الاتهام إلى الإسلام بأنه هو مصدر الخطر على وجه الأرض الذي ينبغي الاحتشاد لمواجهته!

ويبدو أن هذا التصعيد، فضلا عن دوافعه السياسية التي تتمثل في إيجاد عدو بديل بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب الباردة، فإنه يرجع إلى أن الرؤية الغربية الراهنة تستمد جذورها من «مبدأ المواطنة اليوناني» الذي عرف فكرة الأجنبي الذي يستحيل أن يصير مواطنا، لا هو ولا من يولد من صلبه، وعرفت فكرة «العبد والسيد»، كما أنها تستمد جذورها من «مبدأ السلام الروماني» الذي يستدعي فكرة «مركزية روما» وتبعية الشعوب الخاضعة لها، ويدشن بذور النظام القانوني القومي بفكرة «القانون الطبيعي» و«القانون المدني» و«قانون الشعوب» كجذور للداروينية والهيجلية والماركسية، وغيرها من إفرازات تلك النظرية... فمفهوم «الأنا» الحديث هو الذي ولد مفهوم «الآخر» الذي يستحيل دخوله في «الأنا»، فتمت تنشئته على مقولة: إن القوة تخلق الحق، وإن العلاقة بينه وبين كل ما في الوجود لا تحتمل إلا خيارا من اثنين: إما خضوعه لهيمنة الآخر، أو إخضاعه الآخر لهيمنته، وأن رسالته في الحياة هي أن يبرهن على أنه الأصلح للبقاء في صراع أبدي لا موضع فيه للنظر إلى الكون على أنه كيان عضوي يلتزم الإنسان في مواجهته بأية ضوابط من غير صنع الإنسان. واعتبر «الأنا الحديث» علاقته مع «الآخر» كطبيعة علاقة غزو وقهر، واعتبر علاقته مع «الآخر الإنساني» لعبة صفرية لا موضع فيها للتلاقح الفكري الحر الذي يحقق التعارف والتحاور بين البشر.

وهناك تفسير آخر لهذا العداء ذهب إليه د. أحمد داود أوغلو، وهو أن الحضارة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة التي حظيت بمنزلة أرقى من الحضارة الغربية، وأن المجتمعات الإسلامية هي المجتمعات الوحيدة التي لم ترضخ للأطماع الاستعمارية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، بالإضافة إلى سعي الجماهير المسلمة في الوقت الراهن من أجل صياغة ثوابتها الحضارية وثقافتها في عصر عولمة الثقافة واحتكارها، وهذا هو السبب الرئيسي الذي يفسر لماذا يجري الحديث عن المسلمين بوصفهم عناصر غير منسجمة مع النظام العالمي.

وأيا كانت الدوافع وراء العداء المتصاعد ضد المسلمين والإسلام، فإنه يكشف بجلاء عن وجود أزمة حقيقية تعاني منها الحضارة الغربية في قبول المخالف في الدين (المسلم تحديدا) إلا إذا تبنى أطروحاتها وتخلى عن ثوابته وخصوصياته الحضارية، وهو أمر بالتأكيد لا يؤدي إلى التعايش الديني المنشود.

وأخيرا

إن النظر إلى التجارب الإنسانية المختلفة في التعامل مع المخالفين في الدين، يبين كيف امتنع التعايش بالحسنى بين أبناء الأديان في ظلها، فامتلأ بالصراع والعصبية والعنصرية البغيضة.. الأمر الذي يجعلنا نتساءل متعجبين:

ما الذي يدفع هؤلاء إلى التعالي على الحضارة الإسلامية وأصولها المرجعية وسيرتها التاريخية؟!

ألا يجدر بهم بدلا من ذلك أن يتواضعوا كثيرا ويسعون –بجد واجتهاد– إلى المشاركة في وضع ميثاق شرف عالمي، ومنهاجية واضحة تسعى إلى تمكين الإنسانية من التعايش السلمي المشترك وقبول المخالف، أم أن الاعتبارات السياسية عندهم ستظل هي الناصية الكاذبة الخاطئة؟!

من خلال تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور:

مركزية القرآن في إنتاج المعرفة

د. بدران بن لحسن
كلية الدراسات الإسلامية - جامعة حمد بن خليفة - قطر

كل دارس لابن عاشور -عليه رحمة الله- يدرك الخط الفكري الذي تموقع فيه. ولا يجد من له أدنى تأمل صعوبة في معرفة أن الخط الذي أسس له كل من الشاطبي وابن خلدون -عليهما رحمة الله- قد اجتمعت روافده في ابن عاشور. فإذا كان الإمام الشاطبي رائدا أكبر في مبحث المقاصد على مستوى العالم كله، فإن الإمام ابن عاشور هو مستأنف هذه الريادة في عصرنا الحديث (١).

أما بالنسبة لابن خلدون الذي كان له فضل التأسيس لعلم العمران، والاتجاه بالبحث والفكر والنظر من التأمل النظري البحت إلى الاستقراء العملي، وإجراء الملاحظة ومراعاة طبائع العمران من تبدل وتداول وصيرورة، فإن ابن عاشور قد سلك مسلكه في ذلك؛ إذ إن الناظر في فكره يجد البعد الاجتماعي والسنني، والبحث عن العلل والقوانين مبثوثا في مختلف مؤلفاته، سواء في التفسير، أو المقاصد، أو غيرهما (٢).

وإذا نظرنا إلى ما يتميز به الخط الخلدوني الشاطبي نجد أنه -من جهة- اتجه إلى الكليات جاعلا منها إطارا للنظر والتحقيق دون أن يؤدي به ذلك إلى إهمال الجزئيات. ومن جهة أخرى، فإن هذا الخط قد اشتغل على استعادة التفكير السنني الذي أرساه القرآن الكريم، والذي يجعل من مهمة تحقيق الاستخلاف مهمة إنسانية قائمة على قوانين صارمة لا تحابي، ينبغي اكتشافها والاحتكام إليها وتسخيرها بما يحقق أهداف الاستخلاف. وبهذا فهو خط يعمل على النظر بتوازن، والتأسيس لمرجعية منفتحة، قائمة على قراءة سنن الكتاب والكون، لا على مرجعية اصطفائية حصرية كانت موجودة قبل الرسالة الخاتمة (٣).

وتهدف هذه المقالة إلى إبراز إسهامات العلامة ابن عاشور -يرحمه الله- فيما أضافه من إضافة نوعية لجهود الإصلاح والتجديد، بما توفره مساهماته من بعد تنظيري وقواعد منهجية ومعرفية لجهود الإصلاح، لتلافي الوقوع في فقدان الرؤية وافتقاد المنهج.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف، تقوم الورقة على استراتيجية

تحليل واحدة من المقولات الكلية والقواعد المنهجية التي يقوم عليها فكر ابن عاشور وتطبيقاتها في مختلف إنتاجه الفكري وممارساته الإصلاحية؛ والمتمثلة في مركزية القرآن في إنتاج المعرفة.

حيث تمثل هذه القضية (مركزية القرآن في إنتاج المعرفة) محورا أساسيا وبعدا مهما في فكر ابن عاشور، وتعد جهدا فكريا وعلميا ينطلق من رؤية إصلاحية تحاول إعادة الاعتبار للقرآن الكريم في تشكيل المعارف وبناء الفكر وصياغة المفاهيم، من أجل تحقيق البناء النهضوي الذي سعى إليه ابن عاشور -عليه رحمة الله-.

المقصود بمركزية القرآن

وأول ما يمثل محور ارتكاز في فكر ابن عاشور -رحمه الله- اهتمامه بالقرآن الكريم؛ لأنه «جامع لمصالح الدنيا والدين، وموثق شديد العرى من الحق المتين، والحاوي لكليات العلوم ومعاقد استنباطها، والآخذ قوس البلاغة من محل نياطها، طمعا في بيان نكت من العلم وكليات من التشريع، وتفاصيل من مكارم الأخلاق، كان يلوح أنموذج من جميعها في خلال تدبره، أو مطالعة كلام مفسره» (٤). فالقرآن -ومنذ الصفحة الأولى من تفسير ابن عاشور- هو كتاب الله الجامع لخيري الدنيا والآخرة، وهو منبع الحق والهداية، وهو مصدر العلوم على تنوعها، وهو مستمد الكليات في التشريع وفي العلم والأخلاق. ويمكن بالنظر في القرآن وتدبره أن نولد منه نماذج معرفية ومنهجية وعملية.

بعبارة أخرى، إن القرآن مصدر لتشكيل التصورات والمفاهيم والقيم كليّها وجزئيّها، بل إن قراءة المقدمات العشر التي افتتح بها تفسيره يمكن أن ندرك من خلالها الرؤية التي انطلق منها ابن عاشور في النظر إلى القرآن، وكيف استمد من القرآن ذاته هذه الرؤية، واستمد المنهج، وحدد المقاصد التي يتناولها القرآن، ومختلف العلوم التي تستمد من القرآن الكريم، إما بطريق مباشر؛ أي ما يتعلق منها بسنن الهداية، وإما بطريق غير مباشر؛ أي سنن الآفاق والأنفس والتاريخ.

إنها رؤية جديدة تجعل القرآن مركز اهتمام شامل ومتعدد الجوانب. فهو ليس كتابا دينيا بالمفهوم الضيق للدين، وإنما هو كتاب هداية ورحمة وتبيان لكل شيء. ذلك أن القرآن منبع للمعاني والمفاهيم والتصورات، والقيم والآداب، والأحكام والقصص، ومقاصده شاملة لمختلف جوانب الفكر والعمل، ومبثوثة في كل آياته (٥). وهذه الرؤية للقرآن طالما افتقدها العقل المسلم قرونا عديدة. ولهذا يمثل القرآن محورا مهما في فكر ابن عاشور، ومصدرا لمختلف أفكاره واجتهاداته في الفقه، والاجتماع، والتربية، والعمران، والإصلاح.

بل لا نبالغ إذا قلنا بأن القرآن بالنسبة لابن عاشور يأخذ مركز الاهتمام والاشتغال في تشكيل التصورات، وتحديد الرؤية، وبناء المناهج والمفاهيم، وفي مباشرة عملية التجديد الفكري والعلمي، والإصلاح التربوي والاجتماعي. ولهذا حق أن يعد رائدا في العمل على «التوصل إلى الوعي الحضاري العمراني بالقرآن» (٦).

فالقرآن الكريم في سياق فكر ابن عاشور هو منبع الهداية ومصدر الصواب لهذه الأمة الإسلامية، منه يتكون الإنسان السوي والمجتمع السوي في كل زمان ومكان. وعندما يتعامل المسلم مع القرآن والسنة تعاملا حسنا، فإنه يصل إلى فهم حسن للقضايا الكبرى التي تشغل بال الإنسان في كل مكان، وهي قضية الخالق سبحانه، والخلق والكون والحياة والهدف منها، ودور الإنسان في هذه الحياة، ومصيره بعدها، ويصل المسلم أيضا إلى فهم حسن للمشكلات الحياتية والحضارية التي يعاني منها العالم الإسلامي في وقتنا الحاضر (٧).

ولذلك فإنه يحاول الرجوع مباشرة إلى القرآن الكريم من أجل تشكيل التصورات وتحصيل الفهم واستنباط المقاصد، دون الحاجة المعرفية أو المنهجية إلى الرجوع إلى التفاسير السابقة التي صارت حاجزا بيننا وبين القرآن، ولكن في الوقت نفسه دون إهمال لها، بوصفها تراثا فكريا ناتجا عن تعامل مع القرآن، وفق سقف معرفي معين وفي مرحلة معينة، واستجابة لدواع وظروف قد تختلف وقد تشابه ظروفنا. لذا، ومنذ فاتحة تفسيره «التحرير والتنوير» أيضا، لا يجد العلامة ابن عاشور -رحمة الله عليه- غضاضة في الإعلان عن رأيه في أنه غير ملزم بالأخذ بالتفاسير السابقة، كما أنه غير مدع لتركها كلها، بل أن يقف «موقف الحكم بين طوائف المفسرين. تارة لها وتارة عليها، فإن الاقتصار على الحديث المعاد تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاد» (٨).

فكأن ابن عاشور يقول لنا إن القرآن الذي نزل إلى العالمين وإلى الناس كافة على امتداد الزمان والمكان، لابد وأن يبقى مفتوحا للأجيال تنهل منه على اختلاف بيئاتها وأزمانها، وإن من الأخطاء الكبيرة وبدايات الانحراف في الفهم والاستمداد، أن نعمد إلى محاصرة الوحي بأفهامنا، فلا نسمح له بالامتداد إلا بمقدار ما تسمح به عقولنا ومداركنا، فنحرم عقولا أخرى من حظها في الفهم، ونصادر حقها في الرأي والاجتهاد (٩).

ليس ذلك فحسب، بل يبدو العلامة

ابن عاشور منشغلا بهم الصلاح والإصلاح في الشأن الفردي والشأن العام، وهو في ذلك يسلك نهج المدرسة الإصلاحية منذ الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما من رواد المدرسة الإصلاحية التي اشتغلت على أن يسترجع القرآن دوره ومكانه.

إن العمل الذي قام به ابن عاشور في تفسيره، وفي بقية مؤلفاته وهو يتعامل مع القرآن تدبرا وتفكرا واستنباطا واستقراءً؛ هو بمثابة استدعاء القرآن العظيم للساحة الثقافية الإسلامية، وإنهاء حالة الهجر والفصام بينه وبين العقل المسلم، وجعله المصدر الأول والأهم للمسلم المعاصر، كما كان كذلك عند السلف، يرجع إليه ليستقي منه العلم والمعرفة الدقيقة السليمة في نظرته إلى الإنسان والحياة والوجود، في الفطرة الإنسانية والاجتماعية، وفي قضايا الفرد والأسرة والمجتمع والعلاقات والنظم (١٠).

فالقرآن الكريم «أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم. قال الله تعالى:﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (النحل: ٨٩). فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية.» (١١).

القرآن مصدر التصورات

إن المتأمل في تفسيره وبقية كتبه يدرك أن ابن عاشور حاول أن يفك الارتباط بينه وبين بعض التصورات التي أغرقت القرآن في تصورات لاهوتية كلامية، جعلت منه كتابا طقوسيا بعيدا عن صياغة الحياة، فأراد أن يسترجع المبادرة بالقرآن ويستدعيه لصياغة تصور جديد، هذا التصور هو عده أن مدار مقاصد القرآن هو الإنسان وصلاح الإنسان.

وإن تأكيده على أن أحكام الشريعة الإسلامية، من خلال النظر في القرآن الكريم، تبين أنها في أحكامها؛ الاعتقادية والعملية، تصب كلها في مقصد تحقيق صلاح الإنسان بأبعاده الثلاثة؛ الفردي والجماعي والعمراني، وذلك من خلال ضبط نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح الإنسان في دوائر وجوده الثلاث السالفة الذكر (١٢).

وبما أن صلاح الإنسان هو المقصد الأعلى للقرآن، فإن كل شؤون الإنسان يشملها القرآن بوعيه الشامل لمختلف دوائر حياة الإنسان، ولمختلف أبعاد شخصيته. وعليه، فإننا بتأملنا لمختلف الدوائر والأبعاد ندرك أن القرآن يكون منبعا لنا في تأسيس مختلف المعارف المتعلقة بصلاح الإنسان؛ فردا وجماعة وعمرانا.

فالصلاح الفردي يقتضي تهذيب النفس وتزكيتها، وعلى رأس ذلك صلاح الاعتقاد، لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر (١٣). وهذا يجعل من القرآن مركزيا ومهيمنا في التأسيس لعلم العقيدة، وعلم الأخلاق، وعلم الأدب وتهذيب النفوس، ومناهج التفكير، وعلم النفس، وعلم الشعائر أو العبادات.

وأما الصلاح الجماعي، فيحصل بالصلاح الفردي أولا، إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه. غير أن هذا لا يتم وحده على المستوى الفردي، بل يحصل الصلاح الجماعي من خلال ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض. وهذا هو علم المعاملات،ويعبر عنه عند الحكماء بـ «السياسة المدنية» (١٤). وفي هذا اتجاه إلى تأسيس الفقه الجماعي، أو فقه الشؤون العامة التي تهتم بالوجود الاجتماعي للفرد في وسط جماعة، وفي هذا محاولة لاستدراك ضمور الفقه في هذا الجانب؛ أي فقه الشأن العام (١٥).

وأما الصلاح العمراني، فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم، لحفظ مصالح الجميع، ورعاية المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع (١٦). وهذا بدوره يجعل من القرآن منبعا للعلوم الاجتماعية والعمرانية، ومختلف حقول المعرفة التي تؤسس للتحضر الإنساني والعمران البشري. وهو تأكيد للخط الخلدوني في التركيز على فقه العمران والاجتماع، وتأسيس مهم للبحث الاجتماعي على أسس قرآنية تستدعي القرآن مؤسسا وموجها للنظر الاجتماعي.

فصلاح الإنسان في دوائره الفردية والجماعية والعمرانية هو مقصد القرآن الأعلى. وهذا الفهم للقرآن والنظر إليه بهذه

المركزية وهذه الشمولية يجعل من القرآن مرجعا يستقى منه، لا مرجعا للتبرير للآراء الجزئية. وكأن ابن عاشور يريد منا أن نفتقر إلى القرآن ليعطينا من جواهره المكنونة ويحدد لنا المقاصد التي في ضوئها نجتهد ونعمل، ولا يفتقر إلينا القرآن للاحتجاج لها والبرهنة على صحته من خلال ما أنجزه الإنسان، أو نجعل منه مرجع تسويغ لآرائنا ومقاصدنا بعد أن نكون قد حددناها بعيدا عن القرآن.

ولذلك على من أراد فهم القرآن وتفسيره والأخذ منه أن يخضع للقرآن ومقاصده، ليستطيع أن ينتفع به، لا أن يحدد مقاصد لنفسه، ثم يأتي للقرآن طالبا التبرير له، فيقع في التجزيء. ولهذا، فإن على متدبر القرآن أن «يعلم المقاصد الأصلية التي جاء بها القرآن» (١٧)، هذه المقاصد الأصلية تدور في فلك المقصد الأعلى الذي هو صلاح الإنسان، وهي توجه منهجي لتأسيس علوم ومعارف يتوصل بها إلى تحقيق المقصد الأعلى، وتشكل المحاور الكبرى التي تحوي مختلف المعارف التي تأتي من فيض القرآن وتتصل به من قريب أو من بعيد.

إن الناظر في المقدمات التي افتتح بها ابن عاشور تفسيره يجد أن المقصد الأعلى للقرآن -والمتمثل في صلاح الإنسان- له أبعاد ثلاثة؛ هي البعد الفردي، والبعد الجماعي، والبعد العمراني. وهذه الأبعاد تنطوي بدورها على علوم مختلفة لتحقيق هذا المقصد الأعلى. ليس ذلك فحسب، بل إن المقاصد الأصلية الثمانية التي تتمحور حول المقصد الأعلى تنشئ علوما مختلفة تتعلق بالاعتقاد، والتشريع، والأخلاق والقيم، والمواعظ، والتاريخ، والسياسة العامة، والعلوم العقلية المختلفة.

ولهذا فابن عاشور يؤكد من جهة أخرى على صلة مختلف العلوم بالقرآن الكريم. ذلك أن القرآن الكريم ليس كتابا للعلوم بالمعنى الأكاديمي، وإنما القرآن ينظم علاقته بالعلوم في مستويات أربعة؛ فمنها ما هو مستمد مباشرة من القرآن: كتاريخ الأنبياء والأمم، وتهذيب الأخلاق والفقه والتشريع والاعتقاد والأصول والعربية والبلاغة. ومنها علوم تزيد المفسر علما: كالحكمة والهيأة وخواص المخلوقات. ومنها علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له: كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق. ومنها علوم لا علاقة لها بالقرآن إما لبطلانها: كالميثولوجيا، وإما لأنها لا تعين على خدمته (١٨).

ونفهم من هذا كله أن القرآن يشكل مرجعية للعلوم الدينية وغير الدينية. فالقرآن يقوم بدور مرجعي في هندسة بناء المعرفة، مما يجعلها ذات أصول مشتركة وتتجه إلى تحقيق أهداف متضافرة. ذلك أن التشظي المشهود في المعرفة في العالم الإسلامي والإشكالات المتعددة ناتجة عن استبعاد القرآن الكريم عن مسار الإنتاج المعرفي وعن هيمنته على إنتاج المعرفة.

ولذلك - وخاصة في مجال العلوم المرتبطة بالدين - يجب أن يكون القرآن المصدر الأعلى ويكون معيار صواب الآراء والأفكار، والمصدر الرئيس للقواعد الثابتة لجميع المعارف، وجميع مناشط الإنسان لتحقيق الهداية والاستخلاف، والناظم لمختلف أفرع المعرفة.

الهوامش

١- الحسني، إسماعيل. نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٢٠.
٢- يمكن النظر إلى المقدمة، وخاصة خطبة المقدمة والمقدمات الخمس الأولى للمقدمة.
٣- جعفر، هشام. الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية، رؤية معرفية، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م. من تصدير الشيخ الدكتور طه جابر العلواني للكتاب.
٤- ابن عاشور، محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م، مج١، ج١، ص٥.
٥- نفس المرجع السابق، مج١، ج١، ص٨.
٦- الغزالي، محمد. كيف نتعامل مع القرآن، مدارسة أجراها: عمر عبيد حسنة، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٣. من تصدير الشيخ طه جابر العلواني.
٧- إسماعيل، صلاح. كيف نتعامل مع القرآن والسنة، انظر:
- عارف، نصر محمد. قضايا إشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر. هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ١٦، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٨٧م، ص٨١.
٨- ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٧.
٩- شبار سعيد. الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠٠٧م، ص١١.
١٠- الغزالي. كيف نتعامل مع القرآن، مرجع سابق، ص١. من تصدير الشيخ طه جابر العلواني.
١١- ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٣٨.
١٢- الحسني. نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٢٢٨.
١٣- ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٣٨.
١٤- المرجع السابق، مج١، ج١، ص٣٨.
١٥- أبوسليمان عبدالحميد. أزمة العقل المسلم، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٣، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٧٦-٨٣.
١٦- ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج١، ص٣٨.
١٧- المرجع السابق، ج١، ص٣٩.
١٨- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٤٥.

منهج القرآن في الحض على الإنفاق

أ. د. أمان محمد قحيف
مفكر إسلامي

المال في الإسلام مال الله، والإنسان مستخلف فيه. بالتالي، فهو ليس ملكا خالصا لصاحبه أو من يحتفظ به؛ ولأنه مستخلف فيه فهو محاسب عليه: من أين اكتسبه، وفيما أنفقه؟.. ولقد أوجب الله - تبارك وتعالى - على المسلمين إنفاق جزء من أموالهم في سبيله سبحانه وتعالى، ونهاهم عن البخل به. وأوجه الإنفاق كثيرة ومتعددة، فكل ما يعمر الكون هو في سبيل الله عزوجل، وكل ما يقضي الحاجات الضرورية للمحتاجين من بني البشر هو في سبيل الله عزوجل، وكل ما يخدم الإنسان، الفرد والمجتمع، هو في سبيل الله تعالى ما دام لا يدعم معصية ولا يكرس لانحلال أخلاقي.

ولقد كشف القرآن الكريم النقاب عن أن النفس الإنسانية بطبيعتها تحب اقتناء الأموال وحيازة الثروات ولا تستطيب التفريط فيها إلى حد كبير، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران:١٤). فالقرآن الكريم يشير هنا إلى أن النفس لا تقنع بالقليل من المال، بل تحب القناطير المقنطرة منه، كناية عن حرص الإنسان على امتلاك أكبر قدر ممكن من المال والاستحواذ على أكبر قدر متاح من الثروة.. وقال تعالى في موضع آخر معبرا عن هذا المعنى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر:٢٠).

ولأن المال عزيز على النفس الإنسانية إلى هذه الدرجة فقد اتبع القرآن الكريم عدة سبل لإقناع الناس بالإنفاق من أموالهم في مشاريع الخير والإصلاح والتنمية وقضاء حاجات الفقراء.. من هذه السبل ما يلي:

أولا - أكد القرآن الكريم أن حيازة

المال الكثير لا تعني القرب أو التقرب إلى الله تعالى بأي حال من الأحوال، فالله تعالى لا يفضل الغني على الفقير لمجرد كونهما كذلك، بل إن الغني المنفق يتقرب إلى الله تعالى بإنفاقه كما يتقرب إليه الفقير الصابر على فقره بصبره.. والناس لا يتفاضلون عند ربهم بكثرة المال أو قلته، إنما أفضلهم عند الله أتقاهم.. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣).

من هنا كانت الأعمال الصالحة القائمة على الإنفاق هي من السبل المؤدية إلى القرب من الله تعالى، قال عزوجل في هذا المعنى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ (سبأ:٣٧).. فالمال والولد لا يغنيان بأي حال من الأحوال عن العمل الصالح الذي هو سبيل القرب من الله عزوجل؛ لأنه يكسب المرء الوصول إلى كسب رضا الله تعالى عنه.

وقال تبارك وتعالى في موضع آخر: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ (الروم:٣٩).. من ثم فإن إخراج الزكاة وتكثير الصدقات وإخراجها خالصة لوجه الله تعالى تؤدي بالإنسان إلى الخير الذي لا خير بعده، ألا وهو القرب من الله تعالى.

وتحبون المال

ثانيا – ذكر القرآن الكريم في وضوح وجلاء أن النفس الإنسانية تسعد بحيازتها للمال واقتنائها للثروة. وأوضح أن المال مع الولد يمثلان زينة الحياة الدنيا. وكشف النقاب في الوقت نفسه عن أن الأعمال الصالحة أفضل وأبقى من كل هذا وذاك، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف:٤٦).

ومن أحب في الإسلام أن يكون من ذوي الثراء المادي فلا تثريب عليه، شريطة أن يكون واعيا بأن الأبقى والأصلح عند الله تعالى هو فعل الصالحات بهذا المال وتسخيره لأعمال الخير ووجوه الإعمار في الكون.

ثالثا – أشار القرآن الكريم إلى أن المال الذي يحوزه الإنسان ويحافظ عليه يكاد أن يكون فتنة له شأنه في ذلك شأن كثرة الولد سواء بسواء. وقد يعد حملا على الإنسان إذا لم يتعامل معه وبه وفق المنهج الإسلامي السليم؛ لأنه سيتحول وقتذاك إلى فتنة لصاحبه.. قال ربنا سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال:٢٨).. وورد في المعنى نفسه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن:١٥).

ولا يجب أن يفهم من هذا الكلام أن الإسلام يقف من المال وكثرة الولد موقفا سلبيا في كل الحالات، إنه يحذر فقط من أن يكون دأب الإنسان وديدنه في هذه الحياة الدنيا هما الحرص على جمع المال وحيازته من دون إنفاقه في سبيل الله، أو أن يكون هدفه الحرص على إنجاب الذكور للتباهي بهم أمام الناس أو التقوّي بهم على خلق الله من دون تعليمهم الدين والالتزام الأخلاقي وتسخيرهم لخدمة دينهم ومجتمعهم.

رابعا – حذر القرآن الكريم من عدم إنفاق المال في سبيل الله، وأبان أنه يلقي بالمرء في التهلكة، حيث أكد القرآن الكريم أن من لا ينفق ماله في سبيل الله ويحرص على اكتنازه يعرض نفسه بذلك لغضب الله من دون أن يشعر، قال الله عزوجل: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة:١٩٥). ويفهم من هذه الآية أن من أراد أن يحفظ نفسه وماله وولده من التهلكة فعليه بإنفاق المال في سبيل الله تبارك وتعالى، ولا خوف عليه من ذلك البتة، إذ الإنفاق أداة النجاة، والإمساك طريق التهلكة التي ليس بعدها خير. ولما كان الله تبارك وتعالى قد قال عقب ذلك مباشرة: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥)، فإنه يفهم من ذلك أن الإنفاق في سبيل الله يسلك الإنسان في عداد المحسنين. والمحسنون هم من أهل محبة الله تبارك وتعالى ومن صفوة عباده المكرمين.

والحق أن القرآن الكريم حذر في

أكثر من موضع من عدم الإنفاق في سبيل الله. وأكد أن في ذلك ضررا كبيرا على من يحرص على جمع المال من دون إخراج حق الفقراء والمحتاجين فيه. وأشار إلى أن إمساك المال وعدم إنفاقه يجلب التعاسة، بينما الإنفاق يجلب لصاحبه السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، قال الله عزوجل في هذا المعنى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (الليل:٥-١٠).

الصحابة - رضي الله عنهم - والإنفاق

خامسا - شدد القرآن الكريم على أن المال لن يغني عن صاحبه شيئا إذا تعرض لغضب الله تبارك وتعالى في الدنيا أو في الآخرة، فالمال المكنوز لا يأخذ بيد صاحبه حين تعرضه للتعذيب بالنار أو بأي شيء آخر؛ لأنه سيكون حجة على صاحبه، قال تعالى ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ (الليل:١١). والمال أيا ما كان حجمه، وأيا ما كانت كميته، ليس بكاف صاحبه - الذي اكتنزه وامتنع عن إنفاقه في الخيرات - من عذاب جهنم، قال تبارك اسمه وتعالى قدره في السياق نفسه: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ (المسد:٢).

فتلك عظة وموعظة - وما أحوجنا لأن نتعظ بكل عظات القرآن الكريم ومواعظه - لكل من يحرص على جمع أمواله واكتنازها ويتردد في إنفاقها في وجوه الخير.

إن المال الذي يكسبه المرء في حياته لا يغني عنه من الله شيئا إذا لم يخرج منه حق الفقراء والمساكين والمحتاجين، وما كان رسول الله ﷺ يحب كنز المال، وأدرك صحابته - رضوان الله عليهم - هذا المعنى فأنفقوا ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل؛ لأنهم تعلموا من رسول الله ﷺ أن الصدقة وسيلة فاعلة وناجزة في إطفاء غضب الرب. لذلك، حرصوا على التصدق ومراعاة الفقراء طوال الوقت، ولهم في هذا المجال تاريخ مشرف وأياد بيضاء.. وما تاريخ أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عوف.. وغيرهم علينا ببعيد.

الاستقواء بالثروة

سادسا - حذر القرآن الكريم من الاستقواء بالمال، فقد يصد المال صاحبه - عند الاستقواء به - عن اتباع الخير، ويدفعه باتجاه التكبر والتجبر في الأرض، وينسيه حق الفقراء فيه. ولقد وردت في القرآن الكريم آيات بينات تشير إلى هذه المعاني وتوضح تلك الصور؛ إذ ظهر إبان عصر الرسالة وفي حياة النبي ﷺ أناس تلاعب المال بعقولهم، وأذهبت الممتلكات رشدهم، وجعلتهم يقفون ضد الإسلام الحنيف، متكئين في ذلك على ثرواتهم التي كانت تمنحهم وقتذاك مكانة اجتماعية وترفعهم في أعين الفقراء والمحتاجين من الناس.. ولقد قال الله تعالى في حق هذا الصنف من الناس - ومنهم أمية بن خلف وغيره ممن اغتروا بأموالهم وثرواتهم التي جمعوها وتفرغوا لتنميتها وأعرضوا عن اتباع الحق وسماع دعوات الخير - قال عز من قائل في حقهم: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ (الهمزة:١-٣).. ونزلت آيات بينات في المعنى نفسه بحق الوليد بن المغيرة، الذي سيطرت عليه الدنيا، واستحوذ عليه الجشع وحب المال، قال الله تعالى في هذه الآيات: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ (المدثر:١١-١٧). فالله عزوجل يذكّر بهذه الآيات أصحاب الأموال الكثيرة والثروات الطائلة أنه تعالى هو الذي أمدهم بتلكم الأموال، وهو عزوجل الذي وهبهم البنين من الأولاد، فحق عليهم أن يؤمنوا به ويشكروه وإلا تعرضوا لما لا تحمد عقباه.

وجاء في سورة القلم ما يؤكد رفض القرآن الكريم لسلوكيات هؤلاء وأفعالهم، حيث أعاب الله تعالى أقوالهم وأفعالهم التي تمثلت في الكذب في اليمين، والمشي بالنميمة، ومنع الخير عن الناس، والاعتداء عليهم وعلى أعراضهم، وتكذيب آيات الذكر الحكيم، والتطاول على كلمات الله ووصفها بأنها أساطير الأولين، قال تعالى:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (القلم:١٠-١٥).

ولقد توعد ربنا هؤلاء وأمثالهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، كل هذا لينبههم إلى أن من سبل رضوان الله أن يؤمن العبد بربه وينفق في سبيله.

وإمعانا في توضيح خطورة إمساك المال وعدم إنفاقه في سبيل الله، أشار القرآن الكريم إلى أن بعض المترفين الأوائل أطغتهم أموالهم،

وغرتهم ثرواتهم، وظنوا أن المال سيمنعهم العذاب والعقاب، محذرا بذلك أثرياء قريش – وأثرياء كل العصور – من التصرف وفقا للمنهج الذي اختطه هؤلاء الطغاة..

قال تعالى في هذا السياق:

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٥).. كما لو كان العذاب سيطول الأقل أموالا من الناس ولن يصل إلى ذوي الكثرة والوفرة من الثروة، بحسب زعمهم وفهمهم الخاطئ للقضية الإيمانية.

سابعا – حذر القرآن الكريم أصحاب المال والثروة من إنفاقهما في غير موضعهما، حيث إن هناك من الناس من لا يلجأ إلى إنفاق ماله في الأبواب الصحيحة، والمسالك الرشيدة.. من هنا كان النص القرآني شديد الوضوح والمباشرة في تنبيه أصحاب الأموال والثروات وتحذيرهم من إنفاق ما لديهم من أموال في ما لا ينفع أو في ما يضر.. ومن يفعل ذلك سيكون ماله حسرة عليه؛ لأنه تسبب له في الطغيان والتجبر، ولأنه حارب به الخير ودعاته، ووقف ضد الرسول ﷺ وهو من دعاة الإيمان والأمن والسلام، معتمدا في عناده هذا على السطوة والحظوة اللتين أخذهما من حيازته لتلك الثروات.. من هنا فقد عبر القرآن الكريم عن تلك الحالة بقول الله عزوجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ (الأنفال:٣٦).

والذي عليه أهل العلم أن من ينفق ماله في الصد عن سبيل الله أو تعطيل أي خير تنتفع به الأمة في مشاريعها التنموية والإصلاحية هو خاسر لا محالة.

ذم البخل

ثامنا – ذم القرآن الكريم البخل والبخلاء. يتبين للمتصفح لكتاب الله تعالى أن الله عزوجل لم ينزل في كتابه آية واحدة تبيح البخل، أو تجيزه، أو تحض عليه، بل إن كل ما ورد في هذا السياق يؤكد – بما لا يدع مجالا للشك – أن الإسلام الحنيف له موقفه الواضح، وله فلسفته الخاصة في هذه المسألة، وهي فلسفة تقوم في جوهرها وأساسها على رفض البخل بكل أشكاله وألوانه، بما في ذلك البخل العاطفي، حيث أراد للأب أن يقبل أولاده ويحنو عليهم ويظهر محبته لهم.. ومن المنطلق نفسه أراد للمسلم الميسور الحال أن يؤكد دعمه لأخيه الإنسان المتعسر ماليا، وأن يقف بجانبه ويعينه على مواجهة تقلبات الحياة وصعوباتها.

من ثم فإن البخل في الإنفاق مذموم في كتاب الله عزوجل، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران:١٨٠).

وغني عن البيان التذكير بأن كتب الصحاح ممتلئة بأحاديث النبي ﷺ التي تذم البخل وتحض على الإنفاق من دون خوف من فقر أو حاجة؛ لأن المال لا ينقص من الصدقة على الإطلاق، بل إن الصدقة هي حصنه الذي يحفظه ويقيه من الضياع أو النفاد.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى أن حالة البخل التي تعتري النفس الإنسانية مصدرها الشيطان الرجيم، فهو الذي يوسوس للمرء بأن الإنفاق قد يؤدي به إلى الفقر أو العوز، قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ (البقرة:٢٦٨). والمعنى الذي عليه جمهور المفسرين هنا: أن الشيطان يخوفكم بالفقر، ويأمركم بالبخل، ويزرع في نفوسكم الخوف من الإنفاق، واهما بعضكم بأن الإنفاق سبيل الفقر والاحتياج، ويزين لهم ضرورة الحرص على المال، ويظهر الإنفاق في نظرهم كأنه تبديد للثروة وتضييع للأموال.

ولقد نبه الله تعالى أهل البخل، ومن يدعون الناس إليه، ومن يكتمون نعمة الله تعالى عليهم، إلى أن في ذلك مهلكة لهم ومجلبة لعذابهم، وربما يخرجهم بخلهم هذا من طائفة المؤمنين بنعمة الله عليهم، ويسلكهم في عداد الذين كفروا بنعمة الله عزوجل.. قال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء:٣٧).

وكشف القرآن الكريم النقاب عن أن مما يغضب الله تعالى أن يمتنع أحدهم عن الإنفاق في سبيل الله بعد أن كان قد عاهد الله أن ينفق في أبواب الخير ووجوهه إذا بسط الله ت عالى له رزقه، جاء في هذا المعنى قول ربنا:

﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة:٧٦-٧٧).

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٨)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

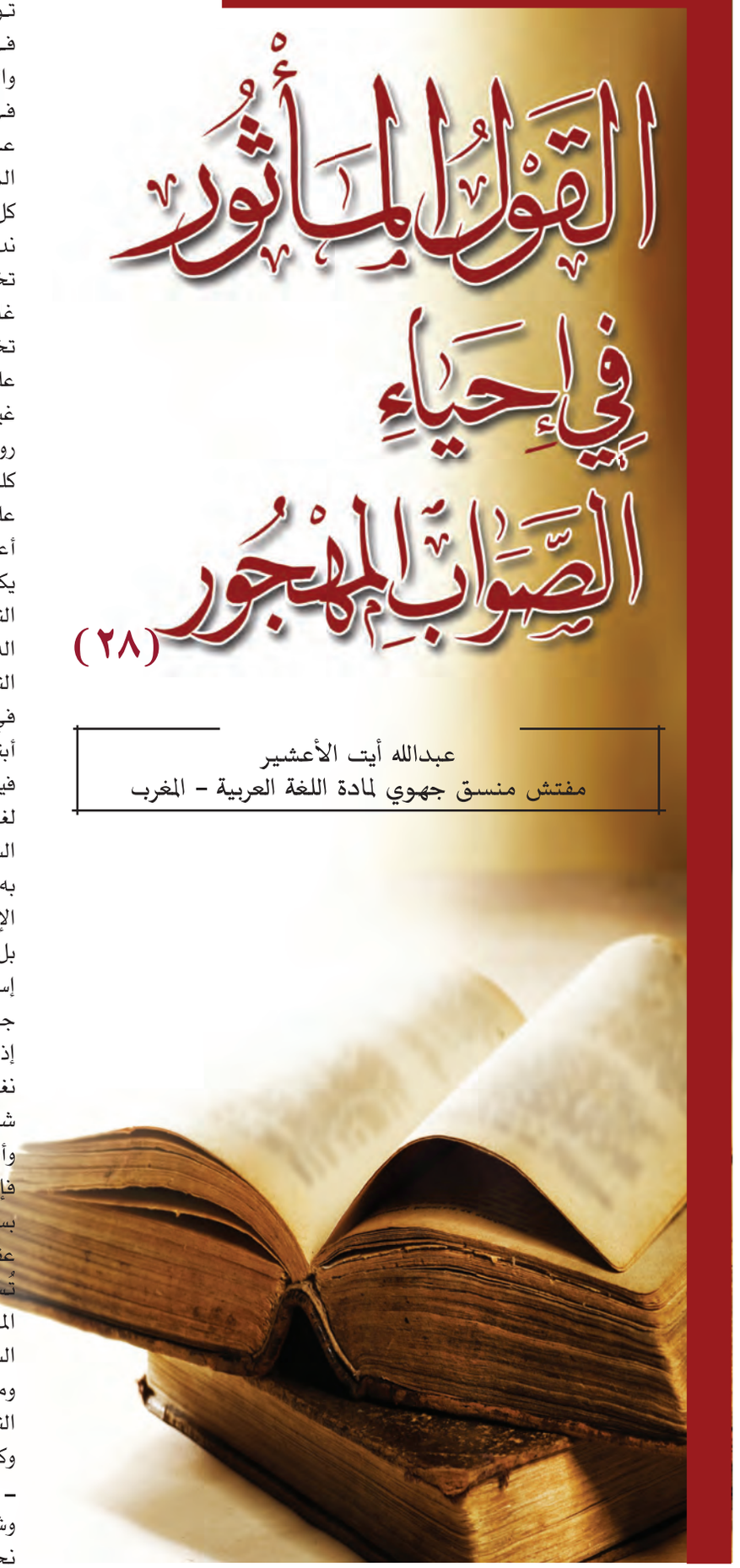

من الأقوال الثابتة أن اللغة العربية الفصحى توالت عليها كثير من النكبات المشككة في قدرتها على الوفاء بحاجات الاتصال والتواصل العلمية والتقنية المتجددتين، رغبة في إسقاط هيبتها بين اللغات، وإظهارها عجوزا عقيما عاطلا من الحلي؛ قد ذهب الزمان بنضارتها وزينتها، ومن ثمة لن تستطيع كل المساحيق التجميلية التي تتعرض لها في ندوات ومجالس المجمَّعات العلمية اللغوية أن تخفي تجاعيدها، وتعيدها إلى معترك الحياة غانية ليس بها حاجة إلى أدوات الزينة التي تخلب أفئدة المواكب الإنسانية التي تقبل عليها. وما النكبات التي تَتَّرى عليها - دون غيرها - إلا لأنها لغة القرآن الكريم وسُرَّة روضة اللغات، وغُرتها الشادخة، وشمسها التي كلما ظهرت، طمست باقي الكواكب. تأسيسا على هذه الحقيقة الراسخة رسوخ الجبال، فإن أعداءها اللُّد - في الداخل وفي الخارج - لا يكلون ولا تفتر لهم العزائم في دعواتهم المنكرة التي تركب السَّخْبَر، لإبعادها عن مرجعياتها الدينية والأدبية والتراثية والحضارية والثقافية التي ضمنت لها البقاء الممزوج بصرخة الولادة في البيئة العربية التي يصر الآباء على إسماع أبنائهم القرآن الذي يتولى تعليمهم كل شيء، فيعيشون على حبها بأفئدتهم وأفواههم، لأنها لغة القرآن الكريم، ولغة الأحاديث النبوية الشريفة، ومادة الشعر العربي البليغ، كما تغنى به الشعراء المفلقون في الجاهلية وفي صدر الإسلام، وفي العهدين: الأموي والعباسي، بل لأن العربي الصميم، والمسلم الذي حسُنَ إسلامه يعلم علم اليقين أن «الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب».

إذا اقتصرت الحلقة الآنفة على الاكتفاء بإيراد نغبة طائر من بحر التغيرات الضرورية التي شهدتها العربية الفصحى، بأمثلة شارحة، وأدلة واضحة مبيِّنة لصراط الفصاحة ليُسْلك، فإن هذه الحلقة تمد أسباب المطمعة للمرور بسرعة البرق على بعض الدعوات المنكرة التي عقدت حُبُك النِّطاق لتنتهز نُهْزة المختلس التي تُسَوِّغ ولا تُسَوِّي، رغبة في إلباس الأطمار المعيبة للأساليب العربية المبينة، ومن ثمة دفع الشعوب العربية إلى احتقار لغتها الفصحى، وما تدل عليها كلماتها المرتبطة بالبيئة البدوية التي تخلى عنها الإنسان العربي المعاصر طوعا وكرها، ومن ثمة يرصف بنا - حسب زعمهم - أن نشيِّع هذه الكلمات التي تذكرنا بالقسوة وشظف العيش إلى مثواها الأخير، تماما كما نحرص على دفن أمواتنا الذين فقدوا أسباب

الحياة. هذه هي المسوغات التي ينطلق منها الذين يأتلفون لوأدها، ويهيئون لها الأكفان في كثير من وسائل الإعلام، ويقربونها من رمسها في ما يتفوهون به من كلام غث، بزل فيه الفساد حتى بلغ مبلغه الذي لا ينفع معه ترياق، لأنهم أدركوا صعوبة استفادة اللغة العربية من قرائها، لأن لغتها العالية لغة كتابة، وليست لغة التواصل الشفهي، ولذلك لا تستفيد من متكلميها في البيت وفي الشارع وفي السوق، وفي غيرها من الأماكن غير الرسمية التي توجب التحدث بالفصحى. هذا المناخ اللغوي المضطرب غير السليم، لا يساعد الفصحى على التطور والنماء اللَّذيْن يضمنان لها السيادة في ميادين المال والاقتصاد والعلم والتقنية، مما شجع دعاة اللهجات إلى الاعتداء على الفصحى، وعلى حقها في الوجود، فتقوى النسق العامي حتى تطاول وعربد في الميادين الأدبية التي انفردت بها الفصحى، كما يبدو ذلك من خلال دواوين الشعر الشعبي النبطي في المشرق العربي، وغيرها من النصوص الأدبية في المغرب العربي مثل: سلسلة قصص الأطفال «نيكولا الصغير» الذي أصدرته فرنسا بالدارجة المغاربية، تقديم الباحثة «دومنيك كوبي»، حيث تمَّ عرضه في المعرض الدولي للكتاب في الدار البيضاء ٢٠١٤م. وتتكون السلسلة من تسع قصص، ثلاث منها بالدارجة المغربية، وثلاث أخَر باللهجة الجزائرية، والثلاث الأخريات بالعامية التونسية. كما ظهرت في المغرب كتابات اتخذت الدارجة أداة لها، وبالحرف اللاتيني، مثل ما طرسه المنشئ مراد العلمي، ناهيك عن محمد نبيل فهمي الذي أصدر رواية بالدارجة المغربية، بالإضافة إلى الجريدة الأسبوعية المسماة: «نيشان» التي اتخذت العامية لغة لها، لكنها فشلت في إيجاد قراء يوفرون لها الدعم اللازم للاستمرار، فرجعت من حيث أتت لا تلوي على شيء.

وعلى الرغم من أنه لا ينبغي أن يحزننا الذين يسارعون في المكر باللغة العربية الفصحى، ليّا بألسنتهم وطعنا في قدرتها، لأنهم لن يضروها بشيء مادام القرآن الكريم حارسها الأمين، فإن القائمين على الحقل اللغوي في البلدان العربية مدعوون إلى تخطيط لغوي محكم يوفر المحضن السليم لانتشار الفصحى، ويدرك المقاصد والمنافع المادية والمعنوية التي تحصل عليها الشعوب العربية من جراء العناية باللغة العربية الفصحى، ويقضي على منابت الشر التي بدأت تطل برؤوسها في أرجاء الوطن العربي، من خلال تحديد القواعد الضرورية التي تضمن المعْيَرة للفصحى نطقا وكتابة، ناهيك عن ضبط حركات مباني الكلمات وحركات إعرابها، بله تصنيف المعجمات العربية المختلفة لمساعدة المتكلمين والأدباء والعلماء والأطباء والمهندسين على الضبط اللغوي الذي يسهل الاتصال والتواصل بين أبناء الوطن العربي، إضافة إلى الاحتكام إلى ميثاق إعلامي مدعم بقرار سياسي ملزم، ولا يقبل التسامح مع مُعدِّي البرامج الإذاعية والتلفزية الذين يشترط في توظيفهم الامتلاء والضلاعة من الفصحى، بما يضمن عدم انحرافهم عن صراطها السَّويِّ، سواء من خلال طرق الإملاء المعيبة التي تسود الأشرطة المتحركة أسفل الفضائيات، أو من خلال لغيَّات الإعلانات الإشهارية التي تأخذ بخناق الفصحى، وتضع السكين على حبل وريدها، مؤذية السمع والبصر والفؤاد بما تنغش به من الأخطاء كما تنغش التينة بالدود، أو بالنسبة إلى الحوارات السياسية والاجتماعية والثقافية التي يَتِد أصحابها أقوالهم الملهوجة بالعامية أحيانا، وبأصناف الكَلم العَرَبيزي والعَرَنْسي في أحايين كَثيَرة، ناهيك عن الأشرطة الدرامية التي سعت سعيا منكرا إلى أذيَّة الفصحى، لا تترك موقفا يثير السخرية إلا حشرتها فيه، جاعلة الأعرابي الساذج، ومدرس العربية البليد هي الصورة الأثيرة المعبرة عن موقف أصحابها من العربية الفصحى. هذه الثقوب والهنات التي يمكن أن يستصغر بعضنا أمرها، فيتركها تواجه الإهمال الذي يعد مصيرها المحتوم، كما أهملت الدعوات الآنفة التي حمل الاستشراق لواءها بزعامة الألماني «سبيتا»، والإنجليزي «ولكسوس»، والألماني «مارتن هرتمان»، الذين أسهبوا في عرض مزيات العامية، وجاؤوا بالإفك والأحاديث المرجَّمة عن الفصحى، فتبعهم بعض الألفاف من المشرق العربي أمثال: شبلي شميل وأنيس فريحة ولويس عوض وسلامة موسى وعبدالعزيز فهمي وأحمد لطفي السيد ومَن لفَّ لفَّهم. لا ينبغي لنا أن نطوي الكشح عنها لعلمنا أن النار من مستصغر الشَّرَر، وأن الحبو الذي يظهر على هذه الدعوات، قد يصبح عَدْوًا وجريًا في قادمات الأيام، ولاسيما أن تيار التسهيل بدأ يتقوى في البلاد العربية حتى أصبح بعضنا يَبْجَح بإدخال بعض أساليب العاميات في نسيج العربية الفصحى كما توضح الأمثلة الآتية: × شرب فلان الأمازيغية من حليب أمه. × لون السروال داكن. × ولدت الناقة ... لا ريب أن هذه الجمل التي تنكبت طريق الفصحى، يغزو أصحابها أن يركبوا سبيل الفصحى عوَجًا، ولذلك يحسن بنا أن نطفئ لهيب هذا الحريق، بالإشارة إلى التصحيحات الآتية التي تَدْلك العامية وتهذبها وتخضعها للقواعد على هذه الشاكلة: × رضع فلان الأمازيغية من لِبان أمه. × لون السراويل أدكن. × نُتجت الناقة... حيث إن الفصحى تميز بين لبن أُمَّات الأنعام وبين لبان الأمهات العاقلات، كما أن السراويل لفظ مفرد جمعه: سراويلات، بخلاف العامية، كما أن ما دَلّ على لون أو عيب يأتي على وزن «أفعل» (أحمر ، أصفر، أبيض، أدكن...) وفي ضروب الولادة نقول: ولدت المرأة، ونُتجت الناقة والشاة، ووضعت الرَّمَكة والأَتَان.

بهذا المرور الطائر على الشائنات التي تحدثها اللهجات العامية في أثواب الفصحى، أرجو أن أكون أنا النذير العريان الذي يرمي حجرا في بركة اللحن الآسنة، فيأتي الآخرون فيرمون أحجارهم لتتسع دائرة الدوامة التي تطرد شنع اللغات عن العربية الفصحى، ليدرك العرب أن الإصلاح الحقيقي يجب أن يبدأ من اللغة ومما تقوله كلماتها، وعندئذ سيضطر العالم إلى الإنصات إلينا وبلغتنا العربية الفصحى، وسنطرد عنا هذا التشرذم الروحي الذي يُزيِّن لنا الاستهانة بثقافتنا، ناهيك عن دحر الوَجاهَة المصطنعة التي يُبديها بعض الأغْتام في أثناء حشو كلامهم بأمشاج الألفاظ الأجنبية من دون مصلحة مدركة.

الروماني نيقولا دوبريشان وتجربته مع اللغة العربية..

خمسون عاما في خدمة اللغة والأدب العـــــــــــ

محمد عويس - القاهرة

شرع د. نيقولا دوبريشان في تعلم اللغة العربية وتعليمها ودراستها بصورة منظمة ومنتظمة في رومانيا بدءا من ١٩٥٧م، عندما تم تأسيس دائرة اللغة العربية كلغة رئيسية ضمن كلية اللغات الأجنبية التابعة لجامعة بوخارست، وكان أحد الطلاب الخمسة الذين قبلوا في هذه الدائرة في عام ١٩٥٨م من خلال مسابقة بلغ عدد المرشحين فيها ١٥ شخصا، وكان نيقولا هو ابن الفلاحين الوحيد القادم من الريف الروماني، ودفعته إلى هذا الاختيار دواع وموروثات مجهولة خافية مدفونة في وعي أجداده. وتخرج في الجامعة عام ١٩٦٣م، وكرس بهذا الاختيار خمسين عاما لخدمة اللغة العربية من دون انقطاع. وقد قطع جميع الدرجات والمراحل الأكاديمية والعلمية حتى الأول من أكتوبر ٢٠٠٨م عند بلوغه السبعين من العمر، وعن ذلك يقول: «وقد ساعدني إلهي من جديد في مواصلة خدمة اللغة العربية، إذ تم تشغيلي فورا، على أساس مسابقة جديدة، أستاذا في الجامعة الخاصة التي تحمل اسم وشهرة الأمير العلامة ديمتري كانتمير (مستشرق أوروبي بارز من أوائل القرن الثامن عشر، كان قد درس اللغة العربية إلى جانب لغات شرقية أخرى في عاصمة الإمبراطورية العثمانية إسطنبول، وكان يوقع باسم عربي مستعار (خان تيمور) اشتق من اسمه (كانتمير) حسب تقديره هو».

مجلة «الوعي الإسلامي» التقت نيقولا وكان هذا الحوار، الذي استهله بتناول بدايته مع تدريس اللغة العربية قال: أتذكر شاكرا أن وزارة الإرشاد القومي في مصر (حينذاك) قدمت هدية رمزية لجامعة بوخارست، لكنها كانت جوهرية، تمثلت في مجموعة من الكتب المدرسية ومختارات من الأدب العربي مخصصة لطلاب المرحلة الثانوية في مصر، استفدنا منها خلال فترة طويلة من الزمن، بل لا أخطئ إن قلت إن هذه النصوص يستفيد منها بصورة مباشرة أو غير مباشرة الطلاب والأساتذة سواء بسواء، حتى أيامنا هذه. وكانت الصعوبات الملازمة لكل بداية، لكن الأوضاع تغيرت تدريجيا، إذ وضعنا أنا وزملائي مجموعات نصوص أدبية وسياسية، وقواميس صغيرة، ثم كتب المحاضرات (الكورسات) التي استفادت منها الدفعات والأجيال اللاحقة المتلاحقة. وإذا بالجزء الأول (الصوتيات وصرف الفعل) من الطبعة الأخيرة لمحاضرات اللغة العربية المعاصرة التي وضعتها خلال السبعينات من القرن الماضي وعدلتها أخيرا، والجزء الثاني (الاسم والحرف) تحت الطبع على أن يتبعه كتاب محاضرات في علم النحو العربي، وكتاب في اللهجات العربية. وتجدر الإشارة إلى أن تعليم اللغة جرى ولا يزال يجري في علاقة وثيقة مع دراسة الأدب العربي والحضارة الإسلامية، لكن على الرغم من الإنجازات المرموقة المسجلة في تقدم دراسة اللغة العربية تظل وراء البحر، ونشعر بنقص الكتب العربية من كتب مدرسية ومؤلفات أدبية ومجلات ثقافية وأدبية والجرائد والمجلات السياسية، بغية متابعة الظاهرة الثقافية والأدبية والتطورات السياسية والاقتصادية على مسرح الوطن العربي والأمة العربية».

ويشير دوبريشان إلى ضرورة تحمل البعثات الدبلوماسية العربية في بوخارست وغيرها من العواصم الأجنبية المسؤولية العائدة إليها من أجل تفعيل تعليم اللغة العربية عن طريق إمداد الجامعات التي تدرس فيها اللغة العربية بمختلف المواد المدرسية والمساعدة من كتب ومجلات أدبية خاصة بكل بلد عربي على حدة (وفي بوخارست على سبيل المثال هناك ١٢ سفارة عربية) بل وكتيبات وخرائط جغرافية وسياحية، وأي مواد أخرى تراها جديرة بدعم تعليم اللغة والأدب والحضارة العربية.

ويضيف: «اهتممنا بالإعداد النظري اللغوي والأدبي في الوقت نفسه مع تكيف عملية التعليم مع الضرورات العملية للعلاقات الرومانية - العربية، السياسية والاقتصادية، والتي بلغت ذروتها خلال النصف

ـــــــربي أعددت خلالها جيلا من المترجمين

الثاني من القرن العشرين، سواء في الميادين السياسية الدبلوماسية أو الاقتصادية أو الثقافية. ويبدو أن العنصر الثقافي والإنساني أصبح في عصرنا هذا يلعب دورا أهم منه في جميع المراحل السابقة. ومن الضروري في الظروف الجديدة أن نتأمل في تكييف التعليم تماشيا مع هذه التطورات».

وقد أسهم دوبريشان جنبا إلى جنب مع زملائه – مقاوما بل متجاهلا جميع الإغراءات والمغريات الخارجية والداخلية، الظاهرة والباطنة، باعتباره معلما بتكوينه وبإرادته – في تكوين أجيال متلاحقة من المستعربين الرومان الذين عملوا في ميادين العلاقات الرومانية – العربية، ومثلوا جسورا للاتصال بين رومانيا والبلدان العربية وبين الحضارتين، وكان راضيا جدا عندما رأى طلابه يقتدون به بل سبقوه، وأصبح بعضهم دبلوماسيين وسفراء يفتخر بهم وطنهم، والوطن العربي على حد سواء، ومنهم على سبيل المثال السفير الروماني السابق في القاهرة، والذي استقبله واستضافه في القاهرة قبل أربع سنوات (عين مؤخرا سكرتير أو كاتب الدولة في وزارة الشؤون الخارجية في بوخارست).

منح وزمالات

ويضيف: «لقد تغيرت الأمور مع مرور الزمن، إذ تطورت العلاقات وتنوعت بين رومانيا وبلدان الوطن العربي، واتسعت إلى مجال التعليم كذلك، وامتدت إلى دول عربية أخرى، وازداد عدد المنح الدراسية المتبادلة بين بلداننا، وأتيح لمعظم الطلبة الذين يدرسون اللغة العربية في جامعة الدولة الرومانية فرصة الحصول على منح وزمالات وقضاء فترات للتخصص في القاهرة ودمشق وعمان. وبالنسبة إلى أبناء الأقلية المسلمة الرومانية فقد توافرت لهم الدراسات الإسلامية في الجامعات والمعاهد الدينية في مصر والسعودية والأردن والمغرب». ويشير إلى أن أول مجموعة من المستعربين الرومانيين الذين درسوا في بغداد في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن الماضي، أصبحوا جميعا ممثلين بارزين للعلاقات الرومانية العربية. وكان دوبريشان أحد المدرسين الأوائل الذين تمتعوا بمنحة دراسية في جامعة القاهرة في عام ١٩٧١م عندما أعد رسالة الدكتوراه في جامعة بوخارست تحت إشراف علامة لغوي شهير روماني حينذاك. وتعود اتصالاته الأولية مع مجمع اللغة العربية في القاهرة إلى تلك السنة، عندما التقى رئيس المجمع حينذاك الدكتور طه حسين، بعد أن ترجم له في الستينيات رواية «الأيام» إلى الرومانية. وفي سنوات النظام الشيوعي تعرض للمخاطر، إذ قام بنشر مقالات في مجلة أجنبية، حيث نشر أول مقال في مجلة المجمع ١٩٧٤م وكان مكرسا لموضوع لغوي بريء محض (الكلمات العربية الأصل التي وصلت إلى اللغة الرومانية)، وتلاه مقالان آخران.

عضو ومراسل

وانقطعت اتصالاته بالمجمع خلال الثمانينيات والتي تمثلت في تراجع النظام الشيوعي في موقفه من الثقافة والمثقفين، وفوجئ في عام ١٩٩٧م بانتخابه عضوا مراسلا لمجمع اللغة العربية في القاهرة، ثم عضوا مراسلا لمجمع اللغة في دمشق، وعلى إثر الأحداث التي وقعت في رومانيا في ديسمبر ١٩٨٩م توسع تعليم اللغة العربية في جامعاتها، وازداد عدد الطلاب في كل دفعة إلى أرقام تراوحت خلال التسعينيات والحقبة الأولى من القرن الحادي والعشرين بين ٤٠ و٥٠ طالبا. وأسهم في إنشاء دائرتين أخريين للغة العربية كتخصص أساسي في جامعتين خاصتين في مدينة بوخارست ودرس فيهما. ونظرا لتوسع التعليم الخاص اليوم، ليس في رومانيا فحسب بل في العالم بأسره،

توجه بنداء «من داخل البيت»، وفق الشعار اللاتيني القديم، إلى المؤسسات التعليمية والعلمية، بل والسياسية العربية، لكي تولي اهتماما بهذه الجامعات وكذلك دعمها، إلى جانب جامعة الدولة، من خلال إمدادها بالكتب المدرسية وغير المدرسية والمجلات الأدبية وغير الأدبية وغيرها من المواد المساعدة، بل وتبادل المنح الدراسية نظرا للقاعدة المادية التي تتمتع بها هذه الجامعات والتي تفوق من بعيد القاعدة المادية والبنى الأساسية لجامعة الدولة.

جيل جديد

وعن تجربته في تطوير تعليم اللغة العربية، يذكر من دون تواضع «أسهمت إسهاما جوهريا في تطوير تعليم اللغة العربية في رومانيا، وأفتخر بكوني أسهمت كذلك في تكوين جيل جديد من المدرسين الذين يشتغلون حاليا في جامعة الدولة وفي الجامعتين الخاصتين، علاوة على عدد من المدرسين الرومانيين الذين يشتغلون في جامعات غربية». ويضيف «إننا لم نعد نواجه حاليا الصعوبات التي كنا نواجهها في مرحلة البداية، حيث تتوافر لطلابنا جميع المواد اللازمة لحسن سير عملية التعليم، إذ يمكنهم الوصول المباشر أو غير المباشر، وفق قول لاتيني آخر «الكلمات تتغاير فيما يبقى المكتوب»، مما يعني أن الكتاب سيبقى للأبد، وعلى ذلك أعتقد أن أعداد المكتسبات بالكتب والمجلات وسائر الأدوات المكتوبة المادية المجسمة ستظل دائما أمرا ضروريا وأساسيا. ولكن – ومع الأسف الشديد – لا يسعني إلا أن ألاحظ أن عددا من المستعربين، بمن فيهم بعض الرومان، وقعوا في شباك نفوذ بعض الأفكار الخاطئة الغربية، مثل الرأي الخطير الرائج بين بعض الأوساط الاستشراقية الغربية وغير الغربية أيضا والمدعي بأن اللغة العربية الفصحى أصبحت لغة ميتة، وأن اللهجات العامية حلت أو لا تزال تحل محلها، وهي بمنزلة لغات مشابهة للغات اللاتينية أو الرومانية أو الجرمانية أو السلافية. إنها لفكرة خطيرة للغاية يعتنقها – مع الأسف – بعض المستشرقين غير القادرين على تفهم ظاهرة ما سموه بالازدواجية اللغوية العربية تفهما صحيحا، أو ربما يتعمدون بذلك أهدافا معينة. إنني أميل إلى وضع هذا الموقع على حساب الجهل وليس على حساب سوء النية، على الرغم من خوفي من وقوعي أنا في الخطأ».

عرب ومستعربون

ويستطرد قائلا «أنا شخصيا رفضت هذه النظرية مرارا رفضا قاطعا، ابتداء من مطلع التسعينيات من القرن المنصرم في مناسبات مختلفة، بما في ذلك عدد من البحوث التي قدمتها في مؤتمرات مجمع اللغة العربية في القاهرة، وأشرت إلى أننا جميعا، عربا ومستعربين على حد سواء، الذين نهتم بحماية اللغة والحضارة العربيتين، يتوجب علينا رفض هذه الأفكار الغربية، والعمل على فرض استعمال الفصحى في جميع الظروف، سواء بكونها لغة مكتوبة أو منطوقة محكية، لغة للتعليم ولوسائل الإعلام على اختلاف أنواعها: المرئية والمسموعة والمكتوبة، لغة للخطاب السياسي والمخاطبة والثقافة العربيتين. أعتقد أن جميع المقدمات اللازمة لتحقيق هذا الهدف متوافرة في الوقت الحاضر نظرا لوجود الوعي بالانتماء إلى حضارة مشتركة، ومستوى التعليم والإرشاد في جميع البلدان العربية والثورة المعلوماتية التي تساعد على التواصل بين جميع أبناء الأمة العربية في كل مكان مهما كانت المسافات أو العوامل السياسية والجغرافية التي باتت غير قادرة على إعاقة تحقيق هذا الهدف، ولكن على المؤسسة السياسية كذلك أن تؤدي واجبها ودورها في هذا المجال.

أشرت سابقا وأود أن أؤكد مجددا على العلاقة الوثيقة القائمة بين الثقافة العربية والعروة الوثقى من جهة، وبين مصير اللغة الفصحى من جهة أخرى، وعلى أن اللغة الفصحى مرتبطة ارتباطا عضويا ومقرونة بوجود الإسلام والقرآن الكريم، وأن هذا الدين وهذه اللغة سيبقيان إلى أبد الآبدين تحديا لجميع محاولات تخريب الوحدة اللغوية والثقافية العربية».

ومشاركة نيقولا دوبريشان في المؤتمرات السنوية لمجمع اللغة العربية في القاهرة خلال الأعوام

روبر شان مع محرر الوعي الإسلامي

العشرة الأخيرة أتاحت له فرصة متابعة الجهود التي بذلها مجمع اللغة العربية في القاهرة للتقريب بين الفصحى والعامية من أجل تذويب الفوارق القائمة بينهما في نهاية الأمر، وفرصة متابعة القرارات والتوصيات الصادرة عن المؤتمرات من أجل صيانة سلامة العربية الفصحى. وقد أعلن دوبريشان تأييده لهذه السياسة اللغوية، واستمر في موقفه هذا، ومن خلال مجلة مجمع اللغة العربية وسائر المطبوعات.

جسور تواصل

ويرى أنه يجب على المستعربين أن يظلوا وسطاء وجسور تواصل بين ثقافات بلادهم وبين الثقافة العربية من أجل تقديم وتعريف الإبداعات الأدبية والثقافة والحضارة العربية لشعوبنا. وقد ترجم من اللغة العربية إلى اللغة الرومانية أكثر من ٢٠ كتابا من الأدب العربي. وكتب من دون انقطاع أخبارا ومقالات عن هذا الأدب في المجلات الأدبية والثقافية الرومانية، ومنها على سبيل المثال: إعداد وترجمة «انطولوجيا القصة العربية القصيرة» إلى اللغة الرومانية، وصدر في عام ١٩٨٠م في مجلدين بأكثر من ٦٠٠ صفحة، ويتضمن مجموعة نماذج قصصية من إبداع ٤٦ قاصا (بالترتيب الأبجدي من القاصين في الأردن وتونس والجزائر والسودان وسوريا والعراق وفلسطين والكويت ولبنان وليبيا ومصر والمملكة المغربية)، علاوة على دراسة مقدمة مسهبة ونبذ عن حياة ونشاط الأدباء المعنيين. «وضمن اهتماماتي بالمتشابهات والاتصالات بين الحضارة والثقافة الشعبية العربية والثقافة الشعبية الرومانية أعددت «انطولوجيا الحكايات والأساطير الشعبية العربية» في مجلدين (حوالي ٦٠٠ صفحة)، وصدر في عام ١٩٩١م، و«انطولوجيا الأمثال الشعبية العربية» وصدر في عام ١٩٧٦م، والمجموعتان المذكورتان مصحوبتان بدراسات مسهبة». ويضيف: «لكن عبقرية الروائي العربي المصري الكبير نجيب محفوظ جذبتني منذ السبعينيات من القرن الماضي، حيث ترجمت من إبداعه رؤية «السمان والخريف» في عام ١٩٧٤م ، ثم «الثلاثية» كلها (رواية «بين القصرين» في عام ١٩٨٤م، ثم رواية «قصر الشوق» في عام ١٩٨٧م، ثم رواية «السكرية» في عام ١٩٨٩م)، وجدير بالذكر أن جميع الكتب التي ذكرتها صدرت بآلاف النسخ ضمن مجموعة واسعة الانتشار في متناول يد القراء الرومانيين، بفضل ثمن الكتب المعقول، وبفضل صدور الكتب بانتظام وبعدد كبير من النسخ. ثم ترجمت رواية «ثرثرة فوق النيل» في عام ١٩٩٧م، ورواية «أولاد حارتنا» وهي تحت الطبع هذه الأيام. وأضيف إلى كل ذلك رواية «عمارة يعقوبيان» التي ترجمتها وصدرت في رومانيا في عام ٢٠٠٧م».

حياة محمد

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، اهتم نيقولا دوبريشان كذلك بالثقافة الإسلامية، واعتبر ترجمة «حياة محمد» لمحمد حسنين هيكل، الصادر في عام ١٩٩٩م، وبخاصة ترجمة معاني «القرآن الكريم» المقرونة بالتفسير والكثير من الهوامش (حوالي ١٢٠٠ صفحة) تتويجا لنشاطه في مجال نقل الكتب العربية إلى اللغة الرومانية.

وقد انطلق في نشاطه في مجال الترجمة من القناعة بأن الأدب العربي القديم يمثل صفحة ذهبية في تاريخ آداب العالم تتميز بأصالتها وخصوصيتها، باعتباره ملأ فراغا وضمن الانتقال من الآداب الكلاسيكية اليونانية واللاتينية إلى الأدب الحديث، «وأعددت انطولوجيا الشعر العربي بحوالي ٦٠٠ صفحة، في مجلدين، وترجمت هذه المجموعة بالتعاون مع مجموعة مستعربة من تلاميذي إلى اللغة الرومانية. وتتضمن المجموعة، التي اخترت النماذج التي أدرجتها فيها، من الدواوين المنقحة لقصائد من إبداع ٤٦ شاعرا من شعراء العصر الجاهلي، والعصر الأموي، والعصر العباسي، والشعر الأندلسي، علاوة على حوالي مائة صفحة من عروض العصور ونبذ الشعراء. وقد صدرت المجموعة في عام ١٩٨٢م . أما الأدب العربي الحديث فقد تجاوز منذ زمن بعيد مرحلة البدايات والتجارب وعليه أن يتخلص من الحياء والتواضع، إذ يقف بفخر إلى جانب سائر آداب العالم، ويسهم إسهاما أصيلا متميزا في تيار الأدب العالمي، ولاشك في أن العولمة الثقافية لن توفق أبدا في إلغاء لغات معينة غير مرغوب فيها ولا آدابها ولا الإسهامات الأصيلة الخصوصية لمختلف الأمم في التراث العالمي».

وبمجهوده في مجال الترجمة أعد جيلا جديدا من المترجمين المهتمين بنقل الأدب العربي، سواء القديم أو الحديث، إلى اللغة الرومانية، والذين واصلوا وأكملوا مجهوداته في هذا الميدان. ومن واجب هذا الجيل أن يطلع القراء الرومانيين على المستجدات والتطورات الحاصلة في الأدب العربي المعاصر، وأن يواصلوا نجاحاته التي هي في وجهة نظره «متواضعة».

سر شفاء عبد الرحمن

محمد ثابت توفيق
قاص مصري

قالتْ زوجه:
. عبدالرحمن متعب يا حاج.. أتوا به من جامعته محمولا منذ قليل.. لقد صدقه قلبه الحديث، فإن المال الوفير ورغد العيش لابد معه من منغص..
. رحماك ربي.. ابني الأخير.. وحيدي.. وعون تجارتي المنتظر من البشر، ألحقته بكلية التجارة خصيصا لذلك، ورجوت منك أن يكون مطيعا، فقبلتَ بلطفك دعواتِ عبدك المقصر، وكنت أعده لِلوقوف إلى جوار ثلاث فتيات يكبرنه في مشوار حياتهن من بعدي..
نظر إلى وجهه ملتاعا..
يوشك أن يغيب عن الوعي..
. بني ماذا حدث؟!
تمر البرهة تلو الأخرى وهو متسمر يتمتم:
. اللهم أجرني في مصيبتي وأخلفني خيرا منها..
يفتح الصغير عينيه في وهن شديد، ينتظر كلماته، ويمر الصمت به مدويا، إلى جواره بناته الثلاث وزوجه، وهو الرجل مضرب المثل في السوق بتماسك الأعصاب.. ملاذ جميع العائلات، متى ضاقت الدنيا بهم، وأرادوا الاستقواء بأحد من البشر، لكنه يحاول التماسك، فما يستطيع، ويعاني من رغبة قوية في البكاء، هتف بنفسه:
... وأمه ماذا تفعل، إن رأتني كذلك، وأخواته.. لعله أمر طارئ.. وعكة مفاجئة.. بل قلبي يحدثني أن الأمر خطير.. ليس لي سواك يا كريم..
تلاحقتْ إلى ذهنه صور متعاقبة، نشأته يتيما، بِرُّه بوالدته، تدرجه التعليمي الصعب، بعد وفاة أبيه، اضطراره لاختصار الرحلة من أجل إخوته، تلطمه في الأسواق، رزق ربه الواسع مع مجيء أولى البنات، تعلقه بأبوابه تعالى مع الثانية، الرزق بلا حساب مع الثالثة، ظنه أن أيام تلطمه مرتْ إلى الأبد، مع استقرار مؤسسته التجارية، دعوته الله تعالى أن يمن عليه بالابن، سعادته الغامرة بميلاد عبدالرحمن، رعايته له دون تبذير أو تقتير..
خطوات ثقيلة من خلفه.. يد تقبض على كتفه:
. أمي.. ادعي له الله..
. هل قصرت مع ربك يا بني؟!
يعاني الآن تماما، ابنه لا يجيب، ودمعة تعرف طريقها، وأمه كعادتها في الحق واضحة، يمد يده ليلتقط هاتفه النقال فتصطدم بالمفاتيح فتخرجها بدلا منه، ويكاد يضعها على أذنه.. في الآونة الأخيرة ارتكن إلى الحياة الدنيا، يظن أنه لم يقصر في صدقة أو زكاة، ولكنه صار يجد شيئا من فخر بالنفس كلما قصده قاصد أو مد يدا بالعون..
في المستشفى الخاص قال الطبيب بعد ساعات من مكثف التحاليل والأشعة:
. لا أخفيك سرا.. مرضه غير يسير..
مادتْ الأرض من أسفل قدميه، وتلمس الطريق إلى جبهته فوصلتْ يده بصعوبة، لكنه استرجع..
في أكبر مستشفى

متخصص في أمراض الدم بإحدى العواصم الأوروبية قال الطبيب بلا شفقة:

. سرطان في الدم.. واكتشاف غير مبكر.. نظام علاج قاس.. ولا تكرر أسئلة تبدأ ب «متى» علي..

بكى لحظتها في عنف جذب انتباه العابرين واستوقف العرب في المستشفى، ولم يزد على كلمات:

. ليس لي إلاك.. يا رب..

أدمن السفر بين بلده ومستشفى ابنه، علق تجارته حتى حين.. لما تماسك الابن قليلا قال:

. لي عندك رجاء يا أبي.. خذني إلى بلدي..

. أهي النهاية؟!

قال الطبيب:

. لا ضير.. لكن لا تنس العلاج والميعاد..

فيما كانت عيناه تضيفان:

... إن كانت به ماتزال حياة..

. ابدأ صفحة جديدة يا بني.. إن أردتَ أن يهبه الله إليك من جديد..

لم يملك إلا أن يقول:

. سمعا وطاعة يا أمي..

عرفت الأسواق «الحاج» كما لم تعرفه من قبل، أكثر تعاطفا مع المنافسين، يبغي هامش ربح قليل مع الأغنياء، يبيع السلعة بثمنها أو أقل، حسب حالة المشتري، ورغم تساقط شعر عبدالرحمن، وعدم قدرته على المشي، استذكر، وقرر دخول امتحان العام النهائي من الكلية، ذهب معه -دامع العينين- حتى كرسي الامتحان، وراعته خطوات العميد في أول يوم، وأغلب المتواجدين من الأساتذة والزملاء:

. ستكون بخير.. وفقك الله!

سأله في يوم الامتحان الأخير:

. هل ستنجح يا عبدالرحمن؟

. في امتحان الدنيا نعم يا أبي..

بكى الحاج وهو يقود السيارة من جديد:

. أين تريد أن نذهب؟

. إلى السوق الشعبي يا أبي..

. أو اشتقت التسوق؟

لدى القصاب قال:

. توقف هنا يا أبي من فضلك..

. أو تريد لحما طازجا؟

نزل بنفسه، حياه صاحب المحل، ابتسم له، دقق في المحل أكثر، خفق قلب الأب: ترى عمن تبحث صغيري الحبيب!، لمعتْ عيناه وتوقفتا عند امرأة عادية المظهر تسأل:

. هل انتهيت؟!

. معنا ساعة..

قال الجزار بعد أن مضت المرأة، وعينا عبدالرحمن تنظر إلى مكان انتظارها في وهن:

. إنها تسأل عن نوع من العظام مختلط بلحم تطهوه لأبناء أيتام..

. لا تدعها يا أبي من فضلك، فلا أستطيع البقاء.. فضلا لا تهبها عشرات الكيلووات من اللحم اليوم.. رأيناها معا منذ شهور بعيدة.. وما فطنا.. أعطها من مال الله لديك دائما.. مفتاح السيارة من فضلك..

هرول الحاج وراءها:

. كم كيلو يلزم أبناءك كل أسبوع؟.. بسرعة، نعم، لا أمزح.. لا تردها أخي الجزار، ولا توقفها، وسأعطيك مبلغا مقدما، بل تعالي معي إلى محل الدواجن، لا، لم ننته بعد، أكبر محل خضراوات.. وكم كيلو فاكهة.. كله من فضل الله.. إنما هو ماله..

ابتسمتْ عينا عبدالرحمن لما التقتا بعيني الأب.. ونام هانئا تلك الليلة، ولم يتأوه طوال ساعاتها، ولم يطلب الأب قسم الطوارئ من المستشفى بالليل، عند الفجر صلى مع أبيه في مسجد المطار، بعد ساعات كانا أمام الطبيب المختص بمتابعة حالته، نظر في جديد الفحوصات:

. لا وقت لدي للعبث.. من فضليكما..

. عبث؟!

. أريد فحوصات ابنك عبدالرحمن المريض.. لا هذا المعافى، فيبدو أن لديك ابنين بنفس الاسم..

تعالى صراخ الأب، وتدخل طاقم العمل الطبي، والعرب بالمستشفى، وتكررت تأكيدات الطبيب بنبرات متعددة:

. هذا الشاب سليمٌ معافى تماما.. لم يعرف المرض الذي عرفه أخوه المريض.. ومن المستحيل أن يكون هو..

هتفت الفكرة بقلب الأب، فجذب ابنه بعيدا عن الزحام قائلا في تهدج صوت، ودموع غزيرة، وقلب ساجد لرب العزة، بل سجد به:

. يا بني.. كما قال الرسول ﷺ: «صدقة السر تطفئ غضب الرب»

كان عبدالرحمن منتبها تماما إلى الموقف:

. وقال ﷺ أيضا: «والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه».

مذكرات علي كمال نموذجا

حلب في الأدب التركي الحديث

عبد الستار الحاج حامد
ماجستير في الأدب التركي

علي كمال: روائي وصحفي وسياسي تركي من أبرز المفكرين والأدباء في الأدب التركي الحديث. نفي إلى حلب عام ١٨٨٩م، وأعدم ميدانيا بسبب مواقفه السياسة عام١٩٢٢م. أقام علي كمال في ولاية حلب ست سنوات، عمل خلالها في وظائف مختلفة. أتيحت له فرصة التعرف على الولاية ومناطقها المختلفة. أعطى حيزا لا بأس به لولاية حلب في مؤلفاته، ولا سيما مذكراته. قدم الكاتب معلومات قيّمة تسلط الضوء على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية لولاية حلب في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. تحدث عن الإيجابيات التي رآها في الولاية ولم يهمل ذكر سلبياتها، كما أورد بعض الحكاية الغريبة المتعلقة بأهلها.

الكلمات المفتاحية: علي كمال، الأدب التركي الحديث، ولاية حلب، مذكرات.

أعطى الأدب التركي الحديث – الذي يؤرخ لبدايته بعام ١٨٤٠م مع صدور مرسوم التنظيمات في الدولة العثمانية – مكانة هامة للبلاد العربية، ولا سيما بلاد الشام، وبشكل خاص في الفترة التي كانت فيها تلك البلاد تحت سيطرة الدولة العثمانية. فثمة قسم لا بأس به من الأدباء الأتراك عاشوا قسما من حياتهم في بلاد الشام، فمنهم من عاش طفولته فيها، مثل الروائية والكاتبة فاطمة عالية جودت، والروائي محمد جلال، ومنهم من عمل موظفا لدى الدولة العثمانية، من أمثال الشاعر والطبيب المشهور: جناب شهاب الدين، والروائية: خالدة أديب أدوار، والروائي: نابي زادة ناظم، ومنهم من نفي إلى تلك البلاد، مثل الكاتب والسياسي الكبير:

علي كمال، والروائي: رفيق خالد قايا. لذلك كان من الطبيعي أن يفرد هؤلاء الكتاب لسورية في كتاباتهم، ولاسيما في جنسي الرواية والمذكرات حيزا لا بأس به (١).

في هذا البحث سنتوقف عند مذكرات أهم هؤلاء الكتاب، وهو الكاتب والسياسي والصحفي المشهور علي كمال، الذي تكمن أهميته في كونه سياسيا ومفكرا إضافة لكونه أديبا وشاعرا، عاش في حلب ما يقارب ست سنوات في الفترة مابين عامي ١٨٨٩-١٨٩٥م ، كما كتب روايتين: «الأختان»، و«مغامرة في الصحراء»، تدور أحداثهما في سورية، واختار شخصيات هاتين الروايتين من السكان المحليين والموظفين الأتراك في سورية.

ولد علي كمال في حي السليمانية، أحد أقدم أحياء إسطنبول في ١٨٦٩م، لأسرة غنية وذات صلة بالموظفين الكبار في قصر السلطان العثماني. كان والد علي كمال تاجرا كبيرا ورجلا متدينا يمجد السلطان والدولة العثمانية، أما أمه فقد كانت جارية جركسية. درس علي كمال في مكتب الرشدية، إلا أنه وبسبب مشاكله الكثيرة طرد بعد سنوات من التحاقه به، بعدها التحق بدكان والده مع مواظبته على متابعة الدروس في جامع السليمانية، جذب علي كمال -الذي كان صاحب ذكاء- انتباه بعض المسؤولين في القصر -الذين كانوا على صلة بوالده- فتوسطوا له وأعادوه إلى المكتب. تتلمذ علي كمال في مكتب الملكية على أيدي أساتذة كبار في الأدب التركي، من أمثال الشاعر والناقد معلم ناجي، والشاعر والكاتب رجائي زاده محمود أكرم، في عام ١٨٨٥م أصدر علي كمال برفقة أصدقائه في مكتب الملكية أول جريدة له، ولم يتجاوز يومها السابعة عشرة من عمره، نشر فيها بواكير أشعاره وبعض كتاباته. وفي عام ١٨٨٧م قرر مع صديق له الهرب إلى فرنسا لمتابعة دراسته هناك، إلا أنه ما لبث أن عاد بعد سنة بسبب وفاة والده. عاد علي كمال من فرنسا بأفكار جيدة حملها معه، فأراد أن يؤسس جمعية طلابية في مكتب الملكية كتلك التي رآها في فرنسا، لكن ما لبث أن قبض عليه مع زملائه أثناء اجتماع الجمعية السري الثاني الذي كان يترأسه في منزله، وبعد التحقيق معه سجن لمدة ستة أشهر نفي بعدها إلى ولاية حلب في عام ١٨٨٩م. حضر علي كمال إلى حلب برفقة عائلته الصغيرة ليعمل أولا كاتبا في الولاية، ثم مفتشا وجابيا للضرائب يجوب المناطق والمدن المجاورة لحلب، كما عمل فترة من الزمن مدرسا للغة التركية في المكتب الإعدادي في حلب، عرف علي كمال بين زملائه بنزاهته وبتفانيه في عمله. في عام ١٨٩٥م عاد إلى إسطنبول لكنه ما لبث أن غادرها من جديد إلى فرنسا، حيث درس الحقوق والسياسة، كما عمل خلال تلك الفترة مراسلا لجريدة «إقدام» الإسطنبولية في باريس، وانضم إلى صفوف حركة «جون ترك» المعارضة، إلا أنه غادر صفوفها سريعا لقناعته بعدم جدواها ليلتحق بوظيفة كاتب في سفارة الدولة العثمانية في سويسرا. في عام ١٩٠٠م توجه إلى مصر حيث عمل مديرا في مزرعة لأحد باشوات العثمانيين هناك، ولكن حدثت مشكلةٌ بينه وبين صاحب المزرعة فترك مصر عام ١٩٠٨م ليعود إلى إسطنبول. في فترة إقامته في مصر تزوج بفتاة إنكليزية تعرف عليها عندما كان يقضي عطلته في بريطانيا. بعد عودته إلى إسطنبول عمل رئيس تحرير في جريدة «إقدام»، ولكن وبسبب إنقلاب ٣١ أذار غادر إسطنبول إلى أوربة، ولم يعد إليها إلا بعد إصدار عفو عام ١٩١٢م، بعد الإطاحة بالاتحاديين الذين كانوا سببا لمغادرته إسطنبول. بعد عودته أصدر جريدة الصباح، وأسس حزبا سياسيا، وفي عام ١٩١٩م شغل منصب وزير المعارف لمدة شهرين، ثم شغل بعدها منصب وزير الداخلية لمدة لا تتجاوز بضعة أشهر (٢).

علي كمال عاش حياته معارضا للسلطة، فقد انتقد سياسات السلطان عبد الحميد، وانضم إلى معارضيه فترة من الزمن، كما كان خصما قويا لحركة الاتحاد والترقي وللحركة الشعبية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، حيث انتقد هاتين الحركتين في كتاباته الأمر الذي أدى لإعدامه ميدانيا دون محاكمة في إزميت عام ١٩٢٢م، بعد نجاح الحركة الشعبية في الوصول إلى إسطنبول.

علي كمال وإن كان قد عارض بعض سياسات الدولة العثمانية وانتقدها في مقالاته، إلا أنه بقي طوال حياته مدافعا عن الخلافة العثمانية، الأمر الذي جعل الروائي بيامي صفا يقول: «السياسة العثمانية أعدمت ميدانيا مع علي كمال في إزميت» (٣).

يتقن علي كمال التركية والعربية والفرنسية والإنكليزية، وخلف العديد من الكتب والروايات أهمها: عمري (مذكرات نشرها على شكل مقالات في جريدة الصباح أولا، ثم جمعت في كتاب بعد وفاته)، صفحة الشباب، صفحة التاريخ، الأختان (رواية)، مغامرة في الصحراء (رواية)، فترت (رواية)، رجال الاختلال، تونس، راشد مؤرخ أم شاعر، علم الأخلاق، إضافة لعدد من الكتب التي ترجمها عن الفرنسية، ناهيك عن مقالاته الأدبية والسياسية التي تزيد عن ١٠٠٠مقالة، عرف من خلالها بأسلوبه القوي وجرأته.كما ترجمة بعض أثاره إلى اللغة الفرنسية (٤).

عاش علي كمال في حلب بين عامي ١٨٨٩ و١٨٩٥م، وبحكم وظيفته كمفتش وجاب للضرائب أتيحت له فرصة التجول في مختلف المدن السورية، والتعرف على السكان المحليين والبدو، إضافة للموظفين والولاة الأتراك الذين كانوا يعملون هناك، وقد تحدث في مذكراته المسماة «عمري» بشيء من التفصيل عن ولاية حلب.

تحدث الكاتب في مذكراته عن ولاة حلب مبرزا سلبيات وإيجابيات كل وال من هؤلاء الولاة، ذاكرا أهم صفاتهم وأعمالهم التي قاموا بها في الولاية، مبينا السياسات التي انتهجوها في إدارة الولاية وانطباعات الأهالي عنهم. ومن الولاة الذين تحدث عنهم الكاتب جميل باشا، يبدو جميل باشا في مذكرات الكاتب واليا شجاعا صارما لا يفرق بين الأشراف وعوام الناس، استطاع تحقيق الأمن والاستقرار في الولاية، كما وضع حدا لتدخل القناصل في شؤون الولاية، كما قام بتوسيع مدينة حلب بإنشاء الحي المعروف حتى يومنا هذا بحي الجميلية نسبة لهذا الوالي، لكن هذا الوالي كان يدير الولاية بطريقة كيفية بعيدة عن القانون مما جعله عرضة لشكاوي الأهالي الأمر الذي أدى لعزله.

أما حسن باشا فيبدو واليا متدينا ونزيها لا يأخذ الرشوة، يمضي جل وقته في قراءة القرآن الكريم، ومثنوي جلال الدين الرومي، يحب السلطان عبد الحميد الثاني كثيرا، بيد أنه ضعيف إلى درجة أنه لا يستطيع عزل الموظفين الفاسدين، كما أنه يخاف من الأجانب الذين كانوا يعيشون هناك، وينجز أعمالهم بسرعة.

أما عارف باشا فيبدو في مذكرات علي كمال واليا فاسدا ضعيفا ليس لديه خبرة في إدارة أمور الولاية، فقد عمّت الفوضى الولاية في فترة ولايته، ولم يستطع توفير الأمن والاستقرار في الولاية، الأمر الذي جعله عرضة لشكاوى الأهالي وفي مقدمتهم عبد الرحمن الكواكبي.

يذكر علي كمال أهم السلبيات للدولة العثمانية في ولاية حلب، يرى الكاتب الذي عمل مفتشا وجابيا للضرائب في الولاية أن الرشوة والفساد من أهم السلبيات في الولاية، فقد كانت الرشوة شائعة إلى درجة أن الناس لم يعودوا يتصورون موظفا لا يأخذ رشوة، فحتى المتدينين من الموظفين كانوا مرتشين. على الرغم من تحريم الدين والقانون الرشوة إلا أنها بقيت منتشرة في الولاية لانتشار الفساد. وبسبب هذا الفساد كانت الدولة تخسر الكثير من الأموال، فالسكان كانوا يتهربون من دفع الضرائب للدولة عن طريق رشوة الموظفين، أما ما كان يجمع من أموال الضرائب فيسرق من قبل الموظفين الفاسدين، وكان يتم ذلك بشكل علني دون خوف أو وجل، لكن الكاتب يعود ويقول في مكان آخر من مذكراته أن الموظفين على الرغم من ذلك كانت مخافة الله ومخافة السلطان تسكن قلوبهم، فلا يتمادون في أخذ الرشوة والفساد كثيرا.

ويورد الكاتب في مذكراته بعض الحكايات المتعلقة بالفساد المنتشر في الولاية، بعض تلك الحكايات جرى أمام عينيه، وبعضها الآخر سمعه من الناس. فمن حوادث الفساد التي كان شاهدا عليها حادثة سرقة ضرائب الأغنام في قضاء الباب، حيث أرسل للتحقيق في هذه القضية، فقد كانت بعض القبائل البدوية تحط رحالها في هذا القضاء، الأمر الذي يوجب عليها دفع ضريبة للدولة، لكن قائم مقام ومدير المال وأمين الصندوق في قضاء الباب اتفقوا على سرقة قسم كبير من الضرائب، وذلك من خلال إعطاء إيصالات للبدو بالمبالغ التي دفعوها لكنهم كانوا يسجلون واحدا بالمئة من تلك المبالغ في دفتر الإيصال.

ومن حكايات تسلط الأقوياء على البسطاء حكاية المتنفذ حسن بيك زاده الذي كان يتهرب من دفع الضريبة للدولة، إضافة إلى تصرفه وكأنه هو الحاكم في الولاية. يروي الكاتب حكاية شاب مسيحي مر راكبا على بغل وعربة بالقرب من بستان من بساتين المتنفذ حسن، فقام بقطع غصن من أغصان شجرة دراق ليستعمله كرباجا، وفي أثناء ذلك رآه البستاني، فأخذه إلى المتنفذ حسن الذي بدأ بحساب قيمة الثمار التي كان سينتجها هذا الغصن في السنوات القادمة، فنتج عن هذا الحساب مبلغ كبير من المال يساوي ثمن البغل والعربة فأخذهما وخلى سبيل صاحبهما.

ويذكر الكاتب حكاية أخرى من حكايات هذا المنتفذ سمعها من الناس، ولا يعرف إن كانت صحيحة أم لا، تقول الحكاية أن حسن بيك كان عنده بيت كبير بمحاذاة حي بحسيتا، وأراد أن يوسع هذا البيت قليلا، وكان بجانب البيت بيتٌ صغيرٌ ليهودي فقير، فقرر حسن بيك أخذ هذا البيت ليوسع بيته، لكنه لم يرد دفع المال مقابل ذلك، فوجد حيلة استطاع من خلالها الاستيلاء على البيت، حيث طلب من جاره اليهودي الفقير الاعتناء بدجاجاته لأنه سيذهب إلى منزله الصيفي، لم يستطع اليهودي رد طلب حسن بيك خوفا منه، ولأنه فقير لم يكن يستطيع إطعام الدجاجات، في نهاية المطاف اضطر إلى بيعها، وبعد سنوات طلب حسن بيك من اليهودي الدجاجات قائلا: «فين جيجات فين بيضات» (أين الدجاجات وأين البيضات)، ولكن اليهودي كان قد أضاع الدجاجات، فبدأ حسن بيك بحساب ثمن الدجاجات وثمن الفراخ التي كانت ستفقس من البيض، فنتج عن هذا الحساب أن اليهودي أصبح مدينا لحسن بيك بمبلغ كبير من المال يعادل ثمن منزله الصغير، فاستولى

على هذا المنزل (٥).

يتحدث الكاتب في مذكراته عن المنشآت التي بنيت في الولاية في ذلك الوقت، ومن أهمها المكتب الإعدادي (ثانوية المأمون حاليا)، الذي لم يكن له مثيل حتى في إستطنبول، فقد جلب أثاثه من باريس، بالإضافة إلى مزرعة تجريبية تم انشاؤها بمساع من مدير الزراعة واهان سورينيان.

في ما يتعلق بعلاقة الشعب مع الدولة العثمانية لاحظ الكاتب أن السكان كانوا يحبون السلطان عبدالحميد الثاني والدولة العثمانية، ويظهرون هذا الحب، ويحاولون أن يطبقوا أوامره قدر المستطاع، وعندما كانوا يتعرضون للظلم كانوا يفضلون مراجعة السلطان على اللجوء إلى السلاح أو الثورة. و«كان الأشراف يتطلعون للحصول على نيشان أو ثناء من السلطان، فإذا حصل الواحد منهم عل ثناء أو نيشان من السلطان كان يجن من الفرح» (٦).

أولى الكاتب أهمية كبيرة للتركيبة السكانية لمدينة حلب ذاكرا أهم الطوائف التي كانت تسكن هناك وأشهر العوائل في المدينة. يذكر الكاتب أهم العوائل الحلبية المسلمة من مثل الجابري وكيخيا والمدرس والشريف والسباعي، ويتحدث عن وضع كل عائلة من هذه العوائل، فيذكر أن عائلة الجابري هي الأكثر عددا، وكان زعيم هذه العائلة «حجي أفندي» والد نافع أفندي الجابري، الذي كان يبلغ الثمانين من عمره، لكنه كان قوي البنية، ففي الوقت الذي كان يزوج فيه أحفاده كان عنده ولد في المهد. أما نافع أفندي الجابري الذي انتخب عضوا في مجلس المبعوثان كان ذكيا داعيا من دعاة الحرية، محاربا للاستبداد. أما رئيس عائلة كيخيا التي تتركز معظم أملاكها في منطقة حارم، فقد كان أحمد أفندي الذي كان يملك العديد من الخانات بجوار القلعة مليئة بالسجاد والتحف القديمة، بالإضافة للقصر الذي كان يسكن فيه. أحمد أفندي كان يعرف بأخلاقه الحميدة وتدينه، فقد كان عضوا مستقيما نزيها في مجلس الولاية لا يعرف التملق، وكان لا يهاب الاصطدام مع الولاة في سبيل الوصول إلى الحق، إلا أنه كان يربي أولاده وفقا للأصول القديمة ولا يحب التجديد.

أما عائلة المدرس فقد كانت أغنى العوائل في المدينة، كان رئيس هذه العائلة زكي بيك، الذي كان عضوا في مجلس الإدارة، كما كان غنيا جدا وماكرا ومتملقا. زكي بيك كان كاتبا صغيرا لكن بدهائه أصبح أحد أعضاء مجلس الولاية. كان يحب نفسه كثيرا ففي الفترة التي انتشرت الكوليرا في حلب انزوى في مزرعة له، ولم يعد يخالط الناس، كما كان يرتدي معطفه في شهر آب خشية البرد.

الهوامش

١- انظر Kefeli، Emel، Edebiyat Coğrafyasında Akdeniz، İstanbul: F Yayınevi، ٢٠٠٦، ص١٤٨،١٥٣،١٦٤.

٢- انظر Uzun، Mustafa، "Ali Kemal" DİV، Türkiye Diyanet Vakfı، c.٢، İstanbul ١٩٨٩، s. ٤٠٥-٤٠٧.

٣- انظر Gezgin، Faruk، Ali Kemal Bir Muhalifin Hikâyesi ، İsis yay، İstanbul ٢٠١٠، S. ٢٣٨.

٤- انظر المرجع السابق ص ٢٤٧-٢٤٨.

٥- Ali Kemal، Ömrüm-Ali Kemal، haz Kayahan Özgül ، Hece yay، Ankara ٢٠٠٤، S. ١٦٩-١٧٠.

٦- انظر المرجع السابق ص ١٩٣.

عفوا أبا تمام

أسامة الخريبي
عضو رابطة الأدب الإسلامي

يا صاحبيَّ تقصيا نظريكما ... تريا ربوع الشام كيف تدمر
تريا دمارا ماحقا قد صاغه ... جيش على إخوانه يتجبر
تريا المنازل والمساجد دمرت ... حنقا فليس مؤذن ومكبر
والناس ترفع حسرة أنقاضها ... فيزيدها القصف اللئيم ويفجر
تريا جياع الخبز كيف تناثرت ... أشلاؤهم مثل الزجاج يكسر
حتى الألى طلبوا الوقود جرى لهم ... مثل الذي للخبز.. بل هو أكبر
حرقوا بفعل الزيت ثم تمزقوا ... بالقصف ثم تناثروا وتبعثروا
نام الضمير ونام نبل عروبة ... كانت قديما تستثار فتثأر
نامت قلوب لو صحت عزماتها ... لبكت لما يدمي القلوب ويأسر
شعب يعيش لدى الملاجئ نصفه ... والنصف يحرق بالدمار ويشطر
نالت ثلوج البرد من خطواتهم ... ومشى الشتاء على الخطى فتعثروا
طفل يصيح.. وأمه مكلومة ... والجوع يصرخ في البطون وينخر
شعب توزع في الشتات مشردا ... واللاجئون على الخيام تقاطروا
يتسولون الخبز من جيرانهم ... طورا تجيب.. وتارة تتنكر
وهم الألى صنعوا الحضارة قادة ... ومشوا إلى المجد التليد وشمروا
وهم الذين تفجرت جنباتهم ... علما.. وتاريخا ولم يتأخروا
أإذا أصيبوا بالشدائد حقبة ... كنا عن العون السريع نقصر؟!
عفوا أبا تمام كل قصيدة ... لم تصطبغ بالنار فهي الخنجر

ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعية والمعلومة الصحيحة المنضبطة، فقد رأت المجلة التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقا لما يلي:

ما يتعلق بالكاتب

- يكون الكاتب متخصصًا في مجال كتابته.
- إرسال صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة إلى سيرته الذاتية.
- ترسل المشاركات باسم رئيس التحرير.
- يذكر العنوان كاملاً، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، و البريد الإلكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- يكتب المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- تكون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مخرجة.
- تذكر المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية عند الاقتباس أو الإستعانة بمصادر ومراجع.
- لا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، ويبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- تقرن الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال قد سبق نشره في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.
- في حال تأخر النشر، يفيدنا الكاتب برغبته في نشر مقالته بمكان آخر حتى يتم استبعادها من خطة النشر مستقبلا.

ملاحظة:

-المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها لأن المجلة لن تستقبل أي مادة ورقية ترسل عبر العنوان البريدي.

علما بأن البريد الإلكتروني: info@alwaei.com

الوعي الإسلامي

مقدمة نفيسة
«الوافي بالوفيات»..

التحرير

هو المؤرخ الأديب: خليل بن أيبك صلاح الدين الصفدي، ولد في صفد (بفلسطين)، وإليها نسبته، وكانت ولادته سنة ست وتسعين وستمائة (٦٩٦هـ)، قرأ علوم الشريعة وعلوم الآلة، وبرع في الأدب نظما ونثرا وكتابة وجمعا، وعني بعلم الحديث، وصنف الكثير في التاريخ والأدب؛ حتى قال عنه تاج الدين السبكي: «قال لي: إنه كتب أزيد من ستمائة مجلد تصنيفا، وكانت له همة عالية في التحصيل»، وتولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، وتوفي فيها.

ذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال بالعلم وتحصيله، حتى استوفى عشرين سنة وطلب بنفسه، فطاف مع الطلبة، وكتب عن أهل العلم، وقال الشعر الحسن، وأكثر منه جدا، وترسل وألف كتبا كثيرة؛ منها: التاريخ الكبير الذي سماه «الوافي بالوفيات»، وشرح «لامية العجم»، وله: «ألحان السواجع بين المبادئ والمراجع»، و«جر الذيل في وصف الخيل»، و«كشف الحال في وصف الخال».

كان -رحمه الله- حسن المعاشرة جميل المروءة، وكان إليه المنتهى في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم.

قيمة «الوافي بالوفيات» للصفدي

مجموعة كبيرة من الكتب التاريخية والأدبية وغيرها، وتعتبر في جملتها دررا في عالم التأليف، غير أن كتابه «الوافي بالوفيات» يعتبر رأس هذه المؤلفات وأجودها، فهو بحق موسوعة تاريخية وسياسية وأدبية ونقدية، ولم يقتصر «الوافي بالوفيات» على طائفة محددة من الأعلام، بل شمل بالترجمة الجاهليين، والصحابة الكرام، وتابعيهم، والملوك والأمراء والسلاطين، والقضاة والعمال والوزراء، والقراء والمحدثين والفقهاء، والنحاة واللغويين والأدباء، والحكماء والفلاسفة والأطباء، بل تطرق بالترجمة للمبتدعة وأهل الأهواء..

وهو كتاب يترجم لمن حدثت وفاته قبل سنة ٧٦٤هـ، وهي سنة وفاة المؤلف، وهذا في الغالب، وليس شرطا دائما، بل إنه يتخلف أحيانا في بعض التراجم.. إنه كتاب مهم في بابه، لأنه يضم أكثر من أربعة عشر ألف ترجمة، وكثير منها لا يعرف لها مصدر آخر غيره، كما يضم الكتاب الكثير من النكت العلمية والأدبية؛ في التاريخ، والنحو، والبلاغة، والفقه، والطب، وتعتبر مادة خصبة لدراسة جديرة بالتبويب.

وقد اشتمل الكتاب على مقدمة نفيسة، لا يليق بباحث في التاريخ أو الأدب أو العلوم الإنسانية عموما أن يهملها، فهي ديباجة رصينة حوت من المعارف رؤوسا لا يستغنى عنها، وهي معدودة في الأعلاق النفيسة الممتعة، وهي من أشهر المقدمات النافعة في علم التاريخ، إذ صرح فيها الصفدي برؤية المؤرخ، وقيمة التاريخ، وأهمية كتابته، وتتبع أخباره.

وقد بين -رحمه الله- في صدر كتابه منهجه الذي سار عليه في جمع المادة، وطريقة بثها في ثناياه، وقد جاءت تراجمه ممتدة زمانيا، إذ تبدأ بما قبل الإسلام، وتنتهي ببعض من عاش في القرن الثامن الهجري، أي من الذين عاصرهم الصفدي، كما استوعبت التراجم مساحات مكانية واسعة، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

وقد أورد الصفدي -رحمه الله- في هذه المقدمة النفيسة أحد عشر فصلا، تناول فيها علم التاريخ،

فتحدث عن طريقة تأريخ العرب في الجاهلية، وأقدم التواريخ التي بين أيدينا وأصولها، وبيان كيفية كتابة التاريخ، وترتيب المؤرخين لكتبهم، وطريقتهم في النقد التحليلي للنصوص التاريخية، ويذكر جردا مطولا للكتب التاريخية؛ وقد صنفها حسب التراجم التي اختصت بها، فمنها: كتب تاريخية مصرية، وأخرى شامية وثالثة مغربية وأندلسية ويمنية وغير ذلك.

كما قدم الصفدي طائفة من القضايا اللغوية والإملائية التي لا يسع المؤرخ جهلها؛ منها دراسة كلمتي التاريخ والوفاة وجذريهما اللغويين، وطريقة المؤرخين في ضبط الأسماء بالعبارة وحروف الهجاء، وإذا وقفنا عند مصادره التي استمد منها مادته وجدناه قد اعتمد على مجموعة من كتب التاريخ والسير والتراجم والطبقات، المطبوعة والمخطوطة والمفقودة، كما اعتمد الصفدي في بعض تراجمه ومادته التاريخية على من عاصرهم، فقد ترجم لمئات منهم، وسرد فصولا من أخبارهم، ومن أهم ما ذكره مما عاصره أخبار الدولة المملوكية التي تخفى تفاصيلها على الكثيرين ممن لم يقتربوا من البلاط قربه، فقد كان، رحمه الله، من كتاب الإنشاء، وكانت له منزلة عالية عند الأمراء، مما خوله من الاطلاع على المكاتبات المملوكية وشؤونها السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها.

كما أن لكتاب «الوافي بالوفيات» قيمة أدبية راقية، تتمثل في الانتخاب الشعري الذي جعل من الكتاب خزانة أدبية ثرية لكثير مما حفلت به دواوين الشعراء، فالصفدي شاعر ناقد ذواق، له اطلاع واسع على الموروث الشعري المتقدم عنه والمعاصر له، وعنده حس نقدي بليغ.

فصول المقدمة ومحتوياتها:

الفصل الأول: ذكر الصفدي فيه أن العرب كانت تؤرخ في بني كنانة من موت كعب بن لؤي، فلما كان عام الفيل أرخت منه، وكانت المدة بينهما مائة وعشرين سنة، وأرخ بنو إسماعيل - عليه السلام - من نار إبراهيم عليه السلام إلى بنائه البيت، ومن بنائه البيت إلى تفرق معد، ومن تفرق معد إلى موت كعب بن لؤي.. ومن عادة الناس أن يؤرخوا بالواقع المشهور والأمر العظيم، وقد وقع خلاف كبير في أقدم التواريخ التي بأيدي الناس: فزعم بعضهم أن أقدم التواريخ تاريخ القبط؛ لأنه بعد انقضاء الطوفان.

وأقرب التواريخ المعروفة تاريخ يزدجرد بن شهريار الملك الفارسي، وهو تاريخ أرخه المسلمون عند افتتاحهم بلاد الأكاسرة، وهي البلاد التي تسمى اليوم «إيران»، وأما التاريخ المعتضدي فلم يتجاوز بلاد العراق، وفيما بين هذه التواريخ، تواريخ القبط والروم والفرس وبني إسرائيل، وتاريخ عام الفيل.

وأرخ الناس بعد ذلك من عام الهجرة، وأول من أرخ الكتب من الهجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة، وكان سبب ذلك أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه كتب إلى عمر أنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب لا ندري على أيها نعمل، فقد قرأنا صكا منها محله شعبان؛ فما ندري أي الشعبانين الماضي أو الآتي؟! فعمل عمر رضي الله عنه على كتب التاريخ؛ فأراد أن يجعل أوله رمضان، فرأى أن الأشهر الحرم تقع حينئذ في سنتين؛ فجعله من المحرم، وهو آخرها فصيره أولا لتجتمع في سنة واحدة، وكان قد هاجر صلى الله عليه وسلم يوم الخميس لأيام

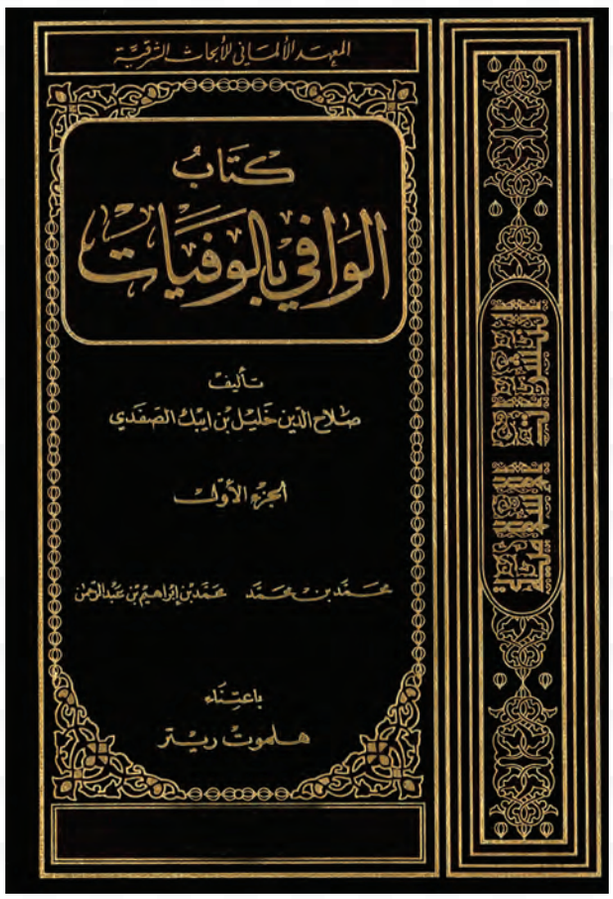

من المحرم؛ فمكث مهاجرا بين سير ومقام، حتى دخل المدينة، شهرين وثمانية أيام.

الفصل الثاني: تقول العرب: أرخت وورّخت، فيقلبون الهمزة واوا؛ لأن الهمزة نظير الواو في المخرج، فالهمزة من أقصى الحلق والواو من آخر الفم، فهي محاذيتها، ولذلك قالوا في وعد: أعد، وفي وجوه: أجوه، فعلى ذلك يكون المصدر: تأريخا وتوريخا بمعنى.

وقاعدة التأريخ عند أهل العربية: أن يؤرخوا بالليالي دون الأيام؛ لأن الهلال إنما يرى ليلا، ثم إنهم يؤنثون الذكر، ويذكرون المؤنث، على قاعدة العدد، لأنك تقول: ثلاثة غلمان وأربع جوار.. إذا عرفت ذلك، فإنك تقول في الليالي ما بين الثلاث إلى العشر: ثلاث ليال إلى بابه، وتقول في الأيام ما بين الثلاثة إلى العشرة: ثلاثة أيام وأربعة أيام وبابه.

الفصل الثالث: في كيفية كتابة التاريخ: تقول للعشرة وما دونها: خلون، لأن المميز جمع، والجمع مؤنث، وقالوا لما فوق العشرة: خلت ومضت لأنهم يريدون أن مميزه واحد، وتقول من بعد العشرين لتسع إن بقين وثمان إن بقين تأتي بلفظ الشك لاحتمال أن يكون الشهر ناقصا أو كاملا.

وقد منع أبوعلي الفارسي -رحمه الله- أن يكتب لليلة خلت، كما منع من صبيحتها أن يقال المستهل، لأن الاستهلال قد مضى، ونص على أن يؤرخ بأول الشهر في اليوم أو بليلة خلت منه.

وقال الحريري في «درة الغواص» والعرب تختار أن تجعل النون للقليل والتاء للكثير لأربع خلون، ولأربع عشرة ليلة خلت. قال: ولهم اختيار آخر، وهو أن تجعل ضمير الجمع للكثير الهاء والألف، وضمير الجمع القليل الهاء والنون المشددة؛ كما نطق القرآن: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ (التوبة: ٣٦) فجعل ضمير الأشهر الحرم بالهاء والنون لقلتهن، وضمير شهور السنة الهاء والألف لكثرتها.

فائدة: رأيت الفضلاء قد كتبوا بعض الشهور بشهر كذا، وبعضها لم يذكروا معه شهرا، وطلبت الخاصة في ذلك، فلم أجدهم أتوا بشهر إلا مع شهر يكون أوله حرف راء، مثل شهري ربيع وشهري رجب ورمضان، ولم أدر العلة في ذلك ما هي؟ ولا وجه المناسبة؟ لأنه كان ينبغي أن يحذف لفظ شهر من هذه المواضع؛ لأنه يجتمع في ذلك راءان وهم قد فروا من ذلك، وكتبوا داود وناوس وطاوس بواو واحدة؛ كراهية الجمع بين المثلين، وجرت العادة بأن يقولوا في شهر المحرم شهر الله، وفي شهر رجب شهر رجب الفرد أو الأصم أو الأصب، وفي شعبان شعبان المكرم، وفي رمضان رمضان المعظم، وفي شوال شوال المبارك، ويؤرخوا أول شوال بعيد الفطر، وثامن ذي الحجة بيوم التروية، وتاسعه بيوم عرفة، وعاشره بعيد النحر، وتاسع المحرم بيوم تاسوعاء، وعاشره بيوم عاشوراء؛ فلا يحتاجون أن يذكروا الشهر، ولكن لابد من ذكر السنة.

وقد يجيء في بعض المواضع نيف وبضع، مثل قولهم نيف وعشرين، وهو بتشديد الياء، ومن قال نيف بسكونها فذلك لحن، وهذا اللفظ مشتق من أناف على الشيء إذا أشرف عليه، فكأنه لما زاد على العشرين كان بمثابة المشرف عليها.

الفصل الرابع: النسب مما يضطر إليه المؤرخ: النسب هو الإضافة، لأن النسب إضافة شيء إلى بلد أو قرية أو صناعة أو مذهب أو عقيدة أو علم أو قبيلة أو والد، كقولك مصري أو مزي أو منجنيقي أو شافعي أو معتزلي أو نحوي أو زهري أو خالدي؛ فهذا المعنى إنما هو إضافة.

ولهذا كان النحاة الأقدمون يترجمونه بباب الإضافة، وإنما سميته نسبا، لأنك عرفته بذلك كما تعرف الإنسان بآبائه، وإنما زيد عليه حرف لنقله إلى المعنى الحادث عليه، طردا للقاعدة في التأنيث والتثنية والجمع.

المراجع:

كتاب الوافي بالوفيات..
مقدمة محقق كتاب: زبدة تجريد الوافي بالوفيات لابن حجر.

المؤسسة الأسرية.. وأدب الأطفال

عبد المجيد إبراهيم قاسم
كاتب دراسات تربوية

يمثل «أدب الأطفال» دعامة أساسية في بناء ثقافة الطفل، ووسيلة ذات أهمية بالغة في توجيه سلوكه، وتشكيل قيمه واتجاهاته، وتكوين شخصيته من النواحي العقلية والنفسية والاجتماعية. كما يشكل الاهتمام بهذا النوع من الأدب جزءا لا يتجزأ من عملية التربية لهذا الكائن الناشئ، ورافدا متميزا لها. ولا تنبع أهمية أدب الأطفال من كونه أداة تربوية مهمة لتنمية شخصية متوازنة للطفل فحسب، بل كونه يشكل عاملا في تنمية المجتمع والنهوض بمتطلباتها.

يعرف د. «علي الحديدي» أدب الأطفال بأنه: «خبرة لغوية في شكل فني، يبدعه الفنان للأطفال بين الثانية والثانية عشرة أو أكثر قليلا، يعيشونه ويتفاعلون معه، فيمنحهم المتعة والتسلية، ويدخل على قلوبهم البهجة، وينمي فيهم الإحساس بالجمال، ويقوي تقديرهم للخير ومحبتهم له، ويطلق العنان لخيالاتهم وطاقاتهم الإبداعية، ويبني فيهم الإنسان» (١).

لعل من أهم خصائص فنون أدب الأطفال، التي تتنوع بين الشعر والقصة والمسرح والمقالة والرواية، أن يلائم مدركات جمهوره -مضمونا وأسلوبا- وينسجم مع طبيعة نموهم من جميع جوانبه، ويعتمد أدوات تناسبهم وتساير ميولهم وقدراتهم. ولعل أهم وظائفه التي يسعى لتحقيقها أنه يشكل وسيلة جيدة للتعليم ولاستثارة الإبداع والكشف عن مواطنه لدى الأطفال، ويقدم معظم أشكال المعرفة التي تنمي قدراتهم العقلية والتعبيرية، وتغني أفكارهم وتوسع خيالهم ومداركهم، وأنه يهذب وجدانهم ويرقى بحسهم الجمالي، ويغرس القيم التربوية والسلوكية الإيجابية في نفوسهم، ويثير فيها العواطف الإنسانية النبيلة، إضافة إلى كونه يثري لغة الأطفال، ويحقق لهم شكلا مناسبا من التفاعل الاجتماعي، ويكسبهم المهارات اللازمة لمواجهة الحياة وصعوباتها.

عليه فإن «أدب الأطفال» يشكل قاعدة أساسية لثقافة الطفل ونهجا قويا لبنائها، فالمضامين هي والأهداف هي نفسها، يكمن الفارق أن مفهوم الثقافة الطفلية أعمق وأشمل من مفهوم أدب الأطفال. يقول الباحث د. هادي الهيتي: «لأدب الأطفال دور ثقافي؛ حيث إنه يقود إلى إكساب الأطفال القيم

والاتجاهات واللغة وعناصر الثقافة الأخرى، إضافة إلى ما له من دور معرفي من خلال قدرته على تنمية عمليات الطفل المعرفية المتمثلة بالتفكير والتخيل والتذكر. وبوجه عام فإن أدب الأطفال – باعتباره تجسيدا لثقافة الأطفال – يسهم في انتقال جزء من الثقافة إلى الأطفال بصورة فنية، وفي إقناع الأطفال بالآمال الجديدة.. لذا فهو أداة في بناء ثقافة الأطفال» (٢).

لقد بات من الواضح أن الكتابة الأدبية المتخصصة للأطفال؛ تعبر عن اتجاه حديث نسبيا؛ قياسا إلى تاريخ الأدب، وأنه لم ينشأ بصيغته المعاصرة إلا بعد أن مر بمراحل عدة، غير أن حداثة هذا النوع بمعناه المنهجي لا تعني أنه كان منعدما تماما.. والحقيقة أنه وجد حيث وجدت الطفولة، لكنه لم يحظ بالتدوين والدراسة كأدب الراشدين. وقد أشارت بعض الدراسات إلى نوع من الاهتمام بالطفل وفنونه لدى المصريين القدماء، وإلى بعض الكتابات والنقوش والصور على أوراق البردي وجدران المعابد والقصور، حتى إن د. علي الحديدي يذهب باعتقاده إلى أن السينمائي الشهير «وولت ديزني» استلهم فكرته عن الكارتون وشخصياته من زيارة قام بها لمقابر المصريين القدماء، ورأى فيها قصص الأطفال المصورة (٣). ومن الآثار الأدبية القديمة التي تعود إليها جذور أدب الأطفال: حكايات البانجاتانترا المكتوبة باللغة الهندية القديمة، وحكايات إيسوب اليوناني وغيرها. ويرى كثير من المؤرخين أن أوائل القرن العشرين كانت البداية الحقيقية لأدب الأطفال في العالم العربي، حيث بدأ بالاقتباس والترجمة عن آداب الأمم الأخرى. وقد لعبت الترجمة – كمصدر مهم – دورا كبيرا منذ أن بدأ هذا الأدب بالظهور وما زال، وقد كانت عملية مطلوبة نتيجة الفراغ الذي كان سائدا آنذاك، ثم بدأت بعدها عمليات التوظيف من التراث الشعبي العربي والإنساني تؤدي دورها المرحلي، خدمة للأطفال والطفولة، وذلك قبل أن يتبلور هذا الأدب ويتخذ طابعا حديثا ومتطورا في مرحلة؛ هي مرحلة التأليف والإبداع.

وخلال الحقب التي مرت بها تلك المراحل وصولا إلى التطور الهائل في مجال أدب الأطفال ووسائطه؛ كانت الأسرة مركزا رئيسا لنقل فنونه إلى الأطفال، خاصة في مرحلة سيطر فيها ما عُرف بالأدب الشفاهي، إذ ظلت تورثها للأجيال جيلا بعد آخر، مؤكدة على دورها في نقل الثقافة وحفظها.. وقد كان الأطفال يتذوقون ما تناقلته الألسن وصدحت به الحناجر، ويستمعون إلى ما كان يسرده الآباء والأجداد من أساطير الأبطال، وحكايات وأقاصيص عن عوالم مدهشة، بتشوق ولهفة، وينسجمون معها أيما انسجام. إلى جانب التنويمات والترقيصات والأغاني، التي عُدَّت أولى الأشكال الأدبية في التراث الإنساني التي خاطبت الطفولة. إضافة إلى الأشكال الأخرى، كالنوادر والألغاز والأمثال والأحاجي. وقد شكلت –بمجملها– مصادر معرفية مهمة، أسهمت في إغناء خبرات الأطفال وإثراء وجدانهم، إضافة إلى وظيفتها في الإمتاع والتسلية. ويجدر

بالذكر أن معظم ما وصل إلينا من الأشكال الموجهة للأطفال، والنادرة أصلا، جاءت متصلة بأعمال الكبار ونتاجاتهم. «بوجه عام لم يكن الأطفال -قبل نشأة أدب الأطفال- بعيدين كل البعد عن الأدب، فقد كانوا يستمعون -أحيانا- إلى الحكايات والأمثال والروايات والحكم والرحلات، التي كان يتناقلها الناس أو يروونها في المجالس بقصد التسلية والتوجيه، ومن الأدب ما هو من التراث الديني، ومنه ما هو من التراث الشعبي الذي يحمل القيم والأفكار.. ومن بين التراث الديني ما هو أدب حكمة أو أدب تهذيب» (٤).

خلال تلك الأزمنة كان أدب الأطفال أحد أهم مهام الأسرة التربوية، وأسمى وظائفها الثقافية، بل إن دورها في نشر هذا الأدب بين أطفالها كان -ولا يزال حتى اليوم- أساسيا كمجال لإعدادهم وتنشئتهم، وتنمية قدراتهم وطاقاتهم، حتى إن لم يعد بمقدورها أن تنهض بهذا الأدب وتستثمره بالصورة المطلوبة، خاصة مع التطور المذهل لوسائل الإعلام، وفي خضم تبدلات القيم والمفاهيم المتعارف عليها، والتي باتت مفزعة في بعض الأحايين.

إن بإمكان الأسرة أن تتيح للطفل نتاجا أدبيا ذا قيمة، وتقدم له نماذج راقية، بما يتفق مع المعايير التربوية والنفسية والفنية الحديثة، وما يبعث على الجمال بكل ما يتصل بها، سواء كانت مجموعات أدبية خاصة بهم، أو مواد متنوعة في صحافتهم، وفي وسائل الإعلام المختلفة. وعليها أن تشجعه على المطالعة والقراءة وارتياد المكتبات.

ومن الأساليب المعينة للأسرة في نشر أدب الأطفال:

- الاهتمام الجاد بهذا النوع الأدبي بأنواعه وأشكاله كافة، من قبل الجهات المطلعة.
- إنشاء ركن خاص بالطفل ضمن المكتبة البيتية، وإثرائه بما يلبي احتياجاته وينسجم مع ميوله.
- الاستفادة من الوسائط التربوية الحديثة في تقديم أشكال هذا الأدب، واستغلال وسائل الإعلام والارتقاء بأدوات الطفل الثقافية عموما.
- الاستفادة من التجارب العالمية، وتشجيع الترجمة لنماذج إبداعية مناسبة، بما يسهم في تطوير الأدب الطفلي.
- التعاون الفاعل بين مؤسسات التربية والجمعيات الثقافة المحلية، والحوار المستمر بينها لتطوير العمل في هذا المجال.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه: ما طبيعة الأدب الذي يجب أن تقدمه الأسرة للطفل، وما أهم خصائصه؟..

لعل أبرزها أن يتسم الأدب الموجه للطفل بالفكرة السليمة الواضحة، والمضمون ذي المغزى؛ القادر على النفاذ إلى عقل الطفل ووجدانه، وتقديم الأدب الذي يحمل المعاني الإيجابية ويطرح الاتجاهات السليمة والقيم الإنسانية السامية، والابتعاد عما يناول القيم السلبية كالعنف والتطرف والتعصب.. وأن يكون معبرا عن عواطفه وأحاسيسه، ومسايرا لفطرته المجبولة على الحرية والمرح. ثم أن يتناسب -هذا الأدب- مع المستوى العمري والإدراكي للطفل، ويعالج موضوعات تلبي جانبا من احتياجاته المعرفية والعاطفية والقيمية، وأن يحرض ملكاته التعبيرية وينمي قدرته على التكيف والتلاؤم.

أما من ناحية الأسلوب فيجب أن يكون جميلا، متميزا بالسهولة والوضوح، خاليا من التعقيد والغموض، وبعيدا عن السذاجة والتكلف أو الوعظ الذي يأتي بلهجة الأوامر. وأن يمتاز بالعاطفة الصادقة، التي تشحذ أحاسيسه وتنمي مشاعره الإيجابية. وأن يمتلك عناصر الإثارة والتشويق، وأن تكون الكتابة بلغة فصيحة ومبسطة تناسب لغة الطفل وترتقي بها. ومن الناحية الفنية يجب أن يراعى الإخراج الفني للكتاب الذي يحتوي على النصوص المقدمة للطفل، ويتضمن رسوما تعبيرية جذابة وملونة.

الهوامش

(١) في أدب الأطفال، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٩٦م تأليف د. علي الحديدي ص ١٠٠- ١٠١ .

(٢) سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٢٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس/ آذار ١٩٨٨م، ثقافة الأطفال، تأليف د. هادي نعمان الهيتي، ص ١٤٨.

(٣) أدب الأطفال مدخل للتربية الإبداعية، تأليف: د. انشراح إبراهيم المشرفي، مدرس المناهج وطرق التدريس، كلية رياض الأطفال، جامعة الإسكندرية. موقع جامعة أم القرى، مكة المكرمة. عنوان الموقع: http://uqu.edu.sa

(٤) سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٢٣، مصدر سابق، ص ١٥١.

كيف نغرس حب الفصحى في قلوب أبنائنا؟

سالم بن عميران
كاتب دراسات إسلامية

اللغة العربية هي الركن الأساس في بناء الأمة؛ حيث ارتبطت هذه اللغة بالإسلام والعروبة ارتباطا وثيقا، في كل أدوار تاريخها الطويل، ونمت في أبنائها روح المواطنة الصالحة وما تنطوي عليه من حب الوطن والتضحية من أجله (١).

إن إحياء اللغة الفصحى والاعتزاز بها دليل على عمق الفكر، وبعد النظر، ومعرفة حكمة التاريخ، ورفض الاستعباد والذل، تأمل إلى ما يسمى اليوم بإسرائيل، مجتمع متعدد الأعراق والأصول والألسنة، ولكنهم يحيون لغة ميتة من قبرها (اللغة العبرية)، ويستعملونها في كل عمل من أعمال الحياة، باعتبارها لغة الهوية؛ وهذا يدل على الاعتزاز بالنفس، والدفاع عن الشخصية التي يرغب في تكوينها الصهاينة في أبنائهم (٢).

وفي الآونة الأخيرة، وبعد ظهور المنجزات العلمية الحديثة، وما أنتجته من وسائل تواصل اجتماعي عبر الهواتف الجوالة، وظهور ما يسمى بالعولمة؛ ابتعد كثير من أبناء العربية -جيل الشباب خاصة- عن لغتهم العربية الفصحى؛ فصاروا يتواصلون مع بعضهم بلغة «الأرابيش» (٣)، حيث طمست هذه اللغة معالم الحروف العربية، فحلت الأرقام والألفاظ الأجنبية محل الكلمات العربية، واختلطت فيها اللهجة العامية بالفصحى، والعربية بالإنجليزية. وقد كانت العرب تستقبح الخطأ في بعض قواعد الإعراب؛ كرفع المنصوب ونصب المجرور، وهو ما يسمى باللحن، فكيف بطمس أسس وقواعد قامت عليها اللغة العربية الفصحى؟!

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بقوم يرمون نبلا، فعاب عليهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنا قوم متعلمين، فقال: لحنكم أشد علي من سوء رميكم! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رحم الله امرأ أصلح من لسانه»، وكان ابن عمر يضرب بنيه على اللحن، ولا يضربهم على الخطأ. قال العتبي عن أبيه: استأذن رجل من جند الشام -له فيهم قَدْر- على عبدالملك بن مروان، وهو يلعب بالشطرنج، فقال: يا غلام، غطها، هذا شيخ له جلاله، ثم أذن له، فلما كلمه وجده يلحن، فقال: يا غلام، اكشفها، فليس للاحن حرمة. وهذا يدل على أن اللحن تستقبحه العرب في جميع الأحوال، من كل ذكر أو أنثى (٤)، فكيف لو رأوا ما يكتب وما يقال في هذا العصر!

إن تكوين الملكة اللغوية، وصيانة اللسان عن الوقوع في الخطأ، هو الهدف الأسمى الذي نسعى إلى تحقيقه لأبنائنا، ولا يتحقق هذا الهدف إلا من خلال قراءة النصوص الأدبية الفصيحة؛ شعرا ونثرا، مع حفظ الكثير منها، فتتكون الملكة القادرة على محاكاة هذه النصوص، وتقوى قيمة الفصحى لديهم، وقد بين العلامة ابن خلدون هذا المنهج في مقدمته، حيث يقول: «إن حصول ملكة اللسن العربي إنما هو بكثرة المحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم، فينسج هو عليه، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد، على نحو كلامهم» (٥).

ومن الوسائل التي تعزز من قيمة الفصحى في قلوب أبنائنا تدريبهم على فنون الكلام، بما في ذلك الخطابة، والقراءة الجهرية، وفن إعداد الكلمة، والمناظرات، ولقاء الجماهير، وقد كاد أرباب الأفكار والحصافة يجمعون على أن اللغات الحية لا تعلم كاللغات الميتة، بل إنه لابد في الأولى من المران على التكلم بها من أول وهلة (٦)، فيكتشف الطالب جمال اللغة الفصحى، ويجعلها واقعا ملموسا في حياته اليومية.

فعلى المربين غرس حب الفصحى في نفوس أبنائهم، وتنمية شعورهم بالاعتزاز بها، وتمكينهم من استعمال اللغة العربية الفصحى استعمالا صحيحا في التعبير عن مطالبهم الحياتية والفكرية، لينالوا محبة ربهم ورسولهم ﷺ «فمن أحب العربية أحب محمدا، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية، ومن أحب العربية عني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها» (٧).

الهوامش

١- ينظر: علي النعيمي، الشامل في تدريس اللغة العربية، الأردن ،عمان، دار أسامة، ط١، ٢٠٠٤م ص١٣-١٤.

٢- انظر: د. المهدي بن عبود، «ارتسامات حول اللغة العربية وفعاليتها في الحقل العلمي»، مجلة دعوة الحق، الرباط، العدد (٣) ١٩٦٥م، ص ٣٦.

٣- وهي كلمة مشتقة من لفظين (Arab وEnglish) وتدمج فيها كلمات من اللغتين العربية والإنجليزية لتكوين كلمات جديدة. ينظر: أسماء الغابري، «سطوة مواقع التواصل الاجتماعي تنعكس على لغة الطلاب خلال الاختبارات» جريدة الشرق الأوسط، العدد ١٢٦٠٥، الأحد ٢٣ رجب ١٤٣٤ هـ ٢ يونيو ٢٠١٣م.

٤- ينظر: تقي الدين المصري، اتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق: يحيى عبدالرؤوف جبر، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، ج١، ص ١٣٧-١٣٨.

٥- ابن خلدون، المقدمة، ج ١، ص ٦٤١.

٦- انظر: مجلة المنار، ج ٢٢ ص ٨٧٨.

٧- أبومنصور الثعالبي، فقه اللغة، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ذو الحجة ١٣١٨، ص٢.

وصايا الآباء لمؤدبي أبنائهم

وائل حافظ خلف
باحث أسري

التقطنا لك - أقر الله عينا بك - جملة من وصايا آباء أَلبَّاء لمؤدبي أبنائهم ومعلميهم من أمهات كتبَ الأخبار والأدب.. ونصصنا كل وصية إلى بعض الأسفار التي وقفنا عليها فيها. وبالله التوفيق.

وصية عتبة بن أبي سفيان

قال عتبة بن أبي سفيان لعبدالصمد مؤدب ولده: «ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بني إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت.. علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه.. ثم روهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه. ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم.

وعلمهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء، وجنبهم محادثة النساء. وتهددهم بي، وأدبهم دوني.

وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء.

ولا تتكل على عذري، فإني قد اتكلت على كفايتك، وزد في تأديبهم أزدك في بري، إن شاء الله تعالى».

أوردها أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ في «البيان والتبيين» (ج ٢، ص ٣٥-٣٦).

ومما يروى من وصيته لولده ما أخبر به ابنه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، قال: كنت أساير أبي ورجل يقع في رجل، فالتفت إلي أبي، فقال:

«يا بني، نزه سمعك عن استماع الخنا كما تنزه لسانك عن الكلام به؛ فإن المستمع شريك القائل. ولقد نظر إلى أخبث ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولو ردت كلمة جاهل في فيه؛ لسعد رادها كما شقي قائلها».

(عيون الأخبار) للإمام ابن قتيبة، رحمه الله وأوردها أبوعمر في «بهجة المجالس» (ق١، ج١، ص٤٠٠).

وصية عبدالملك بن مروان

«علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السفلة فإنهم أسوأ الناس رعة (ورعا) وأقلهم أدبا، وجنبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة، واحف شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقووا، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا، ومرهم أن يستاكوا عرضا، ويمصوا الماء مصا، ولا يعبوا عبا، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في سر لا يعلم بهم أحد من الغاشية فيهونوا عليهم».

ذكرها الإمام ابن قتيبة الدينوري في «عيون الأخبار» (ج٢، ص١٦٧).

وصية مسلمة بن عبدالملك ابن مروان

«إني قد وصلت جناحك بعضدي، ورضيت بك قرينا لولدي؛ فأحسن سياستهم تدم لك استقامتهم، وأسهل بهم في التأديب عن مذاهب العنف، وعلمهم معروف الكلام، وجنبهم مصادقة اللئام، وانههم أن يعرفوا بما لم يعرفوا، وكن لهم سائسا شفيقا، ومؤدبا رفيقا؛ تكسبك الشفقة منهم المحبة، والرفق حسن القبول ومحمود المغبة، ويمنحك ما أدى من أثرك عليهم وحسن تأديبك لهم مني جميل الرأي، وفاضل الإحسان، ولطيف العناية» ذكرها ابن أبي الدنيا في كتاب «العيال».

وصية هارون الرشيد

ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده.

قال خلف الأحمر: بعث إلي الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين، فقال:

«يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة؛ فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين: أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم، إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد، إذا حضروا مجلسه، ولا تَمُرَّنَّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة؛ فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة» (مقدمة ابن خلدون).

حقوق الخادم في الإسلام

نجاح عبدالقادر سرور
باحثة دراسات إسلامية

الخادم نعمة من نعم الله، أنعم بها على الكثير منا.. إنهم إخواننا وأخواتنا، جعلهم الله عزوجل تحت أيدينا، واختبرنا بوجودهم في بيوتنا.. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (الأنعام ١٦٥)، فحق علينا أن نحافظ على حقوق الخادم ومنها:

● الرفق به وعدم تعنيفه وتوبيخه

لنا الأسوة والقدوة الحسنة في رسول الله ﷺ، الذي عامل خدمه بمنتهى الرفق واللطف، يقول أنس ابن مالك رضي الله عنه: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما أمرني بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامني، فإن لامني أحد من أهل بيته إلا قال: «دعوه؛ فلو قدر، أو قال: لو قضي، أن يكون كان» (مسند أحمد).

● النصح له واحترام رأيه

إن الخادم بشر مثلنا، يعاني مثلما نعاني وربما أشد؛ فلا نتكبر أن ننصح له ونقدم له المشورة، وفي النهاية نحترم اختياره ورأيه. هذا موقف لبريرة التي كانت أمة عند السيدة عائشة رضي الله عنها، تعتقها السيدة عائشة، فتصير حرة، فيتم تخييرها بين الاستمرار مع زوجها مغيث أو الانفصال عنه، فتختار الانفصال عنه، رغم حبه الشديد لها. فيقول لها النبي ﷺ: «لو راجعته». قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: «إنما أنا أشفع». قالت: لا حاجة لي فيه (البخاري). فانظر كيف نصح النبي ﷺ بريرة ثم احترم رأيها.

● عدم ضربه وإهانته

إن هناك كثيرين يهينون من يخدمهم إهانة بالغة، بالسب والضرب وسائر أنواع الإهانة، وهذا موقف حدث أمام رسول الله ﷺ. قال أبو مسعود البدري: كنت أضرب غلاما لي بالسوط، فسمعت صوتا من خلفي فإذا هو رسول الله ﷺ يقول: «اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود». قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام». قال: فقلت: لا أضرب مملوكا بعده أبدا (مسلم).

وفي رواية أنه أعتقه.

● السمر معه والانبساط إليه في الحديث

إن التواضع للخدم بالسمر معهم والتحدث إليهم كأصدقاء مقربين من شيم أهل المروءة والأخلاق الطيبة، وهكذا علمنا رسول الله ﷺ، فعن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معي»، فانطلقت معه – فذكر أنه استغفر ودعا لهم – ثم أقبل علي فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، وخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي عزوجل والجنة». قال: قلت: بأبي وأمي فخذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. قال: «لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي عزوجل والجنة» (أحمد).

● الأكل معه

من الأخلاق الفاضلة التي تكاد تندثر الحرص على أن يأكل الخادم معنا، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا كفى أحدكم خادمه طعامه حره ودخانه فليأخذ بيده فليقعده

معه فإن أبى فليأخذ لقمة فليطعمها إياه» (الترمذي).

● مساعدته في العمل إذا تعب

وهذا قمة التواضع، وتجسيد لمبدأ إنساني نبيل. قال أبوسعيد الخدري: كان رسول الله ﷺ يقم البيت، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا تعب (البخاري). وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال ﷺ: «إن إخوانكم خولكم - خدامكم - جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم» (١).

● احترام إنسانيته

إن الخادم إنسان؛ فانظر إلى رسول الله ﷺ كيف احترم إنسانية الخدم. عن أنس بن مالك قال: إن كانت الخادم من أهل المدينة وهي أمة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فما ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت (مسند أحمد). وماتت أمة سوداء كانت تقمّ المسجد ولم يعلم النبي ﷺ بموتها، فذكرها ذات يوم فقال: «ما فعل ذلك الإنسان؟» قالوا: ماتت يا رسول الله. قال: «أفلا آذنتموني؟ دلوني على قبرها»، فأتى قبرها فصلى عليها ﷺ (٢).

● إعطاؤه حقه كاملا

إن الخادم عامل وأجير، ومن العدل المبادرة بإعطائه أجره وعدم مماطلته، ومن السنة أن نعطي الأجير حقه قبل أن يجف عرقه. يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (النور ٣٣).

● عدم احتقاره والحط من شأنه

إن من حسن الخلق أن نحرص على نفسية خادمنا، فلا نهينه بكلمة نحتقره بها، أو نحط بها من شأنه، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحدكم عبدي فكلكم عبيد الله، ولكن ليقل فتاي، ولا يقل العبد ربي ولكن ليقل سيدي» (مسلم).

● العفو عنه

كل إنسان عرضة للخطأ والزلل، وربما أخطأ الخادم وتكررت أخطاؤه، والمطلوب منا أن نصبر عليه، وأن ننصحه، وأن نبادر بالعفو عنه. عن عبدالله بن عمر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كم نعفو عن الخادم؟.. فقال ﷺ: «اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة» (أبوداود والترمذي).

● العطف عليه

إن الخدم من أولى الناس بالعطف والرعاية والبذل لهم، وخاصة في أوقات الشدة وفي المناسبات الاجتماعية، هذا رسول الله ﷺ يعرض على خادمه ربيعة الأسلمي الزواج أكثر من مرة، يقول له: «يا ربيعة، ألا تزوّج؟»، وربيعة يرفض متعللا بقلة ذات يده، وظل النبي ﷺ يلح عليه حتى قبل. يقول ربيعة: فقال لي ﷺ: «يا ربيعة، ألا تزوّج؟». فقلت: بلى، مرني بما شئت. قال: «انطلق إلى آل فلان» (حي من الأنصار)، «فقل لهم إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم يأمركم أن تزوجوني فلانة» -لامرأة منهم- فذهبت، فقالوا: مرحبا برسول الله وبرسول رسول الله ﷺ.. فزوجوني وألطفوني.

وذكر أن رسول الله ﷺ جمع له من قومه صداق عروسه، وصنع له وليمة، وأعطاه قطعة أرض تعينه على المعاش (٣).

● تعليمه مكارم الأخلاق

مادام الخادم واحدا ممن يضمهم بيتنا؛ وجب علينا حسن تربيته وتعليمه مكارم الأخلاق، ولقد نبهنا الله عزوجل إلى تعليم الخدم والأطفال مثل آداب الاستئذان فقال عزوجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ (النور ٥٨).

● الثقة فيه والحرص على إشراكه في الثواب

إن العبد المؤمن حريص دائما على أن ينال الثواب من الله عزوجل، هو وأهل بيته وخدمه؛ فيشركهم في كل عمل صالح.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ليدخل بلقمة الخبز وقبضة التمر ومثله مما ينفع المسكين ثلاثة الجنة: الآمر به، والزوجة المصلحة، والخادم الذي يناول المسكين». وقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي لم ينس خدمنا» (الطبراني والحاكم).

● خفض الجناح له وإكرامه بالوعظ الحسن وبالدعاء

إن الكثيرين منا لا يرد على خاطرهم الدعاء للخادم، وقليلون فحسب هم الذين يسألون خدمهم باستمرار: هل تريدون شيئا؟ رغم أن هذه هي سنة المصطفى ﷺ. عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي ﷺ: «سل». فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «أوَ غير ذلك؟». قلت: هو ذاك. قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود» (مسلم).

وصدق الله عزوجل حين قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (الأحزاب ٢١).

هذا والله أعلى وأعلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ٣/٣٠٦.
(٢) فتح الباري لابن حجر ٢/١٩٧.
(٣) انظر الحديث بطوله عند أحمد في مسنده ٣٣/٣٤٩.

كما يراها الإمام ابن سحنون المتوفى سنة (٢٥٦هـ)

سياسة تعليم الصبيان وآدابها

الحسين أكروم
باحث دراسات عليا - المغرب

لا غرو أن «رسالة آداب المتعلمين» لابن سحنون، تعتبر أولى المصنفات التي أفردت بالتصنيف في أصول التربية الإسلامية، عبر التاريخ، وعليها اتكأ من جاء بعده، كابن الجزار في كتابه «سياسة الصبيان»، والقابسي في «الرسالة المفصلة»، وابن مسكويه، والغزالي وغيرهم من كبار المربين، ذلك أن مدار اعتمادهم عليها يدور حول الأسس المنهجية للتدريس وقواعد طرائق التعليم الأولى، وهي ولاشك مرحلة حساسة ودقيقة، تؤسس لأهم فترات أصول التربية، وترسخ لقوانين تأديب الصبيان وتعليمهم، فدونك قول ابن الجزار القيرواني: «إن أكثر الناس إنما أتوا في سوء مذاهبهم من عادات الصبا، إذ لم يتقدمهم تأديب وإصلاح أخلاقهم وحسن سياستهم» (١).

تحتوي رسالة آداب المتعلمين على أبواب صغيرة، يتضح لمن تتبعها أن ابن سحنون يبدأ في شرح مضمون العنوان، ثم يعقبه بروايات مختلفة، غالبها آثار يرويها عن طريق أبيه، غالبا، وعن غيره، نادرا.

توجيهه لبعض الأعراف والعوائد السائدة في مناهج التربية

عرف الإمام القرطبي العادة بقوله: «كل خصلة حسنة ترضاها العقول، وتطمئن إليها النفوس» (٢)، ولاشك أن الإمام ابن سحنون لم تطمئن نفسه إلى كثير من العوائد الدخيلة على طرائق التعليم، فنبه على عللها، محاولا قلع جذور تلك الأعراف الفاسدة من أساسها، مبقيا بعض الأعراف الحسنة، وقد سيجها بضوابط شرعية، وقبل بعض العادات الأخرى، بشروط صارمة.

أهم العوائد:

- منعه جعل المعلم عريفا بين

الطلبة

مما لا امتراء فيه أن جعل العريف بين الصبيان أمر تعارف عليه كثير من المؤدبين، قديما وحديثا، وهو كما حده ابن فارس: «القيم بأمر قوم قد عرف عليهم» (٣). فيكون معناه عند المربين: ذلك الذي يراقب الصبيان أثناء غياب المعلم؛ عارفا بأحوالهم، ملما بمقاصد شؤونهم، لكن ابن سحنون منع أن يكون الصبي عريفا؛ خشية اشتغاله بذلك، مما يلهيه عن مدارسة القرآن وتعليمه، فنظر بذلك إلى مصلحة الصبي قائلا: «وأحب للمعلم ألا يولي أحدا من الصبيان الضرب، ولا يجعل لهم عريفا منهم، إلا أن يكون الصبي الذي قد ختم وعرف القرآن، وهو مستغن عن التعليم، فلا بأس بذلك، وأن يعينه، فإن ذلك منفعة للصبي في تخريجه» (٤). ونقل ابن سحنون في موضع آخر عن مالك جواز اتخاذ العريف شرط «أن تكون للصبي في ذلك منفعة» (٥).

- إذا قارب الصبي الختمة فأخرجه والده

من الأعراف الحسنة في ثقافتنا الإسلامية العريقة إغداق الوصي أو ولي الصبي على المعلم ألوانا من النعم، وصنوفا من الإحسان، متى ختم ولده القرآن، لكن بعض الآباء يتعمدون إخراج الصبي قبل الختمة، كوسيلة للحيلولة دون إكرام المعلم، لكن ابن سحنون فطن إلى مكائدهم حين حسم المسألة قائلا: «أقضي له بالختمة. ثمّ لا أبالي أخرجه أم تركه» (٦). فسد رحمه الله بذلك باب التحايل، وقضى على النوازع النفسية التي توسوس في صدور الناس.

ثم سئل ابن سحنون عما إذا حاجج أبو الصبي المعلم فقال: ابني لا يعلم القرآن. فأجاب: «إن قرأ الصبي القرآن في المصحف، وعرف حروفه، وأقام إعرابه؛ وجبت للمعلم الختمة، وإن لم يقرأه ظاهرا، لأنه قلّ صبي يستظهر القرآن أول مرة»، وهذا توجيه لطيف منه، رحمه الله، فكم من صبي ختم القرآن، وهو كما قال، أو دون ذلك بمديد المراحل.

ويظهر أن ابن سحنون فصل القول في موضع آخر، وكأنه تراجع عن موقفه الأول قائلا: «إذا استظهر الصبي القرآن كله كان له أكثر في العطية للمعلم ممن إذا قرأه نظرا، وإذا لم يتهجّ الصبي على ما يملى عليه، ولا يفهم حروف القرآن؛ لم يعط للمعلم شيء» (٧). بل طلب ابن سحنون أن يؤدب ذلك المعلم، ويمنع من التعليم، إذا عرف بهذا وظهر تفريطه، فلم يعلق مناط الحكم على ضعف الصبي، ولا على قصور المعلم، بقدر ما راعى ما جرت به أعراف الكتاتيب القرآنية في القيروان، على طول النصف الأول من القرن الثالث الهجري.

- إبطال ابن سحنون عادة رمي الفواكه في حفلة الختم

إن لحفلة ختم القرآن أعرافا حسنة وعادات محمودة، توارثها الخلف عن السلف، جيلا عن جيل، بيد أنها تختلف حسب الأعصار، بحكم تبدل العادات وتغير الأعراف، وتنوع التقاليد الاجتماعية، والتأثر بالمنزع الخاص لكل مصر من الأمصار، كسؤال ابن سحنون عما يقع عند الختم من رمي بالفاكهة على الناس: هل يحل؟ فأجاب: «لا يحل، لأنه نهبة، وقد نهى رسول الله ﷺ عن أكل طعام النهبة» (٨).

قلت: إطلاق ابن سحنون الحرمة على مطلق النهبة فيه نظر، لأن النهي في الحديث (٩) -إن قصد تلك النهبة التي أخذها الصحابة من غزوة خيبر- مقيد بحرمة نِعَم أهل الحرب، وأما النهبة التي يرمىَ بها الصبيان في الأفراح فجائزة متى تلقت العقول السليمة تلك العادة بالقبول، وهذا ما جعل الحافظ ابن حجر يجوّز بعض صور النهبة بقوله: «وأما النهبة المختلف فيها، فهو ما أذن فيه صاحبه وأباحه، وغرضه تساويهم، أو مقاربة التساوي، فإذا كان القوي منهم يغلب الضعيف، ولم تطب نفس صاحبه بذلك، فهو مكروه» (١٠).

ومهما يكن فإن النهبة تختلف من حال إلى حال، ومن ثم يدور الحكم مع العلة؛ وجودا وعدما، وصدق الإمام الشاطبي لما قال: «فترى الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة، فإذا كان فيه مصلحة جاز» (١١). نعم.. قد يكون ابن سحنون رأى تهارش العوام على تلك الفواكه، وربما انجر بهم الأمر أثناء التقاطها إلى ما لا ينبغي؛ فأطلق الحرمة درءا لما يؤول إليه ذلك، وإن كان لا يهم في هذه المقالة ما إذا كانت النهبة مندوبة أو محرمة، بقدر ما يسترعي انتباهنا نقل ابن سحنون عوائد أهل القيروان، وكيفيات احتفالاتهم المثيرة بعرس القرآن، مع رده لبعض تلك الأعراف (١٢)، وعرضها -بعد النظر والتأمل- على قاعدة «جلب المصالح ودرء المفاسد».

توجيه طرق التعليم وتقويم أساليبها عند ابن سحنون

رغم قصر رسالة ابن سحنون وصغر حجمها، لكنها مليئة بالفوائد، ومن تدبر ثناياها وجد أن صاحبها لم تقف به الهمة عند حد التنبيه على البدع التي تضر المتعلمين في تربيتهم، بل تعدى ذلك إلى إرشاد المعلمين إلى ضرورة مجانبة تعليم الناشئة لمسائل منهجية، قد تعيقهم عن الفهم الصحيح، فصفى، رحمه الله، طرق التعليم من كل الأساليب المنتشرة -يومها- في مختلف المدارس الشعبية بإفريقية، قصد تحسين تربيتهم، وترقية مواهبهم، علاوة على تخلية مناهج التعليم من كل المضار والمفاسد التي تعيق السير السليم للتعليم اللائق -يومها- بالمدارس القيروانية.

- كراهيته اختلاط الغلمان مع الجواري في مكان واحد

لاشك أن أصل سد الذرائع قاعدة عظيمة، عمل شيوخ المالكية بها كثيرا، ووجهوا على وفقها عددا من المسائل والأحكام، لما يتولد عن ذلك من مفاسد متوقعة، مستبصرين مآلات الأحكام وآثارها، فدونك تفطُّن ابنِ سحنون لأبعاد الاختلاط حين قال: « وأكره للمعلم أن يعلم الجواري

ويخلطهن مع الغلمان، لأن ذلك فساد لهن» (١٣). والكراهة -كما يعرف من له أدنى إلمام بمبادئ أصول الفقه- من أقسام الجواز، إذ قد تكون جائزة وتصير مباحة؛ متى انتفت المضار، وتحققت فيها المصالح الخالصة من أي مفاسد جزئية محتملة.

ولهذا اشترط ذلك أبوالحسن القابسي (ت٤٠٣هـ) لما سئل عن حكم تعليم الأنثى القرآن، وهل تتعداه إلى غيره؟ فأجاب: «تعليم الأنثى القرآن حسن، ومن مصالحها، فأما أن تتعلم الترسل والشعر وما أشبهه، فهو مخوف عليها، وإنما تعلم ما يرجى لها صلاحه، ويؤمن عليها من فتنته، وسلامتها من تعلم الخط أنجى لها» (١٤). وربما هو أول من سبق إلى ضرورة تعليم الأنثى، وتبعه بعد ذلك مشاهير المربين، غير أن المتأخرين، وإن تساهل بعضهم في ذلك، فقد اشترطوا لذلك شروطا، من مثل الإمام الشاطبي، رحمه الله، حيث قيد ذلك بشروط صارمة (١٥)، أما بعض المناهج التربوية المعاصرة، فأطلقت ذلك، فوقع الاختلاط، فزلت قدم بعد ثبوتها.

مقدار ضرب الصبيان وحدوده عند ابن سحنون

إن من تأمل سياسة تعليم الصبيان، والإشراف على تربيتهم يجدها عادة ما تفضي إلى تكاسل بعض الصبيان عن الحفظ، وتشاغل البعض بالخصومات فيما بينهم، وميلهم إلى المرح واللهو، مما يستوجب معه إيقاع ألوان من العقوبة عليهم، تختلف درجاتها حسب الوزر المرتكب، لأن الطفل إذا أهمل كما قال الغزالي: « وإن عوّد الشر، وأهمل إهمال البهائم، شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيّم عليه، والوالي له» (١٦). ومن هنا فصل ابن سحنون أنواع العقوبة، وحدودها بقوله: «ولا بأس أن يضربهم على منافعهم، ولا يجاوز بالأدب ثلاثا، إلا أن يأذن الأب في أكثر من ذلك، إذا آذى أحدا، ويؤدبهم على اللعب والبطالة، ولا يجاوز بالأدب عشرة، وأما على قراءة القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثا» (١٧). لكن القابسي لا يرى مانعا إن صعب مراس الطفل ومزاجه الزيادة على ما ذكر قائلا: «فلا بأس -إن شاء الله- من الزيادة على العشر ضربات» (١٨)، لأن الغرض من التأديب استصلاح حالهم، وتهذيب أحوالهم، وتقويم سلوكهم، ومن ثم كما قال ابن الجزار: «ينقل طبع الصبي المذموم إلى الطبع المحمود» (١٩).

ويبدو أن ابن سحنون، رحمه الله، جنح إلى مذهب المتساهلين في الضرب؛ قياسا مع مواقف غيره، ولا يبعد أن تكون سماحته تلك عرق قديم نزع إليه من توصية والده سحنون لمعلم ابنه محمد، لما أوصاه بحسن التعامل معه، والمبالغة في ملاطفته، ومن ثم تولدت فيه تلك الحنانة والرأفة واللين، في تربية الصبيان، قال سحنون لمربي ابنه المذكور: «لا تؤدبه إلا بالمدح ولطيف الكلام الطيب، ليس هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف، واتركه على نحلتي، فإني أرجو أن يكون نسيج وحده، وفريد أهل زمانه، وأخاف أن يكون عمره قصيرا (٢٠). قلت: سبحان الله، هو كذلك، ولد سنة (٢٠٢ ومات سنة ٢٥٦هـ) ففراسة سحنون تجاه ابنه لم تخطئ.

ومن روائع تعليلات سلطان العلماء العز بن عبدالسلام لمقاصد ضرب الصبيان قوله: «وإذا تعلم الصبي ما ينبغي أن يتعلمه من غير زجر فلا يزجر، وإن لم يتعلم إلا بالزجر زجر، فإن لم ينجح فيه الزجر ضرب ضربا يحتمله مثله، وتغلب منه السلامة، وإن لم ينزجر إلا بالضرب المبرح حرم المبرح لأدائه إلى قتله، لأنه إنما جاز لكونه وسيلة إلى الإصلاح، فإن لم يحصل الإصلاح حرم، لأنه إضرار غير مفيد» (٢١). وهو تعليل وجيه، واستنباط حسن، وبراعة في استفراغ الجهد للوصول إلى تحقيق المناط الخاص في مقاصد الضرب.

الهوامش

(١) - سياسة الصبيان وتدبيرهم، لابن الجزار القيرواني، (ص، ١٣٥)، بتصرف يسير، تحقيق د. محمد الهيلة، نشر الدار التونسية، ١٩٦٨م.
(٢) - الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٧/ ٣٤٦)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، (١٩٦٤م).
(٣) - معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة «عرف»، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، (٤/ ٢٨٢)، نشر دار الفكر، الطبعة الأولى، (١٩٧٩م).
(٤) - آداب المعلمين، (ص، ٣٥٦)، تحقيق فؤاد أحمد الأهواني، نشر دار المعارف، الطبعة السادسة، (٢٠٠٢م).
(٥) - آداب المعلمين، (ص، ٣٦٣).
(٦) - آداب المعلمين، لابن سحنون، (ص، ٣٥٩).
(٧) - آداب المعلمين، (ص، ٣٦٤).
(٨) - نفسه (ص، ٣٥٧).
(٩) - صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، رقم الحديث (٥٥١٦).
(١٠) - فتح الباري، لابن حجر (١٢/ ٦٣).
(١١) - الموافقات (٢/ ٥٢٠)، تحقيق مشهور آل سلمان، نشر دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
(١٢) - ذكر ابن الحاج عددا من العوائد الفاسدة في عرس ختم القرآن، انظر المدخل (٢/ ٣٠٩-٣١١)، نشر المكتبة التوفيقية، مصر.
(١٣) - آداب المعلمين، (ص، ٣٦١).
(١٤) - الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، للإمام أبي الحسن القابسي (ص، ١١٢-١١٣).
(١٥) - انظر: فتاوى الإمام الشاطبي، (ص، ١٦٥)، جمع المرحوم الدكتور محمد أبوالأجفان، نشر مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.
(١٦) - إحياء علوم الدين، للغزالي، (٣/ ٧٢)، نشر دار المعرفة، بيروت.
(١٧) - آداب المعلمين، لمحمد بن سحنون، (ص، ٣٥٤).
(١٨) - الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين، للقابسي، (ص، ١١٣).
(١٩) - سياسة الصبيان وتدبيرهم، لابن الجزار القيرواني، (ص، ١٣٥)، بتصرف يسير.
(٢٠) - رياض النفوس في طبقات علماء القيروان، لأبي بكر المالكي، (١/ ٤٤٣-٤٤٤)، نشر دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.
(٢١) - شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، للعز بن عبدالسلام، (ص، ٣١٤)، تحقيق إياد خالد الطباع، دار الفكر، إعادة الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

ثقافة إهداء العيوب

كمال عبدالمنعم خليل
كاتب وباحث

إذا كانت الهدية شيئا محببا إلى النفس، أو ذا قيمة نفيسة، فإن هذا أمر طبيعي، وهو المألوف بين الناس، أما أن تكون الهدية مما يعاب، أو مما لا تقبله النفس، فهو شيء مستغرب في تعاملات البشر، إلا أن العاقل يوقن أن من أهداه عيبه أحب إليه ممن يهديه شيئا ماديا، قال أحد السلف: «أخ لك كلما لقيك ذكرك بنصيبك من الله، وأخبرك بعيب فيك، أحب إليك وخير لك من أخ وضع في كفك دينارا»، لكن ينبغي على من يهدي العيوب أن يلتزم آداب النصيحة، فيلبس العيب ثوب الهدية الذي يتصف بالجمال والنقاء وحسن الظاهر، عندها يحفظ صاحب العيب الجميل، ويشكر الصنيع.

وإذا كان الحديث عمن يهدي العيوب، فإننا نجزم بأن المادحين كثر، كل له بغيته في هذا المدح وذاك الثناء، ولقد حث الإسلام على القصد في المديح إذا كان بحق، فما بالك إذا كان المديح بغير حق؟! وقدوتنا في ذلك الرسول الكريم ﷺ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»، فرغم كمال خلقه وخلقه، ورغم مدح الله تعالى له، إلا أنه أمر أمته ألا تبالغ في مدحه لدرجة تخرجه عن العبودية التي يدين بها لربه سبحانه وتعالى.

وقد أثر عن السلف أنهم كانوا يتهمون النفس بالتقصير والعيوب دائما، حتى لا يركن إنسان إلى عمله، أو يظن أنه نجا فيتكل على ذلك، فيفتر أو يضعف، يقول ابن القيم رحمه الله: «لقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: والله إلى الآن منذ أن بلغت وأنا أجدد إيماني كل يوم، ثم كان يقول: أنا المكدي (الفقير إلى الله وقيل الحمال الذي يعمل بالأجرة)، وابن المكدي، وهكذا كان أبي وجدي.

إن إهداء العيوب له أصل في ديننا الحنيف، فهو من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من باب التواصي بالحق، ومن باب النصيحة، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ (العصر: ١-٣)، وقال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»،

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي»، وكان يسأل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: هل ترى علي علامات النفاق؟! (وكان على معرفة بالمنافقين، فقد سماهم له الرسول ﷺ قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى)، فكان يتهم نفسه، ولا يشغله إلا عيبه، فقد كان دائم السؤال عن عيوبه. فهذا النموذج قل أن تجده، فلا يبحث الناس في غالب حالهم إلا على المزايا والمدح والثناء، وقليل من يصدقك القول في عيبك، قيل لبعض العلماء، وقد اعتزل الناس وكان منطويا عنهم: لم امتنعت عن المخالطة؟ فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي؟.

ثوب الهدية: هذه الهدية من نوع خاص، لذلك ينبغي أن يكون لها ثوب خاص، فأنت تهدى عيبا ونقيصة، فلا تزد صاحب العيب جرحا على جرحه، وهما على همه، بل على مهدي العيب أن ينصح ويستر، ولا يفضح، فيلمح إذا كان التلميح يكفي، ويصرح في انفراد إذا كان التصريح لازما، المهم أن لا يكتم النصح فيكون من باب الخيانة لصاحبه، والنبي ﷺ كثيرا ما كان يهدي العيب في صورة النصح العام بقوله: «ما بال أقوام يقولون كذا، ما بال أقوام يفعلون كذا..».

قال أحد السلف: «إذا رأيت في أخيك عيبا، فإن كتمته فقد خنته، وإن قلته لغيره فقد اغتبته، وإن واجهته فقد أوحشته، ولكن كن، وعرض، واجعله من جملة الحديث».

ولكن لا تحبون الناصحين

د. خالد سعد النجار
كاتب مصري

ظاهرة التناصح والمراجعة؛ بل والنقد من الظواهر السليمة والصحية في المجتمعات الفاضلة، ومنارة باسقة تدل على فلاح الأمم ونجاحها، وعامل أساسي للتطور والتقدم وتجاوز السلبيات والإخفاقات. وهي ظاهرة وأمر ندبت إليه الشريعة الإسلامية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ (الحشر:١٨). وهذه إشارة ربانية إلى المراجعة الشخصية ونقد الذات، قبل المثول أمام الله يوم القيامة.

هاهي نظرية عمر الفاروق رضي الله عنه تصدح في كل زمان عبر التاريخ: «رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي»، وهو هنا يتكلم على مستوى الدولة، أما على مستوى الأفراد فيقول: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل».

فالنقد والمراجعة والتناصح ظاهرة إسلامية أصيلة، قبل أن تكون ظاهرة مستوردة، وخلق إسلامي عاشه صالحو هذه الأمة من القادة والعلماء والمفكرين، قبل أن يكون ممارسة لدى دول الغرب الديموقراطي، فلا خلاف ولا إشكال إذن في مشروعية وأهمية المصارحة والمراجعة وتصحيح المسار، بل سر أزمات المجتمعات في تجاهل هذه الظاهرة وتميع مواقفها تجاه السلبيات، ومحاولة خلق الأعذار، دون حسم الإخفاقات باقتدار.

وتواصوا بالحق

قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ (سورة العصر).. هذه الآيات فيها وعيد شديد، وذلك لأنه تعالى حكم بالخسارة على جميع الناس إلا من كان آتيا بهذه السلوكات الأربعة، وهي الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور، وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه، فكذلك يلزمه في غيره أمور، منها: الدعوة إلى الدين، والنصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ثم كرر التواصي ليضمن الأول الدعوة إلى الله، والثاني الثبات عليها، والأول الأمر بالمعروف، والثاني النهي عن المنكر، ومنه قوله: ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ (لقمان:١٧) (تفسير الرازي: ١٧/ ٢٠١ بتصرف).

ومما يدل أيضا على عظم مقام النصح في الدين ولزومه وتأكده وضرورة إشاعته بين أبناء المجتمع المسلم، أنه ﷺ كان يشرطه على من يبايعه على الإسلام، كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري عن زياد بن علاقة أنه قال: سمعت جرير بن عبدالله رضي الله عنه يقول يوم مات المغيرة بن شعبة: إني أتيت النبي ﷺ فقلت: أبايعك على الإسلام، فشرط علي: «والنصح (أي: وعلى النصح) لكل مسلم»، فبايعته على هذا.

وقد أخبر رسول الهدى ﷺ عن عظم مقام النصح في دين الله تعالى، وعن شرف منزلته في حديث عظيم، هو من جوامع كلمه، فقال ﷺ: «الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم» (خرجه مسلم)

لا تحبون الناصحين

يقول ابن قدامة عن صفتي «المصارحة والمناصحة»: «وقد عز في هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة، لأنه قل في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب. وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم، ونحن الآن في الغالب، أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا، وهذا دليل على ضعف الإيمان» (منهاج القاصدين).

ويبدو أن عدم حب الناصحين سمة على مستوى البشر والمؤسسات والكيانات والأمم، لكن تفاقم هذا الكره للنصح أصابنا بأزمات مزمنة، وصرنا نعيش بين أزمتين رئيسيتين، بين مريض لا يدري أنه مريض، وبالتالي لا يريد أن يسمع لنصح الطبيب، وبين معافى لا يرغب في انتشال المريض من مرضه.

الأول: لا يعلم ويتصرف كالأصحاء؛ والمرض يسري في بدنه ويحمله للهلكة، والثاني: يعلم لكنه يتكاسل أن يعمل بما يمليه عليه علمه.

الأول: لا يعبأ بالثاني، والثاني: يترقب الأول! ولا أحد يريد أن يغير قواعد تلك المنظومة المشؤومة، ولا أن يشق مسارا آخر في الإصلاح! أو يكسر هذا الجمود الضارب في أعماق الأزمات.. في جدلية أشبه ما تكون بالهزلية التي لا تنتهي.. ويبقى السؤال: أي فارس يجسر بصهوة جواده هذه الهوة؟! أم سننتظر حتى يدفع الأول والثاني الثمن غاليا، وبعد فوات الأوان ربما يقتنع الأول أنه في محنة حقيقية، وينتفض الثاني لينتشل الأول! ولكن هيهات النجاة.. تلك أزمة أمتنا الكبرى!

البصيرة العمياء

من نعمة الله على العبد أن يقيض له الناصحين الذين يرشدونه إلى الخير، ويأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، ويسعون في سعادته وفلاحه، ثم من تمام هذه النعمة أن يوفق لطاعتهم، ولا يتشبه بمن قال الله فيهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ (الأعراف:٧٩).

فأشر ما في النفس الإعراض عن الحق وكره أهله، والإعجاب بخاصة رأيه.. قال الشوكاني: «والمتعصب وإن كان بصره صحيحا، فبصيرته عمياء، وأذنه عن سماع الحق صماء، يدفع الحق، وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق، غفلة منه وجهلا بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح، وتلقي ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم، وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع، فإنه صار بها باب الحق مرتجا، وطريق الإنصاف مستوعرة، والأمر لله سبحانه والهداية منه.

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

إن المتعصب إنسان غارق في أوهامه وقناعاته التي يغلبها على عقله، أو بالأحرى يطوع تفكيره العقلي لينسجم مع هذه الأوهام، فيسوغها ويبررها في إطار عقلي منطقي، وهو يأنف من المناصحة، ويعرض عن المناظرة، لأنه يرى أوهامه الحق المبين الذي لا يعوزه الدليل.

أما الجدال بالباطل فهو السمة الغالبة للمتعصبين، وهو نقاش يقوم على أسس غير موضوعية ولا عقلانية.. جدال يغلفه الجمود، ويشوبه التشبث بعتيق الآراء وتقاليد الآباء، دون بارقة أمل في الانفتاح على تنوع الآراء، واستيعاب ما جد من النظريات والدراسات.

وفي الجملة تشير الدراسات الحديثة إلى أن العقلية المتعصبة تنشأ نتيجة الانحراف عن عدة معايير، منها «العقلانية»، حيث تتسم بإطلاق الأحكام المتعجلة غير المبنية على معلومات موثقة، أو تأخذ شكل الشائعة، أو الحكم المسبق، أو تأخذ شكل القوالب النمطية الجاهزة، كالتقاليد الموروثة التي كثيرا ما تكبل تعاملنا مع واقعنا المعاصر، كما يتضمن الانحراف عن معيار العقلانية التعميم المفرط، ويعني تعميم فكرة معينة على فئة من الناس، ورفض تعديل الرأي في ظل ظهور دلائل جديدة. ويتضمن كذلك تغليب عاطفة الكره تجاه الآخر، حيث يعتمل البغض في نفس صاحبه حتى يرى في الأشياء أضدادها، وفي الرجال عيوبها، وفي العيون أقذاءها.

ومن المعايير التي يصيبها الانحراف معيار «العدالة» الذي يقوم على وجوب المساواة في المعاملة بين الأشخاص، في مجالات الاهتمامات العامة، وفي الحقوق، بحيث تخلو المعاملات من التمييز المبني على اللون أو الجنس أو القبيلة.

فضلا عن انحراف معيار «العاطفة» أو المشاعر الإنسانية الراقية، الذي يجعلنا أكثر إحساسا بالآخرين، ويمكننا من مشاركتهم والتعاطف معهم.

نفسية خاصة

الناس تتفاوت أنصبتهم من التعصب بحسب شخصيتهم ونفسيتهم، فالتعصب أبعد ما يكون عن الإنسان السمح الهين اللين العقلاني الحيادي، وأقرب ما يكون من أصحاب الشخصيات المتصلبة على كافة أنواعها ومواصفاتها، ومنها: «الشخصية التسلطية» التي تدمن الهيمنة والرغبة في الخضوع المطلق لها، وتعشق الطبقية والنظر إلى الناس بدونية. «الشخصية العدوانية» التي تفتقر لسعة الصدر واحتواء الآخرين، مع فقر معرفي واندفاع في الحكم على الناس. «الشخصية الفوضوية» التي لا تجيد ترتيب أوراقها ولا أفكارها، فضلا عن سلوكاتها.

بعد تزايد إزالة أعضاء بشرية سليمة..

الاستئصال الاحترازي بين الشرع والطب

القاهرة : ريهام عاطف و آية إيهاب
دار الإعلام العربية

مع تزايد الأمراض الوراثية، لاسيما السرطانية منها، لجأ بعض المشاهير الأجانب إلى استئصال أجزاء سليمة من أجسادهم تحت ذريعة الوقاية من انتشار المرض لاحقا وعدم القدرة على السيطرة عليه.. وهو الأمر الذي وجد صدى لدى البعض دون مسوغ ديني أو طبي معتبر.. لذا التقت «الوعي الإسلامي» عددا من العلماء والمختصين، ليحددوا موقف الإسلام من هذه القضية، فإلى التفاصيل:

«النفع والضر بيد الله أولا وأخيرا، ولا ينبغي أن تدفع الهواجس الوراثية إلى استئصال أجزاء سليمة من الجسد».. بهذه العبارة بدأ د. محمد أبو ليلة أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر، مؤكدا أنه يمكن اللجوء إلى الاستئصال في حال الاكتشاف المبكر للمرض، ومع وجود تأكيدات قوية من الأطباء بأن لدى المريض قابلية للإصابة بالمرض، وبذلك يكون في إزالته إنقاذ الكل وتضحية بالبعض، فلا ضير في هذه الحالة.

تقييد

وأضاف د. أبوليلة: إن الأمر ينتقل من الإباحة إلى التحريم إذا كان يتم إزالة أعضاء من الجسد احترازيا لمجرد الخوف من المستقبل، أو التوقع بأن ما أصاب الأم أو الأب يمكن أن يصيبه، ففي هذا الإجراء تقييد لرحمة الله تعالى.. بل يجب الصبر والاحتساب والاستعانة بالله وحسن الظن، فربما يؤدي بتر العضو إلى توابع سلبية على النفس البشرية، بحيث لا يكون المريض شخصا متوازنا كما كان، فيتحول البتر من محاولة لمنع المرض، إلى سلسلة من الآثار السلبية التي تتطور إلى ما هو أشد.. وعلى المسلم أن يكون حسن الظن بالله، فالنفس المطمئنة خير طارد للأمراض، وربما يكون الله قد من على الإنسان بمناعة طبيعية لا تضطره إلى إزالة أعضاء من جسده.

وختم قائلا: إذا أثبت الطب أن هناك خلايا سرطانية في طريقها إلى النمو فليس هناك حرمة في استئصال هذا الجزء، أما إذا كان الجسد سليما وتم استئصال العضو احترازيا، فهذا يدخل في إطار الحرمة.

الاستشارة أولا

بينما اتفق كل من د. عبلة الكحلاوي العميدة السابقة لكلية الدراسات الإسلامية، ود. آمنة نصير أستاذ الفلسفة والعقيدة الإسلامية بجامعة الأزهر، على ضرورة استشارة أهل الاختصاص من الأطباء الثقات، فإن كانوا يؤكدون ضرورة استئصال هذا العضو، وأن بقاءه يشكل خطورة على الجسد ككل. ويجب أن لا يتم الاستئصال لمجرد الهواجس والمخاوف الوراثية، والتي لا تعطي الحق في اعتداء الإنسان على جسده الذي ائتمنه الله عليه، فربما لا يظهر المرض من الأصل، وربما يشفى المريض، لاسيما أن العلم يتطور يوما بعد يوم، وما يصعب علاجه الآن، قد يكون ميسورا علاجه في الغد.

وأكدتا أن الإسلام أقر بمبدأ «الوقاية خير من العلاج» فقد حرص الإسلام على المحافظة على الصحة، وعدم إهمال النفس، بدليل قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ (النساء: ٢٩-٣٠). وأوضحتا أن الإسلام لا يختلف مع العلم طالما يهدف في النهاية إلى صحة الإنسان، ويفضل التريث والتفكير قبل اتخاذ القرار الذي يختاره الأطباء بالاستئصال، ففي الآية الكريمة ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء: ٨٥).

إجماع طبي

وترفض د. سعاد صالح، العميدة السابقة لكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر الإقدام على هذا الإجراء دون يقين، مؤكدة أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وجعل أعضاء جسده يكمل بعضها بعضا، لهذا نهى الإنسان عن إلحاق أي أذى بجسده، مشيرة إلى أنه في حالة إجماع الأطباء وهم أهل الذكر الذين أمرنا الله تعالى أن نعود إليهم وقت حاجتنا إلى المشورة،

على إجراء هذه الجراحة، وأن الضرورة تقضي ذلك، فهنا يكون على الشخص استخارة الله تعالى في أمره ليختار له الصواب والأفضل، لافتة إلى أن الفصل في هذه القضية ليس من الأمور اليسيرة، فهي قضية معقدة، ولها أكثر من جانب، لهذا يكون الحكم الصحيح بطرحها على أهل الفقه والشرع من ناحية، والأطباء الأخصائيين في الحالة والذين يبينون حجم المضار التي تسقط على الفرد في حال عدم إجرائه لهذه الجراحة من ناحية أخرى.

بينما أوضح الباحث الإسلامي علي يوسف أن تلك الأمور يجب الارتكان فيها إلى مبدأ: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء: ٧) مؤكدا أن أهل الذكر هم المعتبرون بالأمر، فإذا حكم الفقيه في أمر لا يعلمه أو بدون علم فهو مذنب، فالأحكام الفقهية ترتكن في النهاية إلى مصلحة المريض، فالله قد سهل علينا، لأن الإسلام دين وسط.

وأضاف أن هذه المسألة يكون الرأي الفصل فيها للثقات من أهل الطب، ومن ثم يأتي رأي الفقه، فإذا أجاز الطب ضرورة استئصال هذا العضو لأن بقاءه يحمل مخاطر على صاحبه، فهنا يصدق الفقيه على قرار الأطباء، أما إذا قرر الطب أن لا خطورة من بقاء هذا العضو، وأن الاستئصال غير ضروري فهنا لا يجوز الاستئصال، ولو من باب الاحتراز.

غير مقبول طبيا وأخلاقيا

وبما أن جميع الآراء السابقة ألقت بالكرة في ملعب الأطباء الثقات، فقد ذهب د. عبدالحميد أباظة استشاري الكبد والجهاز الهضمي ومساعد وزير الصحة السابق، إلى عدم تأييده فكرة استئصال عضو من أعضاء الجسم لمجرد شك الشخص باحتمال إصابته بمرض السرطان، بسبب وجود تاريخ وراثي للمرض في عائلته، مضيفا أنه كطبيب يرفض تماما استئصال عضو سليم من الجسم لمجرد الخوف من الإصابة بالمرض، مؤكدا أن الوراثة ليست العامل الوحيد الذي يتوقف عليه الإصابة بالمرض، لأن المسألة الوراثية أحد العوامل المسببة، ولكن ليس كل العوامل، فليس هناك مرض وراثي ١٠٠٪، مؤكدا أن مسألة إجراء عملية استئصال لأعضاء الجسم دون أن يكون الشخص مريضا مسألة غير مقبولة طبيا وأخلاقيا.

وأضاف: هناك إجراءات وقائية أخرى تمكن الفرد من الوقاية من المرض قبل الإصابة به، مثل إجراء الفحوصات والمتابعة الطبية الدورية كل فترة، بحيث لا تقل المدة عن ستة أشهر، والكافية لاكتشاف المرض باكرا، فللأسف هذا المرض يفتك بصاحبه في المجتمعات العربية بسبب الاكتشاف الطبي المتأخر للحالة، فعامل كبير من الشفاء من هذا المرض يقع في عامل الاكتشاف والتشخيص المبكر له، مضيفا أن هذا المرض قد يصاب به الشخص لأي سبب آخر، دون أن يكون لديه تاريخ وراثي في العائلة، كما أن هناك أشخاصا أجدادهم وآباؤهم مصابون بالمرض، ومع ذلك لم يصبهم، ما يدل على أن الأمر يتوقف على قابلية الجسم لاستقبال هذا المرض.

لا ضير من إجرائه

أما د. محمد شعلان أستاذ جراحة الأورام بالمعهد القومي للأورام، ورئيس المؤسسة المصرية لمكافحة سرطان الثدي، فكان له رأي آخر، حيث أوضح أن إقدام الشخص على هذا الإجراء الوقائي يختلف حسب الشخصية، فهناك بعض المرضى الذين يصابون بالهوس والخوف المرضي من الإصابة، ما يعيقهم عن العمل والتمتع بالحياة، فلا يأكلون أو ينامون خوفا من الإصابة، وهؤلاء يكون الاستئصال هو الإجراء المناسب لهم ولصحتهم النفسية والبدنية، في حال إذا أثبتت التحاليل أن هناك احتمالية الإصابة بهذا المرض.

شهدت أمما سادت وبادت منذ ٣٥٠٠ عام قبل الميلاد

فيلكا

جزيرة كويتية عامرة بالآثار

استطلاع : علاء عبدالفتاح

فيلكا جزيرة الحضارات، هكذا تسميها البعثة الفرنسية الكويتية للآثار التي التقتها «الوعي الإسلامي» على أرض الجزيرة، بمناسبة توقيع اتفاقية دعم شركة توتال الكويت النفطية مع المعهد الفرنسي للشرق الأدنى بباريس.. كان اللقاء البحري أولا على متن زورق، انطلق من منطقة شرق بوسط العاصمة الكويتية إلى الجزيرة التي تبعد عن العاصمة مسافة ٢٠ كم تقريبا.. يبلغ أقصى طول للجزيرة ما يقارب ١٤كم، ويبلغ أقصى عرض لها ما يقارب ٦كم. وأقرب نقطة من اليابسة الكويتية إليها شرقا هي رأس السالمية، وأقرب نقطة إليها من اليابسة الكويتية إلى الشمال الغربي هي رأس الصبية، وتقع جزيرة مسكان إلى شمالها الغربي، وتقع جزيرة عوهة إلى جنوبها الغربي.

وسواحل الجزيرة أكثرها رملية، وإن كان جزء منها صخريا في بعض السواحل الجنوبية الغربية. ويغلب على سطحها الانبساط، وأعلى نقطة ارتفاع في الجزيرة عن مستوى سطح البحر تقع في الجنوب الغربي بمنطقة «تلال شبيجة»، ويصل ارتفاعها إلى ١٠ أمتار تقريبا. وتمتاز الجزيرة بصلاحية شواطئها لرسو السفن، لأنها محمية من العواصف البحرية.

وتشير الدراسات الأولية إلى أن الميناء القديم للجزيرة كان يقع بالقرب من منطقة «رأس الخضر»، التي تقع في الجهة الشمالية من الجزيرة، كما يوجد ميناء آخر في الجزء الجنوبي من الجزيرة، قرب موقع المدينة الدلمونية.

تدبرنا أمر الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ (العنكبوت: ٢٠)، ونحن نتجول على أرض الجزيرة الطيبة.. ننتقل من منطقة تنقيب إلى أخرى، وقد ظهر العمال الذين أتوا من جنوب مصر مزودين بخبرتهم في التنقيب، وإزاحة الرمال برفق، طبقة بعد طبقة، لعل قطعة أثرية تشي بما كان عليه أهل هذه الحقبة أو تلك.

وفيلكا هي ثاني أكبر الجزر الكويتية مساحة، بعد جزيرة بوبيان، وأهم المناطق الأثرية في دولة الكويت. تزخر الجزيرة بشواهد أثرية، تمثل حقبة حضارية وتاريخية متسلسلة منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وحتى العصر الحديث. وهي من أول المواقع الأثرية التي أجريت

فيها أعمال المسح والتنقيب الأثري بأسلوب علمي منذ عام ١٩٥٨م، وقد توقفت هذه الأعمال بسبب الغزو العراقي عام ١٩٩٠م، ولم تستأنف مرة أخرى إلا في عام ١٩٩٩م، بسبب ما لحق بها من دمار، وما انتشر فيها من ألغام، مازالت تمثل خطرا على حياة الإنسان.

وقد قالت لنا رئيسة البعثة السيدة جولي بونري: إن البعثة كانت تركز على منطقة القصور في الفترة الأولى، وكانت المسافة عائقا بين المواقع، لكن الآن تتحرك في منطقة حصن تل سعيد أيضا، وأنهم بدأوا التنقيب منذ ثلاث سنوات، وقد ظهرت آثار على بيوت جميلة، سكنها من ينتمي إلى العصور الإغريقية منذ ٣ آلاف عام قبل الميلاد، ثم اليونانية فالرومانية، وقد تبين وجود بقايا كنيستين على هذه البقعة قبل أن ينتشر الإسلام فيها، ويعمرها المسلمون، ويبنون فيها الحصون لأهميتها البحرية الكبرى.

إن السير في الأرض وسيلة تفكر وتدبر في الأحوال وفي الحكمة من تبدل الأمم، فالحياة زائلة، وكما قال الرسول ﷺ «مالي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف، ثم راح وتركها».

منازل الأولين

قطعتا سيراميك ربما تعودان إلى القرن السادس الميلادي، عثرت عليهما البعثة وشاهدناهما في مكان الاكتشاف، بينما العمال فرحون بالاكتشاف؛ أيما فرحة، بعد عمل شاق لشهور مضت، وعلى طاولة قريبة أظهرت رئيسة البعثة لنا مجموعة من الأواني الفخارية التي تم العثور عليها في منطقة القصور، وتعود للعصر الروماني.

فيلم وثائقي

من جانبه قال المهندس علي اليوحة أمين عام المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت: هناك أكثر من مجموعة أثرية تعمل بالمنطقة: واحدة دانمركية والثانية فرنسية. وتجري الترتيبات حاليا بالتعاون مع اليونيسكو لوضع آثار فيلكا على قائمة التراث العالمي.. وأضاف: لنا صلة وثيقة بالبعثة الفرنسية منذ أكثر من ٣٥ سنة، بدأت مع معهد ليون، وسيتم تصوير أول فيلم عن جزيرة فيلكا عن طريق فريق سينمائي فرنسي، وصل أخيرا الكويت، منوها بأن الطرف الفرنسي «توتال» مهم جدا في دعم الدراسات والأبحاث التي تقوم بها البعثة الفرنسية لاستكمال مهمتها.

آثار الغزو

كانت آثار الغزو العراقي عام ١٩٩٠م واضحة، ونحن نعبر بالباص شوارع الجزيرة إلى القرية التراثية، حيث أماكن الترفيه من مطعم ومقهى وديوانية. وطرح السؤال نفسه: لماذا لا يتم ترميم كل هذه المباني لتأخذ الجزيرة حقها الحضاري؟

استراحة الشيخ جابر

عرجنا على استراحة الشيخ أحمد الجابر، وعرفنا من المهندسة مها القاعود - التي كتبت عن تاريخ الكويت بإشراف ورعاية المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - أن هذه الاستراحة تتكون من مبنى على شكل متوازي مستطيلات، في كل جهة من واجهات المبنى يوجد باب رئيسي ذو ضلفتين، ويظهر المسقط الأفقي للمبنى ممران متقاطعان يربطان كل الأبواب الخارجية، وبهذا تتكون أربعة أركان تشغلها حجرات القصر. ولا يدخل بهذا التكوين المنسق السلم المؤدي إلى السطح، وكانت الاستراحة مستغلة كمتحف للتراث الشعبي.

ملاءمة المكان

درجة الحرارة هنا بالصيف تتجاوز الخمسين درجة مئوية، وربما لهذا فكر المهندس المعماري الذي بنى الاستراحة في تصميم فريد. حيث تقول القاعود: رغم عدم شيوع مثل هذا التصميم في بيوت الخليج، فإنه ملائم لجو الصيف الحار، إذ يخلق تهوية متقاطعة من أول المبنى إلى آخره من خلال الأبواب التي تفتح في الأطراف المتقابلة للممرات، ويمكن أيضا الحصول على تهوية داخل الحجرات من خلال نافذتين لكل غرفة، وقد شيد المبنى من المواد المتوافرة في ذلك الوقت، وهي الصخر البحري والطين والخشب.

العلاج الكيميائي للمرض الخبيث

د . عبد الرحمن النمر
طبيب وكاتب علمي من مصر

ليس غريبا أن يكون للطب صولة وجولة مع السرطان، بين حين وآخر. فما يزال السرطان أحد المغاليق التي يستعصي على الطب فهم أسرارها! وعلى الرغم من اشتغال مئات مراكز الأبحاث في أرجاء المعمورة بالبحث عن سبب السرطان، فلا تزيد النتائج عن سلسلة من الإحباط، وكأن الإنسان يبحث عن إبرة في قاع المحيط!

على أن الغموض الذي يلف نشوء السرطان في جسم الإنسان، لا يحول دون علاجه. وإن كان العلاج غير كامل بالمرة، إلا أن المحاولات العديدة التي تبذل للوصول إلى علاج ناجح، قد تضع يد الإنسان على الدواء الأمثل الذي يقضي على المرض في مهده.

وقد تقدمت وسائل الفحص المبكر عن السرطان إلى حد كبير. وأدى ذلك إلى حصر المرض في موضعه، والحيلولة بينه وبين الانتشار إلى أجزاء وأعضاء أخرى في جسم المريض. لكن العلاج ظل محصورا تقريبا في الطرق التقليدية، المتراوحة بين استئصال الورم الخبيث جراحيا، أو محاولة تدميره بالأشعة. وعلى الرغم من أن العلاج بالعقاقير كان معروفا منذ بعض الوقت، إلا أن الاعتماد عليه لم يكن كبيرا. ذلك أن الطبيعة الكيميائية للسرطان، وطريقة تفاعل العقاقير معه، لم تكن واضحة تماما.

ونتيجة للأبحاث المتعددة التي أجريت في الآونة الأخيرة، أمكن فهم طبيعة العقاقير المضادة للسرطان، وكيفية عملها في الجسم. وهذا يضيف إلى وسائل العلاج التقليدية- وهي الجراحة أو الأشعة- وسيلة جديدة. وعلى الرغم من أن الوسيلة الجديدة، وهي العلاج بالعقاقير، أو ما صار يعرف باسم «العلاج الكيميائي»، لا تعني نهاية صراع الإنسان مع السرطان، إلا أنها خطوة مثمرة على الطريق.

وتستمد طريقة العلاج الكيميائي أهميتها من تقديم العون لبعض ضحايا السرطان، الذين كان يتعذّر علاجهم بالجراحة أو بالأشعة، مثل المصابين بسرطان الدم، أو المرضى الذين انتشر السرطان في أجسامهم إلى درجة تجعل من المستحيل استئصاله جراحيا، أو علاجه بالإشعاع.

وغني عن الذكر أن مثل هؤلاء المرضى كانوا يتركون للمرض الخبيث يفتك بأجسامهم حتى الموت. وأقصى ما كان في وسع الطب تقديمه لهؤلاء الضحايا هو مسكنات الألم، حتى يأتي داعي الموت، فيسدل الستار على أكثر المشاهد إثارة للألم في حقل الممارسة الطبية! وعلى ذلك، فإن العلاج بالعقاقير يعتبر بحق انتصارا حقيقيا على عدو طال عناده، وكثر ضحاياه.

إنجاز كبير:

لأول مرة يستطيع الأطباء استخدام كلمة « شفاء» في حقل السرطان، منذ استخدام طريقة العلاج بالعقاقير. وكلمة « شفاء» هنا نسبية، إذ تستخدم بمعنى اختفاء كل علامات المرض الخبيث مدة خمس سنوات، من وقت انتهاء العلاج. وقد تبدو فترة خمس سنوات قليلة، لكنها لمريض السرطان إنجاز كبير. ذلك أن معدلات الشفاء بطرق العلاج التقليدية، تقل عن ذلك بكثير. فوفقا لنوع السرطان، والموضع المصاب من الجسم، كان معدل الشفاء يتراوح بين شهرين إلى عامين! وفي أحيان نادرة، كان يزيد معدل الشفاء عن ذلك قليلا، إذا تم اكتشاف المرض واستئصاله في وقت مبكر.

وليس هذا هو الإنجاز الوحيد لطريقة العلاج بالعقاقير، بل هناك الإنجاز الأكبر بعلاج أنواع من السرطان لم يكن ممكنا علاجها من قبل. فسرطان الدم Leukemia، الذي يصيب طرفي العمر- دون سبب معروف - كان يستحيل عمليا علاجه بالجراحة. وفي الوقت نفسه لم يكن في الإمكان إخضاع المريض للإشعاع. إذ يلزم في حالة كهذه - نظريا - تعريض الجسم كله للإشعاع بدرجة كبيرة، تمكن الأشعة من الوصول إلى عمق الجسم، حيث تسبح خلايا السرطان في الدم. وعلى ذلك، كان التسليم بالهزيمة أمام هذا النوع من السرطان، هو الخيار القهري المتروك للطبيب وللمريض على حد سواء. وكان سرطان الدم يأتي على ضحيته في أقل من عام واحد.

لكن اليوم، يمكن علاج سرطان الدم بالعقاقير. وتقدر نسبة نجاح طريقة العلاج بالعقاقير بحوالي (٥٥ ٪) للأطفال، و(٤٠ ٪) للمسنين. وإذا قورنت هذه النسب الجديدة، بنسبة صفر في المائة، في الماضي، فلا شك أن أسلوب العلاج بالعقاقير إنجاز كبير بكل المقاييس.

أما سرطان الخصية، وهو أكثر أنواع السرطان شيوعا بين الرجال في أوسط العمر، فكان يقضي على حياة نصف ضحاياه في شهور قليلة! أما النصف الآخر فكان يعيش فترة أطول - حافلة بالألم - ليلقى في النهاية نفس المصير. ومع العلاج بالعقاقير، يلوح الأمل في الخروج من ورطة الإحباط وإعلان الهزيمة، إلى قهر المرض

الخبيث ووقف آثاره المدمرة.

ومثل هذا الكلام ينطبق على سرطان الجلد Melanoma، وهو من أسوأ أنواع السرطان وأشدها استعصاء على العلاج! ومع العلاج بالعقاقير، تصل نسبة الشفاء إلى (٧٥٪). وحتى سرطان الرئة، الذي كان يعالج بالجراحة أو بالإشعاع، أو بالاثنين معا، يمكن علاجه بالعقاقير، دون حاجة إلى استئصال الرئة المصابة، أو تعريض المريض للإشعاع لشهور طويلة.

بل الحقيقة أن أي نوع من السرطان، في أي موضع من الجسم، يمكن علاجه بالعقاقير. وقد يستمر استخدام إحدى الوسيلتين التقليديتين – الجراحة أو الأشعة – في العلاج، ولكن إضافة العقاقير إلى حلبة الصراع مع الداء الخبيث، تزيد من احتمالات الشفاء، وتطرح الأمل في إمكانية القضاء على السرطان.

اكتشاف بالتدبير الإلهي:

بدأ عصر العقاقير المضادة للسرطان منذ وقت غير قريب. ففي الأربعينات من القرن العشرين، اكتشف د. تشارلز هاجنز، من جامعة شيكاغو، أن الهورمون الأنثوي «استروجين» يؤدي إلى إبطاء نمو سرطان البروستاتا عند الرجال. وكانت هذه أول مرة يتم فيها الكشف عن تأثير كيميائي لإحدى المواد على السرطان! وقد حظي الطبيب المذكور بجائزة نوبل في الطب، نظير اكتشافه الذي فتح الباب أمام ميدان جديد من ميادين أبحاث علاج السرطان.

والغريب أن الحرب العالمية الثانية، أضافت جديدا إلى أبحاث السرطان! فبينما عكف فريق طبي من جامعة «ييل» الأميريكية، على دراسة نتائج الأسلحة الكيميائية التي استخدمت في أثناء الحرب، اتضح أن المادة المكونة من مزيج من النيتروجين ونبات الخردل، والمعروفة باسم Nitrogen Mustard، كانت تحدث أضرارها من خلال مهاجمة النسيج الليمفاوي في جسم الإنسان. والنسيج الليمفاوي هو الذي يكوّن العقد الليمفاوية، وتلك بدورها تكوّن الأجسام المضادة، أحد الوسائل الطبيعية للدفاع عن جسم الإنسان، ضد غزو البكتيريا والميكروبات المسببة للمرض. وقد لوحظ أن العقد الليمفاوية ضمرت،

عند المحاربين الذين تعرضوا لاستنشاق غاز الخردل – وهو غاز سام – المنبعث من عجينة الخردل والنيتروجين.

وعند إجراء تجارب على حيوانات مصابة بسرطان الغدد (أو العقد) الليمفاوية. باستخدام عجينة الخردل، اتضح أن الورم السرطاني يضمر وينكمش تحت التأثير السام لنبات الخردل. وعند هذا الحد، جرب الأسلوب نفسه على المرضى من بني الإنسان، فأدى إلى النتيجة نفسها. ومنذ ذلك الوقت، اعتبر مزيج النيتروجين ونبات الخردل العلاج الأمثل لسرطان الغدد الليمفاوية!

وتتابعت الخطوات على طريق نشوء العقاقير المضادة للسرطان، فلاحظ الطبيب سيدني فاربر، في مستشفى بوسطن للأطفال، أن واحدًا من عائلة فيتامين «ب» المركب، مسؤول عن حث نمو خلايا سرطان الدم عند الأطفال! والعضو المتهم من عائلة الفيتامين المذكور، هو حامض الفوليك Folic Acid. وقد جرب د . سيدني إعطاء الأطفال المرضى عقارا مضادا لحامض الفوليك، فلاحظ أن الدواء (واسمه Aminopterin) أدى إلى انحسار المرض عند عشرة أطفال، من بين ستة عشر طفلا أجريت التجربة عليهم! وكانت هذه أول مرة يتم فيها مواجهة سرطان الدم بطريقة إيجابية.

وقد أدى نجاح المحاولات الأولى لاستخدام العقاقير في علاج السرطان، إلى تبني فكرة تطوير هذا النوع من العلاج وتوسيع آفاقه، بحيث يكون بديلا أو معضدا للوسيلتين التقليديتين في العلاج.

وفي الخمسينيات من القرن العشرين، تبنى «المعهد القومي لأبحاث السرطان» في أميريكا، هذا المشروع، في واحد من أضخم برامج أبحاث السرطان. وكان المعهد المذكور على اتصال دائم بسائر مراكز البحث الطبي في العالم، لجمع المعلومات وتقييم النتائج.

وبعد قرابة ثلاثين عاما من التعاون البشري المثمر، ولدت الأبحاث العلمية ما يزيد على ثلاثين عقارا، يطلق عليها مجتمعة اسم «الأدوية المضادة للسرطان» – Anti Cancer Drugs . أما طريقة العلاج باستخدام هذه العقاقير، فتعرف باسم «التداوي بالكيميائيات» Chemotherapy،(أو ما يشيع تحت اسم «العلاج الكيماوي») .

سلاح ذو حدين :

القاسم المشترك بين جميع الأدوية المضادة للسرطان هو كونها سامة. وعلى الرغم من اختلاف أسلوب عمل كل دواء في الجسم، فهو في النهاية يقتل خلايا السرطان. إلا أن هذه الأدوية يجب أن تعطى في وقت مبكر، بمجرد اكتشاف السرطان، لوقف عملية انقسام الخلايا السرطانية عند حده. وقد لوحظ أن خلايا نوع ما من السرطان لا تكون كلها حساسة لدواء واحد! وعلى ذلك، فالطريقة المتبعة في العلاج الآن، هي إعطاء أكثر من عقار واحد للمريض، بحيث يمكن التغلب على مقاومة بعض الخلايا لعقار بعينه.

لكن على الرغم من الفوائد الجمة التي تقدمها طريقة علاج السرطان بالعقاقير، فإنها لا تخلو من مثالب وعيوب. وأبسط عيوب العلاج الكيميائي أنه يجب أن يستخدم لفترة طويلة، قد تصل إلى عدة شهور، لضمان القضاء التام على كل الخلايا السرطانية.

أما أخطر ما في طريقة العلاج الكيميائي من عيوب، فهو المضاعفات أو الآثار الجانبية الخطيرة، المترتبة على تعاطي العقاقير – وهي سامة. فتلك العقاقير إذْ تقتل الخلايا، فإنها لا تميز بين خلايا الجسم الصحيحة وبين الخلايا السرطانية، أي أنها تمارس في جسم المريض عملية قتل جماعية، تقضي من خلالها على خلايا السرطان، وكذلك على آلاف الخلايا الصحيحة .

من الناحية العلمية، فإن تلك المضاعفات الناشئة عن استخدام عقاقير السرطان، يمكن علاجها بعد القضاء على السرطان. ويعضد ذلك أن خلايا الجسم الصحيحة، تستطيع بناء ما هدمته العقاقير، من خلال قدرتها على الانقسام. كل ما في الأمر أن العلاج سيطول بعض الوقت، بحيث يتم القضاء على السرطان أولا، ثم تجرى عملية تصحيح الأوضاع في الجسم بعد ذلك.

في الوقت الحالي، يعكف الباحثون على تطوير الأدوية المضادة للسرطان، ومحاولة تصنيع عقار أكثر فعالية ضد السرطان، وأقل ضررا لسائر خلايا الجسم. ولا تخلو محاولات الباحثين من مشقة وعناء. فمن بين كل خمسة آلاف مركب كيميائي تجرى عليها التجارب، هناك مركب واحد فحسب يصلح في الحرب المعلنة على السرطان. وتبلغ تكلفة الوصول إلى المركب الكيميائي النافع حوالي مليون دولار!

هناك أمل أن يتمكن الباحثون من إنتاج عقار يهاجم خلايا السرطان فحسب، دون أن يؤذي باقي خلايا الجسم. على أي حال، فإن محاولات الإنسان الجادة والمثابرة للقضاء على الخصم اللدود، كفيلة بأن تضع يده يوما ما على العلاج الناجع. وما العقاقير المضادة للسرطان سوى خطوة على الطريق نحو الغاية المرجوة.

إعداد: هدايت الله نثار

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

الضعف في القيادة

للأستاذ عبد اللطيف الصالح

لما كان العبء الأكبر في نهوض الأمم يقع على عاتق الشباب ، فلا غرو إذا رأينا اتجاهاتهم في كثير من الأمم واضحة بينة ، يلزمون بها لأنها دستور لهم في الحياة الإجتماعية ، يتقيدون بموادها ونصوصها خلال نشأتهم البيتية والمدرسية ، وأثناء حياتهم العملية ، وشباب الأمم العربية في هذا العصر أحوج من غيرهم ، وأولى إلى بيان تلك الخطوط وذلك الخلق والتربية ، حتى ينهضوا بحملهم في هذه الحياة فواجب القادة والمربين أن يشيروا إلى الطريق التي يجب أن يسلكها الشباب العربي لتكون بمثابة دستور لهم في هذا العصر العضوض .

على القادة والمربين أن يفهموا الشباب أن الحياة عراك . وأن الواحد منهم جندي في ميدانها ، له غايات وأهداف ، وعليه واجبات وتبعات ، فلا يجوز له أن يتخلى عن جنديته فيفرّ من معمعان المعركة إلى ميدان اللهو والقصف لقضاء الوقت وقتله بمتعة طارئة أو لذة مختلسة ، وإنما يجب أن يضع نصب عينيه ذلك المرمى ، وألاّ يسمع في مجتمعاته وبيته ومدرسته سوى ما يمثل دستور حياته ، وما دستور حياة الشباب . سوى قول القائل :

قف دون رأيك في الحياة مجاهداً
إن الحياة عقيدة وجهاد

ونحن بحاجة قصوى إلى هذا الخلق ، خلق التضحية والجهاد والعقيدة السليمة في معترك الحياة، وما أجدب تاريخ العرب وأقفرت أيام شبابهم واسودت صحائفهم إلاّ منذ أن تخلوا عن هذا المبدأ وذكره في دستور حياتهم ولم يؤخذوا به في تربيتهم المدرسية والإجتماعية

على القادة أن يفهموا الشباب أن من أنظمته وقوانينه أن يخطو إلى الأمام ، وأنه ليس في عرف الشباب ومعجم لغته أن يرجع إلى الوراء ، ليكن من مواد دستورهم التهيؤ والإستعداد للمستقبل والسعي المتواصل ليحققوا ما اصطلح عليه السابقون في عرف الشباب وأخلاقهم وعاداتهم ممثّلا في :

تأخرت استبق الحياة فلم أجد
لنفسي حياة مثل أن أتقدما

وما ضر مجتمعنا العربي والإسلامي وألحق بنا من المهانة والخزي ما لا تزال آثاره عالقة بنا ، وظلاله تلاحقنا في كل مكان ، إلاّ أن خطوط الحياة للشباب والإتجاهات عندهم لم تكن بيّنة . ولأن دستورهم في الحياة العلمية والعملية كان يقوم على الخمول والرضا بواقع الأمر ، وهذا الخلق يتنافى مع طبيعة الشباب الصالح للحياة ، لأنه ليس في دستور الشباب الوقوف عند حد في مجد النفس ومجد الأمة ، وإنما اعتاد الشباب في كل أمة وكل عصر أن يكونوا جمرة متقدة من طبيعتها الأحراق . وأن يكونوا ريحا عاتية من صفاتها الإقتلاع والتدمير ، لتستخلص الآمال من بين الأحداث . وتدفع الأيام التي تقف أمامهم وتحول بينهم وبين غاياتهم في دائرة المجد وسمو الأخلاق ،

اعتاد الشباب إذا ما أخفقوا فى غاية ، عقدوا العزم إلى غاية أخرى ، وإذا ما وصلوا إلى هدف سعوا إلى هدف ثان وهكذا دواليك . تكون صفحة حياتهم جهاداً متواصلا وبذلك يكون حقيقة من مواد دستورهم فى الحياة قول القائل :

إذا غامرت فى شرف مروم
فلا تقنع بما دون التجوم
فطعم الموت فى أمر حقير
كطعم الموت فى أمر عظيم

ونحن فى عصر بدأت فيه الأمم العربية الإسلامية تنتفض انفاضات يتردد صداها فى جنبات الأرض وأقطارها ، فحتى يزداد ذلك الصدى وذلك النور فى سماء البلاد العربية ، وحتى يكون البناء الجديد محكما ، فعلى القادة والمربين أن يلزموا الشباب بدستورهم الخاص فى حياتهم القلقة وأن يفهموهم معانى هذا الدستور وروحه ، لكيلا يكونوا مجرد أبواق لما تهب به ريح الغرب من مبادئ وأنظمة .

إننا لا نريد من شبابنا أن تكون مهمتهم فى الحياة ترديد تلك الأصوات والصدى الذى نسمعه من الأمم الأجنبية عن تاريخنا ومنزلتنا فى العالم ، لأن لنا عقيدة وتشريعاً دونهما أنظمة العالم وتشريعاته فى تنظيم الحياة وإقامة رواق من السعادة على مجتمع بشرى فيه الخير والصلاح .

لنا تاريخ فيه من البطولة والعدالة والمواقف الخالدة ما لم يحو مثله تاريخ أمة فى أزهى عصورها فى زمن العلم والحضارة والقرن العشرين ، والمؤتمرات والمحالفات واختراع الذرة ، والشباب إنما يرجى خيره وينتظر نفعه ويحقق أنه ربيع الأمة المخصب إذا أقام له من عمله جسراً يصله بالماضى ويعبر عنه إلى المستقبل . وكل بناء فى مجد الأمة لا يقوى على البناء إذا لم يتصل بالماضى ويمهد للمستقبل ، وتبعة هذا إنما هى على القادة والمربين فى الأمم العربية والإسلامية .

إذا جعل القادة حياة الشباب فى البلاد العربية قائمة على تلك النصوص ، وتعليمهم ينحو إلى هذا الاتجاه ، وأخلاقهم مستمدة من واقع الحياة فسوف يكون للأمة دوى يُرعب القلوب ويصمّ الآذان ، وبه ينصرون كما انتصر الآباء من قبل وإليهم يلتفت الدهر كما التفت إلى الأجداد ، وعندئذ تندفع جموع الشباب إلى معترك الحياة كالسيل العرم يجرف ما يعترض سبيله وحين ذاك ترى كل فرد فى العالم يردد قول القائل من أعماق التاريخ :

الله أكبر تلك أمة يعرب
نفرت من الأغوار والأنجاد

وعندئذ يثبت قادة العرب مرة أخرى للأمم أنه ليس هناك ضعف فى القيادة العربية ، وإن الأمة التى قادت العالم نحو موكب النور والتحرير والحرية جديرة مرة ثانية أن تقوده نحو المثل العليا « التى يبحث عنها فى زوايا التاريخ » من عدالة ومساواة واستقامة فى الأمور .

فهل يحقق قادة العرب ذلك للشباب العربى حتى نقول بأعلى صوت « لا ضعف فى القيادة » ؟

الكويت — عبد اللطيف الصالح

- ٤٣ -

«البعثة» الكويتية..

هي أول مجلة كويتية تنتمي إلى العصر الحديث، وقد كان لإرسال أول بعثة طلابية من الكويت للدراسة في جمهورية مصر العربية عام ١٩٣٩م، واطلاعهم على ثقافات متنوعة؛ الأثر الكبير في فتح أبواب ثقافية جديدة، فاستطاع المبتعثون تشكيل فريق واحد بطموح سبق أعمارهم، فأنتجوا «مجلة البعثة» التي كانت بداية العودة، وصدر العدد الأول منها في ديسمبر عام ١٩٤٦م، وظهر العدد الأول منها وعلى غلافه عبارة «البعثة: نشرة ثقافية تصدر عن بيت الكويت بمصر»، وترأس تحريرها المرحوم عبدالعزيز حسين.

ولم تقتصر المجلة على العمل الطلابي فقط، بل كانت توزع بشكل كبير على جميع فئات المجتمع، اعتنت بالتصوير، والرسم والكاريكاتير، كما اهتمت بالمنزل الكويتي، بالإضافة إلى إخراجها ملاحق خاصة، واهتمت بالخبر المحلي الذي غيّرت في صياغته حتى تستقطب القارئ العادي لقراءته، وقد فتحت الحوار الفكري على مصراعيه، وكان للجانب الرياضي دور كبير فيها، وقد أفردت له بابا مستمرا.

النوازل

إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
(إدارة الإفتاء)

لما كان الفقه في الدين من أفضل الأعمال، وأعظمها، وأشرفها، وأزكاها، بل هو تاج الدين الأعظم، وجوهره الأسنى؛ كان بذل الجهد في تعلمه وتعليمه أمرا حتما، وفرضا أسمى؛ فبه يعرف الله بأسمائه وصفاته؛ وتعرف مخلوقاته وآياته، فيعمل المؤمن بموجب ذلك، ويدعو إليه.

ولذلك كان أعظم الفهم أن تفهم مراد الله منك، ومرادك منه، ثم تسير إليه مستنا بأنبيائه ورسله.

ولأجل ذلك، فإن هذه الصفحة سوف تكون - بإذن الله - ساحة علمية، وروضة فقهية بهية، نتناول من خلالها بعض النوازل المهمة، عرضا ودراسة، وفق منهج محدد، نقرب فيه ما بعد، ونهذب فيه ما عسر، تقريبا للفائدة، وروما للخير والعمل بما أفتى به فقهاؤنا الأعلام، وعلماؤنا النبلاء.

وفيما يلي دراسة تأصيلية لفقه النوازل؛ نجعلها مقدمة للأعداد اللاحقة حول الموضوع المذكور آنفا؛ مشتملة على العناوين التالية:

أولا - معنى فقه النوازل

- النازلة في اللغة: بمعنى نزل وحل، ثم استعملت في الشدة.

وفي الاصطلاح: هي: «كل ما استدعى حكما شرعيا من الوقائع المستجدة».

- تعريف «فقه النوازل» لقبا:

هو: «معرفة الأحكام الشرعية للوقائع المستجدة الملحة» (المنثور؛ للزركشي: ٦٩/١).

فالنوازل إذن، ومن خلال هذا التعريف؛ هي: ما اشتمل من المسائل على ثلاثة معان:

١- الوقوع. ٢- الجدة. ٣- الشدة.

ولذا؛ فإن فقه النوازل يكون أعم من الفقه؛ من حيث كونه يشتمل على كل ما هو مستجد وملح؛ سواء كان من الأحكام العملية، أو غير العملية؛ كالعقائد، ونحوها.

ثانيا - أهمية دراسة فقه النوازل، وأقسامه:

أهمية فقه النوازل:

وتظهر من خلال النقاط التالية:

أولا - بيان كمال الشريعة، وأنها صالحة لكل زمان ومكان.

ثانيا - الاستجابة إلى أمر الله، وأمر رسوله ﷺ؛ فإن دراسة هذه النوازل من تبليغ العلم والعمل به.

ثالثا - كسب الثواب والأجر عند الله عز وجل؛ ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إذا اجتهد الحاكم، فأصاب؛ فله أجران، وإذا اجتهد، فأخطأ؛ فله أجر واحد» (متفق عليه).

رابعا - إن إعطاء النوازل المستجدة في كل عصر أحكامها الشرعية المناسبة يدخل دخولا أوليا تحت مهمة التجديد لهذا الدين، وإحياء ما اندرس من معالمه.

● **أقسام فقه النوازل:**

يمكن تقسيم النوازل باعتبارات متعددة؛ إلى ما يلي:

- أولا: تنقسم النوازل بالنظر إلى موضوعها إلى:

نوازل فقهية: وهي ما كان من قبيل الأحكام الشرعية العملية.

نوازل غير فقهية: مثل النوازل العقدية؛ كظهور بعض الفرق والنحل.

- ثانيا: تقسيم النوازل من حيث خطورتها وأهميتها إلى:

نوازل كبرى: وهي القضايا المصيرية التي نزلت بأمة الإسلام.

ونوازل أخرى دون ذلك.

- ثالثا: تنقسم النوازل بالنظر إلى كثرة وقوعها، وسعة انتشارها إلى:

● نوازل لا يسلم - في الغالب - من الابتلاء بها أحد؛ كالتعامل في الأوراق النقدية.

● نوازل يعظم وقوعها؛ كالصلاة في الطائرة.

● نوازل يقل وقوعها؛ كمداواة تلف عضو في حد وأخرى انقطع حدوثها.

- رابعا: تنقسم النوازل بالنسبة إلى جدتها إلى:

نوازل محضة: وهي التي لم يسبق وقوعها من قبل؛ مثل أطفال الأنابيب.

نوازل نسبية: وهي التي سبق وقوعها من قبل، لكنها تطورت من جهة ما؛ كالعمليات الطبية الجراحية.

ثالثا - أسباب وقوع النوازل، وحكم الاجتهاد فيها:

● **أما أسباب وقوع النوازل، فيمكن إرجاعها إلى أمرين:**

الأمر الأول: التطور العلمي، والتقدم الصناعي

فقد شهد العالم اليوم تطورا صناعيا، وعلميا، وطبيا؛ فتغيرت وسائل التنقل، ووسائل الاتصال؛ واخترعت الأجهزة الطبية الحديثة؛ فاقتضى ذلك بحثا فقهيا، ونظرا عميقا في قواعد الشرع ومقاصده.

الأمر الثاني: التعدي على الأحكام الشرعية ومجاوزتها (الفجور)

فتوسع الناس في الملذات والملاهي، واستحلوا صورا في العقود والمعاملات؛ وقد دل على هذا الأمر: قول عمر بن عبدالعزيز: «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور» (المنتقى للباجي، ١٤٠/٦).

● **وأما حكم الفتوى في النوازل:**

فالاجتهاد في النوازل واجب على هذه الأمة، فهو من فروض الكفاية، وربما يتعين هذا الواجب على بعض المتهيئين للنظر في بعض النوازل؛ فيصير النظر في نازلة ما واجبا عينيا في حق هؤلاء.

والدليل على أنه فرض قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ (آل عمران:١٨٧)؛ فتبيين العلم ونشره واجبان على العلماء وطلاب العلم.

إلا أن ابن عبدالبر ذكر عن جمهور أهل العلم أنهم كانوا يكرهون استعمال الرأي في الوقائع قبل أن تنزل، وتفريع الكلام عليها قبل أن تقع، وعدوا ذلك اشتغالا بما لا ينفع. (جامع بيان العلم وفضله، ١٣٩/٢).

رابعا - مدارك الحكم على النوازل؛ وهي:

لا يتم للمفتي والمجتهد في نازلة نظره إلا إذا سلك عند دراستها منهج: التصور، ثم التكييف، ثم التطبيق.

وهذه الثلاثة هي ما يسميه الفقهاء مدارك الحكم على النازلة؛ وبيانها كالتالي:

- المدرك الأول: التصور

وهو معنى قولهم: الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فالإقدام على الحكم في النوازل من دون تصورها يعد قاصمة من القواصم.

وتصور النازلة يتطلب: الاستقراء النظري والعلمي، وقد يفتقر إلى إجراء استبانة، أو معايشة، أو سؤال أهل الشأن والاختصاص.

- المدرك الثاني: التكييف

وهو تصنيف المسألة تحت ما يناسبها من النظر الفقهي. وتكييف النازلة متوقف على تحصيل أمرين؛ ذكرهما ابن القيم رحمه الله بقوله: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع، والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات؛ حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر». (إعلام الموقعين، ٨٧/١).

وتكييف النازلة إنما يحصل بواحد من أربعة مسالك على الترتيب الآتي:

١- النص والإجماع.

٢- التخريج على نازلة متقدمة.

٣- التخريج على قاعدة فقهية، أو أصل شرعي أو فتوى إمام متقدم.

٤- الاستنباط.

المدرك الثالث: التطبيق

تطبيق الحكم على النازلة يراد به: تنزيل الحكم الشرعي على المسائل النازلة.

من القواعد المقررة شرعا وعقلا وعرفا في تطبيق الأحكام الخاصة على محالها: أن ينسجم هذا التطبيق مع المصالح العليا؛ بحيث لا يفضي تحصيل المصلحة الجزئية إلى تفويت مصلحة عظمى.

والمراد بالمصلحة العليا في الشريعة: المحافظة على الكليات الخمس: «الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال».

وعليه؛ فإن هذه المحافظة تكون بمراعاة ثلاث قواعد:

الأولى: الموازنة بين المصالح والمفاسد في الحال والمآل.

الثانية: تقدير حالات الاضطرار وعموم البلوى.

الثالثة: اعتبار الأعراف والعادات واختلاف الأحوال والظروف والمكان والزمان.

- المدرك الرابع: التوقف

يمكن أن نضيف مدركا رابعا، وهو التوقف في الحكم على النازلة. وإنما يصار إليه عند العجز عن تصور الواقعة تصورا تاما.

قال ابن عبدالبر رحمه الله: «الاجتهاد لا يكون إلا على أصول يضاف إليها التحليل والتحريم، ولا يجتهد إلا عالم بها، ومن أشكل عليه شيء لزمه الوقوف، ولم يجز له أن يحيل على الله قولا في دينه، لا نظير له من أصل، ولا هو في معنى أصل، وهذا الذي لا خلاف فيه بين أئمة الأمصار قديما وحديثا؛ فتدبره». (جامع بيان العلم، ١٢٣/٢).

خامسا- ضوابط الاجتهاد في النوازل:

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف:٣٣).

فقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عام في تحريم القول في الدين من غير يقين، وعلم، وفهم، وتصور صحيح.

فمن أفتى في نازلة بغير علم؛ فقد نسب إلى الله تعالى ما لم يشرعه افتراء وكذبا؛ ومنه: تحريم بعض الحلال، أو تحليل بعض الحرام.

وهو ضلال من القول والعمل؛ وفي الحديث: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء؛ حتى إذا لم يترك عالما: اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم؛ فضلوا وأضلوا» (متفق عليه).

ولذلك؛ لا يستقيم الاجتهاد في النوازل إلا إذا توافرت فيه ثلاثة ضوابط:

- الضابط الأول: أن يكون الناظر من أهل العلم الشرعي؛ ولابد أن يتصف بالآتي:

١- الإحاطة بمدارك الأحكام وأدلتها.

٢- العلم بمقاصد الشريعة.

٣- العلم بلسان العرب.

٤- المعرفة التامة بأصول الفقه.

٥- بذل الوسع في البحث والنظر.

ومن جميل ما أتى عن الإمام أحمد رحمه الله في بيان شروط المفتي قوله: «لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال:

١ . أن تكون له نية، فإن لم يكن له نية؛ لم يكن عليه نور ولا على كلامه نور.
٢ . أن يكون له علم، وحلم، ووقار، وسكينة.
٣ . أن يكون قويا على ما هو فيه، وعلى معرفته.
٤ . الكفاية؛ وإلا مضغه الناس.
٥ . معرفة الناس».

وقد وفى وكفى الإمام ابن القيم رحمه الله في بيانها وشرحها بالدليل والبرهان في كتابه القيم إعلام الموقعين. (إعلام الموقعين، ١٥٢/٤).

– الضابط الثاني: أن يحصل للمجتهد في النازلة التصور التام، والفهم الصحيح لها:

وإنما يتم له ذلك – بما ذكرناه سابقا – من بذل الوسع، واستفراغ الجهد في تصور النازلة تصورا صحيحا، وتكييفها تكييفا دقيقا؛ ليحسن بعد ذلك تطبيق الحكم عليها وفق مراد الله ورسوله ﷺ.

وأكثر ما يقع الخلل في فتاوى العلماء بنقص التصور، أو فساد جزء منه، وتكييفه على غير ما هو عليه؛ فينشأ بعد ذلك تطبيق للحكم في غير محله، أو على غير ما مثله حكم الشارع.

– الضابط الثالث: أن يستند المجتهد في حكمه على النازلة إلى دليل شرعي معتبر

وهذا الدليل قد يكون نصا، أو إجماعا، أو قياسا، أو استصلاحا، إلى ما هنالك من الأدلة الشرعية المعتبرة.

ولا يكفي في العالم نباهته، وذوقه الفقهي، أو ملكته الفقهية، والتأصيلية؛ حتى يجمع إلى ذلك تعظيمه للنصوص الشرعية، والقواعد المرعية؛ فإن كثيرا ممن توافرت فيهم الشروط صادموا – بما استندوا إليه من أدلة – النصوص الشرعية؛ بقصد أو من دون قصد.

وإنما ألجأهم إلى ما وقعوا فيه: نوع من التأويل غير المعتبر، أو الاجتهاد غير المنضبط.

ومن الأمثلة على مصادمة نصوص الكتاب والسنة، أو مخالفة الإجماع: القول بحلية المعاملات الربوية في البنوك، وتجويز العمل فيها، والحكم بجواز الاستماع إلى الموسيقى والغناء، ومشاركة الكافرين في الاحتفال بأعيادهم.

سادسا – أعظم المزالق التي يقع فيها المفتي عند الاجتهاد للنازلة:

المراد بالمزالق التي يراد بها التنبيه عليها في هذه المسألة: تلك المداخل الخفية والأخطاء الدقيقة التي تحصل لكثير ممن يفتي في النوازل.

ذلك أن الوقوع في هذه المزالق حاصل مع توافر الضوابط الثلاثة من حيث الجملة، أعني بذلك ضوابط الاجتهاد في النوازل التي ورد بيانها في المسألة السابقة.

ومنها:

– المزلق الأول: تجزئة النازلة

وهو تقسيمها إلى أجزائها التي تتركب منها، مع إعطاء كل جزء حكمه الخاص به، كل على حدة، من دون اعتبار للقدر الحاصل من التركيب والاجتماع.

ومن الأمثلة على ذلك:

أن يقال في بيع المرابحة: هو عبارة عن ثلاثة عقود: عقد وكالة، وعقد مواعدة بالشراء، وعقد بيع بالتقسيط، وكلها عقود صحيحة، وبناء على ذلك فبيع المرابحة عقد صحيح لا غبار عليه.

هذا ما نطق به بعض المفتين . ممن يقول بالجواز . من غير التفات إلى المعنى الحاصل من حصول هذه العقود الثلاثة مجتمعة، ومن دون نظر إلى الهيئة الجديدة المتولدة عن هذا التركيب.

المزلق الثاني: الحيدة عن الواقع:

ومن الأمثلة على ذلك:

أن بعض المفتين حينما قد يسأل عن حكم الإيجار المنتهي بالتمليك يقول: يجوز. فيقول له السائل: لكنهم يلزموننا بالتأمين. فيقول: لا توافقهم على التأمين، بل خذ السيارة من دون تأمين، التأمين ليس بلازم.

إن هذا المفتي كان عليه أن يجلي الصورة الحاصلة في الواقع، وهي أن الإيجار المنتهي بالتمليك، بحسب الواقع، لابد فيه من التأمين. وكان عليه أن يقول: إن الإيجار المنتهي بالتمليك مع اشتراط التأمين يجوز، أو لا يجوز.

المزلق الثالث: الغفلة عن تطور النوازل وانقلابها

فهل يسوغ – مثلا – استصحاب فتوى سابقة في جواز شراء أسهم الشركات وتطبيقها القديم على أسهم الشركات القائمة الآن بصورها المتعددة؟

المزلق الرابع: الميل بالناس إلى التيسير والتخفيف من دون اعتبار لمقاصد الشريعة وقواعدها العامة.

المزلق الخامس: الميل بالناس إلى التشديد والمنع من دون اعتبار لمقاصد الشريعة وقواعدها العامة

المراد بمظان فقه النوازل: المصادر التي تتميز بذكر النوازل وبيان أحكامها.

ويمكن تصنيف هذه المصادر إلى سبعة أنواع:

● **أولا – الكتب المؤلفة في النوازل**

منها: كتاب الدكتور القرضاوي في الزكاة، و«المعاملات المالية المعاصرة»؛ للدكتور سعد الدين الكبي، وكتاب «الحوافز التجارية»؛ للدكتور خالد المصلح، وغيرها.

ومنها: «أحكام الجراحة الطبية»؛ للدكتور محمد الشنقيطي.

ومنها: «فقه الأقليات المسلمة»؛ للدكتور خالد عبدالقادر.

● **ثانيا – الأبحاث المنشورة في المجلات والدوريات العلمية**

ومن أبرزها:

– «مجلة مجمع الفقه الإسلامي»

بجدة.
- «مجلة المجمع الفقهي الإسلامي» بمكة المكرمة.
- «مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية» بالكويت.
- «مجلة جامعة أم القرى» بمكة المكرمة.

● ثالثا - التوصيات والدراسات الصادرة عن المؤتمرات والندوات الخاصة ببعض النوازل.

ومنها: المؤتمرات العلمية في النوازل المعاصرة في كثير من البلدان الإسلامية؛ ومنها التي تعقد في دولة الكويت؛ كمؤتمر صناعة الحلال في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - إدارة الإفتاء.

ومنها: الندوات التي يعقدها بيت التمويل الكويتي في القضايا المالية وقضايا الزكاة المعاصرة.

● رابعا - القرارات والبيانات والفتاوى الصادرة عن المجامع الفقهية واللجان والهيئات العلمية

ومن هذه المجامع الفقهية والهيئات:

١- «مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر

أسس عام (١٣٨١هـ - ١٩٦١م)، صدر في مصر قانون بشأن تنظيم الأزهر، وإنشاء هيئات تابعة له، ومن بين هذه الهيئات إنشاء مجمع فقهي للفتاوى والأبحاث الإسلامية والعلمية.

ويتألف المجمع من خمسين عضوا من كبار علماء الإسلام، يمثلون جميع المذاهب الإسلامية، ويكون من بينهم عدد لا يزيد على العشرين من غير مواطني مصر.

وقد عقد المجمع أول مؤتمر له في القاهرة في شوال عام ١٣٨٣هـ.

٢- «المجمع الفقهي الإسلامي» التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

أنشئ هذا المجمع عام ١٣٩٦هـ، ويتكون من رئيس ونائب له، وعشرين عضوا من العلماء المتميزين بالنظر الفقهي والأصولي.

وأول دورة له عقدت في شهر شعبان عام ١٣٩٨هـ.

٣- «مجمع الفقه الإسلامي» التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي

تأسس مجمع الفقه الإسلامي الدولي تنفيذا للقرار الصادر عن مؤتمر القمة الإسلامي الثالث: «دورة فلسطين والقدس»؛ المنعقد في مكة المكرمة في الفترة من ١٩-٢٢ ربيع الأول ١٤٠١هـ الموافقة ٢٥-٢٨ يناير ١٩٨١م.

ويبلغ عدد الدول المشاركة في المجمع ثلاثا وأربعين دولة من بين سبع وخمسين دولة؛ ممثلة بواحد أو أكثر من خيرة علماء الفقه الإسلامي من أبنائها.

وقد انعقد المؤتمر التأسيسي لمجمع الفقه الإسلامي الدولي في مكة المكرمة في يونيو عام ١٩٨٣م.

٤- «مجمع الفقه الإسلامي» بالهند

أنشئ في نهاية عام ١٩٨٨م، ويشارك في ندوات المجمع السنوية نخبة من علماء الهند، يزيد عددهم على ستمئة عالم.

وأول ندوة له كانت عام ١٩٨٩م في نيودلهي، وطبعت قراراته وتوصياته في مجلد عام ١٤٢٠هـ.

٥- «مجمع الفقه الإسلامي» بالسودان

أسس وفق قانون صادر عام ١٤١٩هـ، ويضم أربعين عضوا من كبار علماء السودان، وله مستشارون من خارج السودان.

وفي سنة تأسيسه نفسها عقد أول مؤتمراته في شهر رمضان.

٦- «هيئة كبار العلماء» بالمملكة العربية السعودية

ألفت بأمر ملكي عام ١٣٩١هـ، وتنعقد كل ستة أشهر، ويرأسها سماحة المفتي العام.

٧- «اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء» بالمملكة العربية السعودية متفرعة عن هيئة كبار العلماء. وتصدر عنها مجموعة عظيمة من الفتاوى.

٨- رابطة علماء المغرب

مقرها الرباط، وتضم ثلة من علماء وفقهاء المغرب العربي، وصدر عنها مجلة باسمها، وكتاب في الفقه جامع.

٩- «قطاع الإفتاء والبحوث الشرعية» بالكويت

ويضم هيئة الفتوى بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية؛ وهم ثلة من العلماء والفقهاء الأجلاء أولي كفاءة علمية متخصصة.

وصدر عن القطاع «مجموعة الفتاوى الشرعية»؛ وكان ذلك تباعا منذ عام ١٤١٧هـ/١٩٩٦م إلى وقتنا الحالي، وبلغ عدد الأجزاء المطبوعة ٢٨ جزءا.

١٠- المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث

وهو هيئة علمية إسلامية متخصصة مستقلة، مقره في دبلن بإيرلندا، وقد عُقد لقاؤه التأسيسي في لندن عام ١٤١٧هـ.

١١- «مجمع فقهاء الشريعة» بأميركا

مقره في أميركا. وهو مؤسسة علمية تتكون من مجموعة مختارة من فقهاء الأمة الإسلامية وعلمائها، تسعى إلى بيان أحكام الشريعة فيما يعرض للمقيمين في أميركا من النوازل والأقضيات.

● خامسا - فتاوى المعاصرين الفردية التي تغلب عليها العناية بالنوازل المعاصرة.

● سادسا - الرسائل الجامعية.

● سابعا - المواقع الإلكترونية التي تعتني بدراسة ونشر الفتاوى المتعلقة بالنوازل المتنوعة.

للاستزادة والمراجعة؛ ينظر: «فقه النوازل»؛ لشيخنا وأستاذنا الدكتور محمد حسين الجيزاني حفظه الله تعالى.

إعداد: تركي محمد النصر

الحياة طريق مسافر

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حط عن رحالهم إلا في الجنة والنار. والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار. ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة، وإنما ذلك بعد انتهاء السفر.

(الفوائد لابن القيم ص ٢٤٥).

ستة مشاهد

قال ابن القيم رحمه الله: إذا جرى على العبد مقدور يكرهه، فله فيه ستة مشاهد أحدها: مشهد التوحيد، وأن الله هو الذي قدره وشاءه وخلقه، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الثاني: مشهد العدل، وأنه ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه.

الثالث: مشهد الرحمة، وأن رحمته في هذا المقدور غالبه لغضبه وانتقامه ورحمته حشوة.

الرابع: مشهد الحكمة، وأن حكمته سبحانه اقتضت ذلك، لم يقدره سدى ولا قضاه عبثا.

الخامس: مشهد الحمد، وأن له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه.

السادس: مشهد العبودية، وأنه عبد محض من كل وجه تجري عليه أحكام سيده وأقضيته بحكم كونه ملكه وعبده، فيصرفه تحت أحكامه القدرية، كما يصرفه تحت أحكامه الدينية، فهو محل لجريان هذه الأحكام عليه.

(الفوائد لابن القيم ٣٢/١)

فروق لطيفة

الفرق بين النسيان والسهو: أن النسيان يزول عن القوة المدركة والحافظة، أما السهو فإنه يزول عن القوة المدركة لا الحافظة.

والفرق بين مجموع الأجزاء، وجميع الأجزاء: هو أنه اعتبرت في المجموع الهيئة الاجتماعية دون الجمع، فإنه يعتبر في ذلك.

(الصبابات ص ١١٠)

أنقذتهم فصاحتهم من الموت

التقى صاحب حرس الحجاج بغلمان يطوفون بالليل، وأراد أن يضرب رقابهم، ثم قال لهم: من أنتم؟.

فقال الأول:

أنا ابن من دانت الرقاب له
ما بين مخزومها وهاشمها
تأتيه بالرغم وهي صاغرة
يأخذ من مالها ومن دمها

فأمسك عنه، وقال: لعله من أقارب أمير المؤمنين.

ثم قال للآخر: وأنت من تكون؟

فقال:

أنا ابن من لا تنزل الدهر قدْره
وإن نزلت يوما فسوف تعود
ترى الناس أفواجا إلى ضوء ناره
فمنهم قيام حولها وقعود

فأمسك عنه، وقال: لعله ابن أشرف العرب.

ثم قال للثالث، وأنت من تكون؟

فقال:

أنا ابن لمن خاض الصفوف بعزمه
وقومها بالسيف حتى استقامت
وركباه لا ينفك رجلاه منهما
إذا الخيل في اليوم الكريهة ولت

فلما كان الصباح أحضرهم، وكشف عن حالهم فإذا بالأول ابن حجام، والثاني ابن فوال، والثالث ابن حائك.

فتعجب من فصاحتهم، وقال لجلسائه: علموا أولادكم الأدب، فوالله لولا فصاحتهم لضربت أعناقهم.

(أخبار العرب ٩٨/٣).

إني أخاف أن نصطحب

أراد الحسن بن علي رضي الله عنه الحج فطلب منه ثابت البناني أن يصاحبه؛ فقال: «ويحك دعنا نتعايش بستر الله، إني أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه».

(مواعظ الصحابة ووصاياهم ص ٣٢٢)

خطبة خليفة

لما أفضى الأمر إلى سليمان بن عبد الملك صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أيها الناس، الدنيا دار غرور، وباطل، وزينة، وتقلب بأهلها، تضحك باكيها، وتبكي ضاحكها، وتخيف آمنها، وتؤمن خائفها، وتثري فقيرها، وتفقر مثريها، عباد الله، اتخذوا كتاب الله إماما، وارضوا به حكما، واجعلوه لكم هاديا ودليلا، فإنه ناسخ ما قبله، ولا ينسخه ما بعده، واعلموا عباد الله أنه ينفي عنكم كيد الشيطان ومطامعه، كما يجلو ضوء الصبح إذا أسفر إدبار الليل إذا عسعس»

(شذرات الذهب: ١/٣٩٩ ص:١٥٧)

المنزل الحق والوعد الصدق

خرجت امرأة من العرب ترید المقابر حتى جلست على قبر ابنها، فقالت بصوت لها ضعيف: هذا والله المنزل الحق، والوعد الصدق، والوعيد الشديد، والمسكن الذي ليس لأهل الدنيا عنه محيد، هذا والله المفرق بين الأحباب، والمقرب من الحساب، وبه يعرف الفريقان منازلهم، أهل السعادة وأهل الشقاء، لا أقول هجرا، ولكني أحتسب على الله مصابي بك يا بني.

(بهجة المجالس لابن عبد البر)

المحافظة على الوقت

ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة. ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل. ولتكن نيته في الخير قائمة، من غير فتور ربما لا يعجز عنه البدن من العمل، كما جاء في الحديث: (نية المؤمن خير من عمله).

(صيد الخاطر لابن الجوزي)

طيبة وخبيثة

شجرة طيبة: الإخلاص والتوحيد شجرة في القلب، فروعها الأعمال، وثمرها طيب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة. وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك.

شجرة خبيثة: الشرك والكذب والرياء شجرة في القلب، ثمرها في الدنيا الخوف والهم والغم وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها في الآخرة الزقوم والعذاب المقيم.

(الفوائد لابن القيم ص ٢١٤).

وفاة الأئمة الأربعة

نظمت تاريخ قوم
هم من النجم أهدا
أبو حنيفة سيف (١٥٠)
ماض الشبا ليس يصدا
ومالك قطع (١٧٩) ضد
بفضله قد تبدا
والشافعي در (٢٠٤) علم
به تنظم عقدا
وأحمد رام (٢٤١) فضلا
فنال علما ومجدا

(الكشكول لابن عقيل النجدي ص ٢٤٣)

العلم والتربية

قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله: العلم الخالي من التربية ضرره أكثر من نفعه، وما أصيب المسلمون في عزتهم إلا يوم فارقت التربية الصالحة العلم، وكم شقي أصحاب العلم المجرد بالعلم وأشقوا أممهم، والسعادة غاية لا يسلك إليها طريق العلم وحده من غير أن تصاحبه التربية. وأن الجمع بين التربية والتعليم هو وظيفة النبوة التي تبينها الآية: (ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون).البقرة: ١٥١

(آثار الإبراهيمي ٤/١٧٣)

خوف وخشية

قيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما كان بدو إنابتك؟ قال: أردت ضرب غلام لي فقال: يا عمر اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة.

(حياة السلف بين القول والعمل ص ٥١١)

تطفئ بحارا من النار

عن أبي عمران الجوني رحمه الله قال: لكل أعمال البر جزاء، وفي كلها خير إلا الدمعة تخرج من عين العبد، فليس لها كيل ولا وزن حتى يطفأ بها بحار من النيران.

(موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/١٧٧)

شكر وتعليق

إلى الأفاضل في هيئة تحرير مجلة «الوعي الإسلامي»

تحية طيبة وبعد،

فهذا نموذج من القراء الذين يثنون على المجلة، وعلى ما أطرس فيها من خلال حلقات «القول المأثور..».

دامت لكم المسرات، مع الرجاء إبلاغ تحياتي للسيد فيصل يوسف العلي/ رئيس تحرير المجلة. والسلام.

● **عبدالله أيت الأعشير**

بسم الله الرحمان الرحيم

الأستاذ القدير سي عبد الله ايت الأعشير

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

قرأت الحلقة 23 من القول المأثور في احياء الحواء المهجور و هو كرة أخرى من كر هذا العقد الذهبي الذي صاغته أناملكم لتزين به جيد لغتنا الحسناء. و قد أشرتم في بداية مقالكم الرائع مجموعة من الأفكار النيرة:

— سمو الفصحى و شرفها بالنظر الى فضائلها.

— أهمية النظرة اللغوية للحياة في التمييز بين الأمم و الشعوب.

— قيمة اللغة عند الفلاسفة.

— اتساع محتوى اللغة و رحابتها و علاقتها الوطيدة بالأمة التي تستعملها.

و شكلت هذه الباقة من الأفكار توطئة رشيقة مشرقة تدخل الحبور و الروح القارئ بعد أن تصرقتم الى الوضعية التي لا ترقى بكم للغة العربية في التعليم و الاعلام في كل العولمة. و أكدتم على ضرورة النهوض باللغة العربية و إخراجها من الوضعية المزرية التي أصبحت تعيشها، و ذلك يستلزم في نظركم سياسة لغوية صريحة تنطلق من جهود الأمة بأسرها.

و قد رسمتم خطة اصلاحية واعية و محكمة استفدتم فيها من خبرتكم الأكاديمية و المهنية في التدريس و التأطير:

— الاصلاح يجب أن ينطلق من رياض الأطفال.

— الاعتماد على السماع في تلقين اللغة للشداة لأن السماع أبو الملكات.

— الاعتماد على الوسائل الحديثة في تعليم اللغة للشداة.

— اعتماد التكرار في تلقين اللغة لأن الشيء اذا تكرر تقرر.

— تشنيف أسماع الشداة بالسور القرآنية القصيرة و الأناشيد العربية التي ترسخ فيهم حب العربية و القيم الرفيعة و تمكنهم من مقاومة التنميط العولمي الماحق الذي يدخل الشخص في قواعد الفصحى و في الخصائص التي تمكنها من التعبير عن الدلالات المختلفة للكلمة الواحدة تبعا لاختلاف حركات مبانيها، و قد حرصتم على ذكر بعض النماذج التي تتغير معانيها بتغير حركات مبانيها لتذكير رجال الصحافة و نسائها و صناع البرامج التعليمية و معدي الكتب المدرسية بضرورة الانتباه الى ذلك أثناء النطق بهذه الكلمات.

و في الختام لا يسعني إلا أن أشكركم على المتعة التي عشتها و الفوائد التي اكتسبتها و الثمار التي جنيتها من قراءة مقالكم هذا خصوصا و كل ما قرأته لكم عموما.

مع متمنياتي لكم بمزيد من التوفيق و النجاح

عمر

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

في خلافة المعتصم العباسي، حَـرَمَ العرب من معاشاتهم التي كانت تؤديها الدولة لهم؛ باعتبارهم جنودا، واستكثر من الأتراك في عصره (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م)، فلما قطع عطاء العرب انداح العرب في شتى أرجاء مصر. وكانت لخم وجذام أكثر ضررا من القيسية بقرار الخليفة، فقاموا بثورتهم، فنزلت اللخمية الإسكندرية وما حولها، ونزلت بلي وجهينة الصعيد والصحراء الشرقية.

وهاجرت جموع كثيرة من ربيعة (ابن نزار بن معد بن عدنان) في عهد المتوكل العباسي (٢٣٢-٢٤٧هـ - ٨٤٩-٨٥٤م)، حول الحرف الشرقي، ثم واصلوا جنوبا بأسرهم حتى استقروا في وادي العلاقي، لوجود معادن الذهب والزمرد والأحجار الكريمة هناك، وأسسوا إمارتهم الأولى بالعلاقي، في الصحراء الشرقية، في (٣٣٣هـ)، وكان معظم المهاجرين بها من القيسية. وقد حارب العرب مع الأيوبية لطرد الصليبيين من الشرق، ومنها قبيلة طيّئ (جزم وثعلبة)، وقد امتد سلطان هذه الإمارة العربية من وادي العلاقي شرقا، حتى نهر النيل غربا. وكان أمير هذه الإمارة العربية أبومروان بشر بن إسحق.

وجعلوا مركز إمارتهم مدينة أسوان (٧٩٠هـ)، وقد سمي هؤلاء: «أولاد الكنز»، ويسمى أتباعهم حتى الآن في بلاد النوبة: «الكنوز».

● عبدالرحمن عوض

تهنئة

بمناسبة حلول العام الجديد، يسرني أن أرفع إليكم خاصة، وإلى أسرة التحرير عامة أسمى تهانينا، سائلا المولى تعالى أن يجعلها لكم وثبة جديدة لإنجازات أفضل.

هذا ولا أنسى أن أشيد بحلة المجلة الفاخرة التي أتاحت للقراء الكرام تحميل المجلة مباشرة وكاملة، وأعتقد أن هذه الإمكانية تمت دراستها جيدا، بما لا يضر بمبيعات المجلة الشهرية.

تفضلوا بقبول فائق التقدير والاحترام.

ودمتم في سابغ رعاية الله وحفظه.

● مختار محمد لوح

رسالة تقدير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

إلى السادة الكرام القائمين على مجلة «الوعي الإسلامي» النافعة، أحييكم، وأتمنى أن يتقبل الله جهدكم ويجعله في ميزان حسناتكم.

شد انتباهي تعدد قطوفكم، وتناولكم للعديد من المحاور المهمة.

ويسرني أن أتقدم إليكم بطلب قبولي للنشر في مجلتكم وفق قيم المجلة المرعية، مع العلم أنني باحثة في مجال علم النفس وعلوم التربية، وحاصلة على شهادة الليسانس في علم النفس المدرسي وماجستير علم النفس التربوي، ومهتمة بالإرشاد الأسري.

ببالغ الامتنان والتقدير أبلغكم رغبتي في التواصل والعمل معكم أيها الكرام.

تقبلوا تحياتي واحتراماتي.

وأنتظر ردكم في أقرب فرصة عسى أن نساهم في إفادة الغير.

ومسك الختام.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

● فاطمة الزهرة

الإسلام يدعو لضبط النفس

خلق الله تعالى الأنفس وأقسم بها لعظم قدرها فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس:٧-٨).

والأنفس متفاوتة ومتباينة، فهناك النفس اللوامة التي تلوم صاحبها حين يقترف إثما أو يرتكب جرما بينه وبين خالقه، أو بين بني جلدته، يثوي إلى رشده ويتوب خوفا من بارئه، ويرضي من أساء إليه. وهناك النفس الأمّارة بالسوء، وهي النفس الخبيثة التي اتحدت والشيطان على الإنسان فأوردته المهالك، تأمره بالسوء فيأتمر. وهنا يقول القرآن الكريم عن تلك النفس وصاحبها: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:١٠)، أي: خسر من نقصها وأخفاها بالفجور، وعنها يقول الله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (يوسف:٥٣). أما النفس المطمئنة فهي التي استقامت على الدرب، وعرفت طريق الخير فسارت فيه، واهتدت بهدي القرآن والسنة، فترى صاحبها من المفلحين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾(الشمس:٩)، أي: فاز بالبغية وظفر بها.

يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

وقد أنزل الله سورة باسم الشورى، امتدح الله فيها المتشاورين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى:٣٨).

● طنطاوي عبدالقادر

قادة الفتح الإسلامي

حفلت رفوف المكتبة العربية والتاريخية بمجموعة من الكتب الإسلامية، التي ألفها المؤرخ العراقي الكبير العلامة المحقق الحاج محمود شيت خطاب، عضو المجمع العلمي العراقي ببغداد. وهذه الكتب سلسلة تضمنت تراجم العسكريين العرب، الذين خرجوا بالجيوش الإسلامية في الفتوح الأولى، في صدر الإسلام، أيام الخلفاء الراشدين الأربعة، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم، ثم في العهد الذي تلاهم، تحت لواء الخلفاء الأمويين، وحمل عنوانها: «قادة الفتح الإسلامي» في الشام والعراق وفارس ومصر وبلاد المغرب العربي، من ليبيا حتى شواطئ المحيط الأطلنطي، الذي سماه العرب بحر الظلمات.

وليس من شك في أن علاّمتنا، حين أخذ نفسه بهذا اللون من الدراسات التاريخية؛ إنما كان مستجيبا لما في نفسه من نوازع الوفاء لأولئك الرعيل الصالح، من صحابة رسول الله ﷺ والتابعين، رضوان الله عليهم، الذين أكرمهم الله عزوجل بنشر الدعوة الإسلامية، في مشارق الأرض ومغاربها في برهة من الزمن أظهروا فيها من الإخلاص وروح الفداء والشوق الى الشهادة، ما جعلهم أمثولة رائعة للعاملين المخلصين، من أجل دينهم وأوطانهم، في سائر العصور والأجيال.

مقتطفات من مقال قديم
للشيخ طه الولي رحمه الله

معاداة السامية و حرية التعبير

إن حرية التعبير حق أصيل من حقوق الإنسان، ولأنه حق يتيح لكل إنسان القدرة على إظهار مواهبه والتعبير عنها، وتمكينه من الدفاع عن جميع حقوقه الأخرى، والتنديد بمن ينتهكها؛ فإن حرية التعبير تعد واحدة من «أمات» الحقوق الإنسانية -إن جاز التعبير- لذا يصعب في الواقع تصور الحياة البشرية المعاصرة، دون كفالة هذا الحق لكل مواطن، وهو ما يفسر لماذا تستميت النظم الديموقراطية في التمسك به، ووضع الآليات الكفيلة بحمايته، والتوسع في تفسيره.. ورغم إدراك النظم الديموقراطية المعاصرة المخاطر التي قد تترتب على إساءة استخدام هذا الحق، فإنها تقاوم بشدة كل المحاولات الرامية للحد منه، ومن ثم لا تتجاوب مع هذه المحاولات إلا في أضيق الحدود، ولضرورات قصوى، تتعلق بحماية الحقوق الفردية والجماعية الأخرى، ومع ذلك يلاحظ أن دولا ديموقراطية أقدمت منذ سنوات على سن قوانين تجرم «معاداة السامية»، وتعاقب كل من يحاول التشكيك في «المحرقة» التي تعرض لها يهود ألمانيا، إبَّان الحكم النازي، ففي أكتوبر (٢٠٠٤م) أقر الكونجرس الأميركي «قانون معاداة السامية»، ووقع عليه فور صدوره، وراح العديد من الدول الأوروبية يحذو حذو الولايات المتحدة، ويسن تباعا قوانين مشابهة.

● محمد السيد عامر

شكرا .. الوعي الشبابي

لا أستطيع وصف ما يغمرني من سعادة، كيف أفعل وأنا أراسل مجلتكم القيمة؟ أدرس في الصف الثاني الثانوي، اسمي محمد البوبكري، مغربي الجنسية، وأبلغ من العمر سبع عشرة سنة، لازلت أجهل كيف تعاقبت الفصول خلالها.

أولا، أود تقديم شكر من خالص قلبي على جهودكم العظيمة، ولما تقدمونه من معلومات وإرشادات قيمة لشباب أمتنا العربية، فحقيقة «مجلة الوعي الشبابي» غيرت الكثير الكثير في ظرف وجيز ما لم يغير في عشرات السنين... غيرت سلوكات وأفكارا تعلوها الشوائب، وأهدت نكهة السعادة لحياة القانطين.

... ألتمس من سيادتكم من خلال هذا البريد الإلكتروني السماح لي بالتدوين في مجلتكم «الوعي الإسلامي والوعي الشبابي».

فرغم أن شعبتي العلمية – العلوم الرياضية- لا تتيح لي كثيراً من الوقت، إلا أن روحي الإبداعية في نسج الكلم تقيدني لأجد نفسي مأسورا في تشكيل أجمل اللوحات الأدبية وغيرها نثرا وشعرا، وهذا من فضل الله تعالى. لكن غالبا ما تذهب هذه الأعمال في مهب الريح لتقتل روحي رويدا رويدا- لهذا السبب أراسلكم طارقا باب النجاة.. في انتظار إجابتكم – المنتظرة على أحر من الجمر – تقبلوا فائق الشكر والاحترام والتقدير، وأبقاكم الله نعمة للصالح العام.

● محمد البوبكري

الغراب عند العرب.. نذير شؤم أم بشير خير؟!

كلما رأينا إنسانا أضناه الهجر وأثقله البين، وأدنفه جوى يذيب منه الحشا، ويفجر في صدره بركان شوق يمزق ضلوعه.. وجدناه يلقي باللوم على الغراب!

وكلما حكمت الأقدار على شخص ما بفراق محب أو وداع ركب علقوا في ركابهم فؤاده، فازداد انهمار الدموع ونحيب الأكباد.. ألفينا ذلك الشخص يحمل الغراب تبعات ما حل.

وإن المتأمل في أشعار العرب وأسفار البلاغة والأدب، كثيرا ما يرى أن الشاعر يلقي باللوم على غراب البين، فيكثر من تقريعه وذمه، وكأن الغراب بيده مفاتيح الشقاء والتجافي، أو هو مطية التعاسة ومركب للبائسين.. مع أن ذلك الغراب مسكين، لا يملك حولا ولا قوة، ولا يملك نفعا ولا ضرا، ولا هجرا ولا لقاء.

وعندما يكون الشاعر متشائما تسيطر عليه حالة من السوداوية والكآبة، نراه يتفنن في توبيخ الغراب، ويمطر عليه وابلا من سحاب اللوم وغيث التقريع، الذي قد يصل أحيانا إلى السباب والشتائم، بل ربما تعدى ذلك إلى القتل والفناء.

ويبقى السؤال: ما ذنب الغراب حتى يسمى غراب البين؟! وأية جناية ارتكب حتى يضاف اسمه إلى الهجر والقطيعة والبعد والفراق؟! وهل يستطيع الغراب أن يصل ما شاءت الأقدار أن يُقطع، أو أن يقطع ما شاءت الأقدار أن يوصل؟

● مقتطفات من مقال الكاتب
مصطفى قاسم عباس

الأبعاد الأخلاقية في العملية الاجتهادية

يفيد التدبر في الحديث النبوي الجامع «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» أن البعثة النبوية جاءت من أجل أمر ضروري، لا يجوز أبدا تركه، لأنه متعلق بالدين بكليته. ذلك الأمر هو القيم الخلقية التي لا تكاد آية قرآنية أو حديث نبوي شريف يخلو منها، لأن موقع الأخلاق مركزي ضمن غايات البعثة المحمدية التي تستهدف العالمين بمقصد من أهم المقاصد العالية، إنه الرحمة في قوله عزوجل ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء:١٠٧).

ومعلوم أن العملية الاجتهادية يجب أن تنطلق من مقصد الرحمة وتنتهي إليه في شمولية لكل الأحكام الفقهية التي تؤول في مجملها إلى أفعال أخلاقية.

وبالعودة إلى صلة المقاصد الشرعية بالجانب الخلقي، يلاحظ المتأمل في كتاب الموافقات للإمام الشاطبي وجود تكامل أخلاقي أصولي في إطار الحكم الشرعي. وقد قال في مقدمته «كل مسألة مرسومة في أصول الفقه لا ينبني عليها فروع فقهية أو آداب شرعية أو لا تكون عونا في ذلك فوضعها في أصول الفقه عارية». ذلك لأن القواعد الأصولية والمقاصد الشرعية لها ارتباط وثيق بالقيم الأخلاقية. أليس حفظ الضروريات الخمس أوضح برهان على صون المصالح الإنسانية عاجلا أم آجلا؟! وفي ذلك أوضح دليل على حفظ القيم الخلقية.

إن تنصيص الإمام الشاطبي على الآداب الشرعية في كلامه الآنف الذكر، يبرز بأوضح بيان الجانب الخلقي في قواعد الفقه وأصوله؛ لأن عدم وجود البعد الأخلاقي في القواعد الأصولية وعدم تحقيقها للفروع الفقهية المحققة للمصالح الشرعية والآداب الأخلاقية من تحسين السلوك وتقويم الجانب التربوي في حياة المكلف، يجعل تلك المسائل والقواعد عارية في أصول الفقه لا فائدة فيها، وبذلك فضبط القواعد الأصولية بهذه الشرطية يضمن قيام القواعد الأصولية على قيم تربوية وأخلاقية.

وقد نبه الشيخ الطاهر بن عاشور إلى اعتبار الجانب الخلقي ليس في الأحكام فحسب وإنما في شخصية المجتهدين، إذ «يتعين أن يكونوا -يعني المجتهدين- قد جمعوا إلى العلم العدالة واتباع الشريعة». ذلك لأن الخلق الإسلامي يورث الورع ونور العلم والعمل، وقد «كان الأئمة الأعلام الذين أورثوا من بعدهم ذلك الفقه العميق كانوا ممن اشتهروا بالورع قبل أن يشتهروا بالفقه وأخبارهم ناضحة بالنور والمعرفة». ومعلوم أن الورع هو ممارسة خلقية والتزام عملي بالأحكام، ويعد البعد عن الأهواء والشهوات علامة فارقة في سلوك المتصف بالورع، وقد قيل: الورع الخروج من الشهوات وترك السيئات، ويرجع ذلك إلى أن الباعث على الورع عن المحارم والشبه هو إحدى ثلاث:

- إما حذر حلول الوعيد.
- وإما تعظيم الرب جل جلاله.
- وإما إجلاله أن يتعرض لما نهى عنه.

ومن جوامع كلم النبي ﷺ بيانه للورع في قوله «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». وفي شرح دقيق لابن القيم لهذا الحديث ذكر أن «هذا يعم الترك لما لا يعني من الكلام والنظر والاستماع والبطش والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة فهذه كاملة كافية شافية في الورع».

وحاصل القول مما تقدم، أن العملية الاجتهادية تقتضي لزوما أن يتخلق المجتهد بالقيم الإسلامية العملية، سالكا مسلك القدوة، كي يروم تحقق الروح المقاصدية للأحكام التي تؤول إلى أبعاد أخلاقية ذات تأثير عميق في نظام الأمة بدءا بالمهد المؤسس للقيم وهو الأسرة المسلمة.

د. محمد طونيو
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس - فاس- المغرب